

فِي رَحَابِ
الْبَيْتِ الزَّائِدِ الْجَامِعِ الْكَبِيرِ

الجزء الرابع

تأليف

سيد حمزة السيد صاحب دار الفتن

إعداد وتحقيق

مؤسسة إحياء التراث الشيعي

فِي رَحَابِ
الْبَيْتِ الْخَامِعِ الْكَبِيرِ

الجزء الرابع

تأليف

سماحة السيد صدر الدين القمي

إعداد وتحقيق



مجلس الشورى الإسلامي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ





مؤسسة إحياء التراث الشيعي

www.turathshiai.com

E-mail: info@turathshiai.com

النجف الأشرف

الهاتف ٢١٨٣١٨ و ٣٧٢٠١١ _ النقال: ٠٧٨٠٤٧٥٤٥٣٥

ص.ب ٥٨٨

في رحاب الزيارة الجامعة الكبيرة ج (٤)

السيد صدر الدين القبانجي

إعداد وتحقيق

مؤسسة إحياء التراث الشيعي

الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ

رقم الإصدار: ١٦

النجف الأشرف

عدد النسخ: ٣٠٠٠

دار النشر: بقية العترة

المطبعة: زيتون

ردمك: ٩٧٨-٩٦٤-١٦٢-٠٤٦-٤

جميع الحقوق محفوظة للمؤسسة

إيضاح

فصول الزيارة الجامعة:

هذه الزيارة يمكن تقسيمها بشكل طبيعي إلى خمسة فصول:

الفصل الأول: التحية والسلام. وفي هذا الفصل نجد هذه الزيارة تبدأ بجميع مفرداتها بالسلام، «السلام عليكم يا أهل بيت النبوة، .. السلام على الدعاة إلى الله...» وهكذا.

الفصل الثاني: يبدأ باستعراض عقيدة الإنسان المؤمن بين يدي الأئمة الأطهار عليهم السلام. نقول هذه هي عقيدتنا: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأشهد أنكم الأئمة الراشدون، المهديون، المعصومون، المقربون، المتقون»، لاحظوا هذا استعراض عقيدة الإنسان، يعني عندما الطالب يقف أمام الأستاذ في المدرسة يقول له هذه هي النظريات التي أومن بها، فإذا كانت صحيحة قبلها مني، وإذا كانت غير صحيحة صححها لي، نحن في الزيارة الجامعة بعد أن نبدأ في الفصل الأول بالسلام على أهل البيت، نبدأ بالفصل الثاني بمقطع «أشهد أن لا إله إلا الله» استعراضاً عقائدياً.

الفصل الثالث: نتقل له بشكل مرتب ورائع، كأن الإمام عليه السلام رتب هذه الزيارة على شكل فصول، هذا الفصل يبدأ بشرح علاقة الأئمة الأطهار عليهم السلام مع الله تبارك وتعالى ومنزلةهم عنده.

ما هي منزلة أهل البيت عند الله تبارك وتعالى؟

هنا نقول: «أشهد أنكم السبيل الأعظم، والصراط الأقوم، وشهداء دار

الفناء، وشفعاء دار البقاء، والرحمة الموصولة، والآية المخزونة»، لاحظوا كل هذا عرض رائع جداً لتصورنا عن منزلة أهل البيت عليهم السلام فيما بينهم وبين الله تبارك وتعالى.

الفصل الرابع: هو عبارة عن استعراض علاقة المؤمن بأهل البيت عليهم السلام. لقد تضمن الفصل الثاني عرضاً لاعتقادنا بالله، وبرسول الله وبالأئمة الأطهار، والآن ما هي علاقتنا بأهل البيت؟

هذا الفصل يكرس لشرح علاقتك أنت المؤمن بأهل البيت، «إني بكم مؤمن، وبإيابكم، موقن بشرايع ديني وخواتيم عملي، إني سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم».

الفصل الخامس: هو الخاتمة، وهو عبارة عن الدعاء، أي بعد أن أذينا أدب التحية مع أهل البيت عليهم السلام في الفصل الأول، وفي الفصل الثاني استعرضنا عقائدنا واستعرضنا منزلة أهل البيت عند الله في الفصل الثالث، وبعد أن بينا ما هي علاقتنا بأهل البيت في الفصل الرابع يأتي ختام هذا العرض بالدعاء: «يا سادتي وموالي، لو وجدت شفعاء أقرب إلى الله منكم لجعلتهم شفعاي».

* * *

لقد تضمنت المحاضرات السابقة^(١) معاشة مع أهل البيت عليهم السلام في دلالات الفصل الأول والثاني والثالث. أما الآن فلنبداً بالمعاشة مع أهل البيت عليهم السلام في ضوء مداليل الفصل الرابع والخامس من الزيارة.

* * *

الفصل الرابع من الزيارة: علاقة المؤمن بأهل البيت عليه السلام:

«بَابِي أَنْتُمْ وَأَنَا وَأَهْلِي وَمَالِي وَأُسْرَتِي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُكُمْ أَنِّي مُؤْمِنٌ بِكُمْ وَمِنَا
 آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرٌ بَعْدُوكُمْ وَمِنَا كُفَرْتُمْ بِهِ مُسْتَبْصِرٌ بِشَأْنِكُمْ وَبِضَلَالَةِ مَنْ خَالَفَكُمْ مُوَالٍ لَكُمْ
 وَلَاؤُا لِيَانَكُمْ مُنْغِضٌ لِأَعْدَانِكُمْ وَمُعَادٍ لَهُمْ سَلِمٌ لِمَنْ سَأَلَكُمْ وَحَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَكُمْ مُحَقِّقٌ لِمَا
 حَقَّقْتُمْ مُبْطِلٌ لِمَا أَطْلَقْتُمْ مُطِيعٌ لَكُمْ عَارِفٌ بِحَقِّكُمْ مُقَرِّفٌ بِفَضْلِكُمْ مُحْتَمِلٌ لِعِلْمِكُمْ مُحْتَجِبٌ
 بِذِمَّتِكُمْ مُعْرِفٌ بِكُمْ مُؤْمِنٌ بِأَبَائِكُمْ مُصَدِّقٌ بِرَجْعِكُمْ مُنْتَظِرٌ لِلْأَمْرِكُمْ مُرْتَقِبٌ لِدَوْلَتِكُمْ أَخِذْ
 بِقَوْلِكُمْ عَامِلٌ بِأَمْرِكُمْ مُسْتَجِيرٌ بِكُمْ زَائِرٌ لَكُمْ لِأَنَّهُ عَائِدٌ بِبُورِكُمْ مُسْتَشْفِعٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
 بِكُمْ وَمُقَرَّبٌ بِكُمْ إِلَيْهِ وَمُقَدَّمٌ أَمَامَ طَلِبَتِي وَحَوَائِجِي وَإِرَادَتِي فِي كُلِّ أَحْوَالِي وَأُمُورِي
 مُؤْمِنٌ بِسِرِّكُمْ وَعَلَانِيَتِكُمْ وَشَاهِدٌ بِكُمْ وَأَوْلِيكُمْ وَأَخْرَجَكُمْ وَمَقُوضٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَيْكُمْ
 وَمُسَلِّمٌ فِيهِ مَعَكُمْ وَقَلْبِي لَكُمْ مُسَلِّمٌ وَرَأْيِي لَكُمْ تَبِعٌ وَتَضَرَّتِي لَكُمْ مُعَدَّةٌ حَتَّى يُخَيِّرَ اللَّهُ
 تَعَالَى دِينَهُ بِكُمْ وَيُرِدَّكُمْ فِي آبَائِهِ وَيُظْهِرَكُمْ لِعَدْلِهِ وَيُسَكِّنَكُمْ فِي أَرْضِهِ فَمَعَكُمْ مَعَكُمْ لَا مَعَ
 غَيْرِكُمْ [عَدُوكُمْ] آمَنْتُ بِكُمْ وَتَوَلَّيْتُ أَخْرَجَكُمْ بِمَا تَوَلَّيْتُ بِهِ أَوْلَكُمْ وَبَرَّنتُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
 مِنْ أَعْدَانِكُمْ وَمِنْ الْجَبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَالشَّيَاطِينِ وَحَزَنِهِمُ الظَّالِمِينَ لَكُمْ [وَالْبَاحِدِينَ
 لِحَقِّكُمْ وَالْمَارِقِينَ مِنْ وَلَائِكُمْ وَالْفَاصِبِينَ لِأَرْثِكُمْ] [وَالشَّاكِينَ فِيكُمْ] [وَالْمُنْحَرِفِينَ عَنْكُمْ
 وَمِنْ كُلِّ وَلِيحَةٍ دُونَكُمْ وَكُلِّ مُطَاعٍ سِوَاكُمْ وَمِنْ الْإِنَّمَةِ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ فَتَبَيَّنِي اللَّهُ أَبَدًا
 مَا حَيَّيْتُ عَلَى مَوَالِيَتِكُمْ وَمَحَبَّتِكُمْ وَدِينِكُمْ وَوَقْفَتِي لِطَاعَتِكُمْ وَرِزْقَتِي شِفَاعَتَكُمْ وَجَعَلَنِي
 مِنْ خِيَارِ مَوَالِيَكُمُ التَّابِعِينَ لِمَا دَعَوْتُمْ إِلَيْهِ وَجَعَلَنِي بِمَنْ يَقْتَضِ أَنْتَارَكُمْ وَسَلَّكَ سَبِيلَكُمْ
 وَيَهْدِي بِهَدَاكُمْ وَيُخْشِرُ فِي زِمْرَتِكُمْ وَيَكْرِ فِي رَجْعَتِكُمْ وَيُسَلِّكُ فِي دَوْلَتِكُمْ وَيُسَرِّفُ فِي
 عَاقِبَتِكُمْ وَيُسَكِّنُ فِي آبَائِكُمْ وَيَقَرُّ عَيْنَهُ غَدَا بِرُؤْيَاكُمْ بَابِي أَنْتُمْ وَأَنَا وَنَفْسِي وَأَهْلِي وَمَالِي
 مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بَدَأَ بِكُمْ وَمَنْ وَحَدَهُ قَبْلَ عَنْكُمْ وَمَنْ قَصَدَهُ تَوَجَّهَ بِكُمْ مَوَالِي لَا أَحْصِي ثَنَاءَكُمْ

وَلَا أَلْبِغُ مِنْ الْمَدْحِ كُنْهَكُمْ وَمِنْ الْوَصْفِ قَدْرَكُمْ وَأَنْتُمْ نُورُ الْأَخْيَارِ وَهَدَاهُ الْأَنْبَارِ وَحُجَّجُ
الْجَبَّارِ بِكُمْ فَتَحَ اللَّهُ وَبِكُمْ يَخْتِمُ [اللَّهُ] وَبِكُمْ يُنْزَلُ الْغَيْثُ وَبِكُمْ يُسَكُّ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى
الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَبِكُمْ يَنْفُسُ الْهَمُّ وَيَكْشِفُ الضَّرَّ وَعِنْدَكُمْ مَا نَزَلَتْ بِهِ رُسُلُهُ وَهَبِطَتْ بِهِ
مَلَائِكَتُهُ وَإِلَى جَدِّكُمْ بَعَثَ الرُّوحَ الْأَمِينُ أَتَاكُمْ اللَّهُ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ طَاطَا كُلَّ
شَرِّهِ لِشَرِّفِكُمْ وَبَخَعَ كُلَّ مُكَبَّرٍ لَطَاعَتِكُمْ وَخَضَعَ كُلَّ جَبَّارٍ لِفَضْلِكُمْ وَذَلَّ كُلَّ شَيْءٍ لَكُمْ
وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِكُمْ وَفَارَ الْفَائِزُونَ بِوَلَايَتِكُمْ بِكُمْ يُسَلِّكُ إِلَى الرِّضْوَانِ وَعَلَى مَنْ جَحَدَ
وَلَايَتَكُمْ غَضَبُ الرَّحْمَنِ بِأَبِي أَنْتُمْ وَأَمِّي وَنَفْسِي وَأَهْلِي وَمَالِي ذَكَرَكُمْ فِي الذَّاكِرِينَ
وَأَسْمَاؤَكُمْ فِي الْأَسْمَاءِ وَأَجْسَادَكُمْ فِي الْأَجْسَادِ وَأَرْوَاحَكُمْ فِي الْأَرْوَاحِ وَأَنْفُسَكُمْ فِي
النُّفُوسِ وَأَثَارَكُمْ فِي الْأَثَارِ وَقُبُورَكُمْ فِي الْقُبُورِ فَمَا أَخْلَى أَسْمَاءَكُمْ وَأَكْرَمَ أَنْفُسَكُمْ وَأَعْظَمَ
شَأْنَكُمْ وَأَجَلَّ خَطَرَكُمْ وَأَوْفَى عَهْدَكُمْ [وَأَصْدَقَ وَعْدَكُمْ] كَلَامَكُمْ نُورٌ وَأَمْرَكُمْ رُشْدٌ
وَوَصِيَّتُكُمْ تَقْوَى وَفِعْلُكُمْ خَيْرٌ وَعَادَتُكُمْ إِحْسَانٌ وَسَجِيَّتُكُمْ كَرَمٌ وَشَأْنُكُمْ الْحَقُّ
وَالصَّدَقُ وَالرِّفْقُ وَقَوْلُكُمْ حُكْمٌ وَحَسَمٌ وَرَأْيُكُمْ عِلْمٌ وَحِلْمٌ وَحَزْمٌ إِنْ ذَكَرَ الْخَيْرُ كُنْتُمْ أَوَّلُهُ
وَأَصْلُهُ وَفَرَعُهُ وَمَعْدِنُهُ وَمَأْوَاهُ وَمُنْهَاهُ بِأَبِي أَنْتُمْ وَأَمِّي وَنَفْسِي كَيْفَ أَصِفُ حُسْنَ ثَنَائِكُمْ
وَأُحْصِي جَمِيلَ بَلَائِكُمْ وَبِكُمْ أَخْرَجَنَا اللَّهُ مِنَ الذَّلِّ وَفَرَّجَ عَنَّا غَمْرَاتِ الْكُرُوبِ وَأَقْدَنَا مِنْ
شَقَا جُرُوفِ الْهَلَكَاتِ وَمِنَ النَّارِ بِأَبِي أَنْتُمْ وَأَمِّي وَنَفْسِي بِمُؤَالَاةِكُمْ عَلَّمَنَا اللَّهُ مَعَالِمَ دِينِنَا
وَأَصْلَحَ مَا كَانَ فِسَادًا مِنْ دِينِنَا وَبِمُؤَالَاةِكُمْ تَمَّتِ الْكَلِمَةُ وَعَظُمَتِ النِّعْمَةُ وَاتَّخَذَتْ الْفِرْقَةُ
وَبِمُؤَالَاةِكُمْ تَقْبَلُ الطَّاعَةُ الْمُتَرْضَاةُ وَلَكُمْ الْمُدَّةُ الْوَاجِبَةُ وَالْدَرَجَاتُ الرَّفِيعَةُ وَالْمَقَامُ الْمَحْمُودُ
وَالْمَكَانُ [وَالْمَقَامُ] الْمَعْلُومُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْجَاهُ الْعَظِيمُ وَالشَّأْنُ الْكَبِيرُ وَالشَّفَاعَةُ
الْمَقْبُولَةُ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ».

* * *

الفصل الخامس من الزيارة: الدعاء:

«رَبَّنَا لَا تُرِخْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ

الْوَهَّابُ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا يَا وَلِيَّ اللَّهِ إِنْ بَنَيْتَ بَيْنَ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ ذُنُوبًا لَا يَأْتِي عَلَيْهَا إِلَّا رِضَاكُمْ فَبِحَقِّ مَنْ ائْتَمَنَكُمْ عَلَى سِرِّهِ وَإِسْرَعَاكُمْ أَمْرَ
خَلْقِهِ وَقَرَنَ طَاعَتَكُمْ بِطَاعَتِهِ لَمَّا اسْتَوْفَيْتُمْ ذُنُوبِي وَكُتِبَ شُفَعَاتِي فَيَا بَنِي لَكُمْ مُطِيعٌ
مِنْ أَطَاعَكُمْ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهُ وَمِنْ عَصَاكُمْ فَقَدْ عَصَى اللَّهُ وَمَنْ أَحَبَّكُمْ فَقَدْ أَحَبَّ
اللَّهُ وَمَنْ أَبْغَضَكُمْ فَقَدْ أَبْغَضَ اللَّهُ اللَّهُمَّ إِنِّي لَوَجَدْتُ شُفَعَاءَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ مُحَمَّدٍ
وَأَهْلِ بَيْتِهِ الْأَخْيَارِ الْأَتَمَةِ الْأَبْرَارِ لَجَعَلْتَهُمْ شُفَعَاتِي فَبِحَقِّهِمُ الَّذِي أَوْجَبَتْ لَهُمْ عَلَيْكَ
أَسْأَلُكَ أَنْ تَدْخِلَنِي فِي جُمْلَةِ الْعَارِفِينَ بِهِمْ وَبِحَقِّهِمْ وَفِي زَمْرَةِ الْمَرْحُومِينَ بِشَفَاعَتِهِمْ
إِنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ وَسَلَّم [تَسْلِيمًا] كَثِيرًا
وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

المحاضرة الحادية والستون:

علاقة الفداء لأهل البيت عليهم السلام

«بأبي أنتم وأُمِّي وأَهْلِي وَمَالِي وَأُسْرَتِي»

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَأَهْلِي وَمَالِي وَأَسْرَتِي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُكُمْ أَنِّي مُؤْمِنٌ بِكُمْ وَبِمَا آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرٌ بَعْدُوكُمْ وَبِمَا كَفَرْتُمْ بِهِ مُسْتَبْصِرٌ بِشَأْنِكُمْ وَبِضَلَالَةٍ مَنِ خَالَفَكُمْ مَوَالٍ لَكُمْ وَلَا وَلِيَاءَ لَكُمْ مُبْغِضٌ لِأَعْدَائِكُمْ وَمُعَادٍ لَهُمْ سَلِمَ لِمَنْ سَأَلَكُمْ وَحَرَبٌ لِمَنْ حَارَبَكُمْ مُحَقَّقٌ لِمَا حَقَّقْتُمْ مُبْطِلٌ لِمَا أَبْطَلْتُمْ مُطِيعٌ لَكُمْ عَارِفٌ بِحَقِّكُمْ مُقَرِّرٌ بِفَضْلِكُمْ مُخْتَمِلٌ لِعِلْمِكُمْ مُخْتَجِبٌ بِذُنُوبِكُمْ مُتَعَرِّفٌ بِكُمْ مُؤْمِنٌ يَا أَيُّهَاكُمْ مُصَدِّقٌ بِرَجْعَتِكُمْ مُنْتَظِرٌ لِأَمْرِكُمْ مُرْتَقِبٌ لِدَوْلَتِكُمْ آخِذٌ بِقَوْلِكُمْ عَامِلٌ بِأَمْرِكُمْ مُسْتَجِيرٌ بِكُمْ زَائِرٌ لَكُمْ لَا يَذُ عَائِدٌ بِقُبُورِكُمْ مُسْتَشْفِعٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِكُمْ وَمُقَرَّبٌ بِكُمْ إِلَيْهِ وَمُقَدِّمُكُمْ أَمَامَ طَلِبَتِي وَخَوَائِجِي وَإِرَادَتِي فِي كُلِّ أَحْوَالِي وَأُمُورِي مُؤْمِنٌ بِسِرِّكُمْ وَعَلَانِيَتِكُمْ وَشَاهِدُكُمْ وَغَائِبُكُمْ وَأَوَّلُكُمْ وَآخِرُكُمْ وَمَفُوضٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَيْكُمْ».

هذه الفقرات هي بداية الفصل الرابع من الزيارة الجامعة الكبيرة.

كان الفصل الأول هو فصل التحية: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ النَّبُوَّةِ وَمَوْضِعِ الرِّسَالَةِ...»، «السَّلَامُ عَلَى أئِمَّةِ الْهُدَى...»، «السَّلَامُ عَلَى الدَّعَاةِ إِلَى اللَّهِ...».

وكان الفصل الثاني هو بيان الاعتقادات: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَخَدَةَ لَا شَرِيكَ لَهُ...»، إلى أن يقول: «وَأَشْهَدُ أَنَّكُمْ الْأَئِمَّةُ الرَّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ الْمَعْصُومُونَ الْمَكْرُمُونَ الْمُقَرَّبُونَ الْمُتَّقُونَ الصَّادِقُونَ

الْمُصْطَفَوْنَ...»، «عَصَمَكُمُ اللَّهُ مِنَ الزَّلَلِ وَأَمَنَكُم مِّنَ الْفِتَنِ وَطَهَّرَكُم مِّنَ الدَّنَسِ».

وكان الفصل الثالث يتحدث عن موقع أهل البيت في الأمة حسب نظرية الإسلام، ويبدأ من قوله: «مَنْ وَالَاكُمْ فَقَدْ وَالَى اللَّهَ وَمَنْ عَادَاكُمْ فَقَدْ عَادَى اللَّهَ».

اليوم نبدأ بالفصل الرابع من الزيارة الجامعة، وهو شرح لعلاقة المؤمن الزائر بهم، أي إننا بعد أن أدينا آداب التحيّة، وبعد أن بدأنا ببيان اعتقادنا، وبعد أن شرحنا في هذه الزيارة موقع أهل البيت في الأمة، الآن يبدأ الزائر في الفصل الرابع بعملية الارتباط الروحي معهم، أي الحديث الشخصي مع الإمام بعد أن فُتح لك الباب. الفصل الرابع هو شرح رائع وجميل بلسان الإمام المعصوم في بيان علاقة الزائر بالإمام الذي يزوره.

يبدأ هذا الفصل بالقول: «بِأَبِي أَنْتُمْ وَأُمِّي وَأَهْلِي وَمَالِي وَأُسْرَتِي»، أي إن هذا الفصل يبدأ بعملية الاستعداد للفداء، حيث المعنى هو (أفديكم بأبي وأمي ونفسي ومالي وأهلي وأسرتي)، وحينما نقرأ مقاطع هذا الفصل سنجد ترجمة لمناجاة شخصية بين الزائر وبين الإمام المزور.

ولدينا اليوم ثلاثة بحوث:

البحث الأول: في مسألة الفداء والتضحية.

هذا الفصل يبدأ بعملية الإعراب عن الاستعداد للفداء لأهل البيت عليهم السلام، «بِأَبِي أَنْتُمْ وَأُمِّي وَأَهْلِي وَمَالِي وَأُسْرَتِي»، ومعناه (أفديكم بأبي وأمي...)، حيث يوجد قبل كلمة (بأبي) فعل محذوف مقدّر كقولنا: (بسم الله الرحمن الرحيم)، حيث معناه (أبدأ بسم الله الرحمن الرحيم).

أنت تقول في الزيارة: إني مستعد للفداء بكل شيء أملكه لأهل البيت عليه السلام، وهذا هو أول المناجاة، وأول نعمة جميلة للفداء والعشق والهيام في جهم عليه السلام.

لماذا الفداء؟ ولماذا يربي الإسلام أتباعه على نسيان المصالح الشخصية؟ أية علاقة هذه؟ إنها علاقة ذوبان وفداء، أنك وكل ما تملك من نفس ومن مال ودنيا وحتى الأب والأم، كل هؤلاء تجعلهم فداء للمعصوم، هذه تربية خاصة، فالإسلام يربينا على نمط من سحق الذات والأنا والممتلكات بأنها كلها فداء للدين.

سنجد في هذا المقطع من الزيارة خمس مرات يتكرر هذا الفداء، ففي بدايته: «يَا بِي أَنْتُمْ وَأُمِّي... أَنِّي مُؤْمِنٌ بِكُمْ». ثم يقول: «يَا بِي أَنْتُمْ وَأُمِّي... مَنْ أَرَادَ اللَّهُ بَدْءَ بِكُمْ، وَمَنْ وَحَّدَهُ قَبْلَ عَنْكُمْ». ومرة ثالثة يقول: «يَا بِي أَنْتُمْ وَأُمِّي... ذَكَرْتُكُمْ فِي الذَّاكِرِينَ، وَأَسْمَأُكُمْ فِي الْأَسْمَاءِ، وَأَجْسَادُكُمْ فِي الْأَجْسَادِ، وَأَزْوَاحُكُمْ فِي الْأَزْوَاحِ».

وفي مرة رابعة يقول: «يَا بِي أَنْتُمْ وَأُمِّي وَنَفْسِي كَيْفَ أَصِفُ حُسْنَ تَنَائِكُمْ...».

وفي مرة خامسة يقول: «يَا بِي أَنْتُمْ وَأُمِّي وَنَفْسِي بِمُؤَالَاتِكُمْ عَلَّمَنَا اللَّهُ مَعَالِمَ دِينِنَا».

وطبعاً مثل هذا المفهوم يتكرر في زيارة عاشوراء، وفي زيارات أخرى، بما يفيد أن نمط علاقتنا بأهل البيت عليه السلام هي علاقة الفداء، وأن لا نبقي شيئاً دونهم. وهذه التربية لا تألفها الثقافات الأخرى، بل تركزها مدرسة الإسلام، ومدرسة أهل البيت عليه السلام بالخصوص.

البحث الثاني: حقيقة التضاد بين الحق والباطل.

حين يقول في هذا المقطع من الزيارة: «مُؤْمِنٌ بِكُمْ وَبِمَا آمَنْتُمْ بِهِ، كَافِرٌ بَعْدُوكُمْ وَبِمَا كَفَرْتُمْ بِهِ»، فالإيمان بالحق يقابله كفر بالباطل.

إذن ما هي العلاقة بين الحق والباطل؟

هنا نسجل عدة أمور:

١ _ الإسلام يعتقد بأن هناك حقائق وهناك أباطيل، ليست كل الدنيا أباطيل، ولا كل الدنيا حقائق.

٢ _ هناك تضاد وليس صداقة بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين النور والظلمة، فأنت أيها المؤمن حينما يكون لك موقف مع الحق لا بد أن يكون لك موقف معاكس له مع الباطل، لا يمكن أن تكون صديقاً للحق والباطل معاً، هذا غير مقبول، وسوف نتحدث عنه اليوم، وهو مطروح عالمياً، هذه زيارة، لكنها مدرسة فلسفية عظيمة، فحينما يقول: «أَنَا مُؤْمِنٌ بِكُمْ وَبِمَا آمَنْتُمْ بِهِ» وهذا هو الإيمان بالحق، وفي مقابل ذلك يقول: «كَافِرٌ بَعْدُوكُمْ وَبِمَا كَفَرْتُمْ بِهِ»، حيث لا يمكن أن يكون (مؤمن بكم) وفي نفس الوقت (مؤمن بمن خالفكم).

البحث الثالث: ماذا نعتقد نحن بالمخالفين؟

(المخالفون) هو اصطلاح، يقصد به أولئك الذين لا يؤمنون بإمامة أهل البيت عليه السلام. أي أن أهل السُّنَّة باصطلاحنا نسميهم (أهل الخلاف)، وقد نصلح عليهم (أبناء العامة)، في مقابل ذلك نحن الشيعة (أبناء الخاصة)، فنحن خاصة الإسلام، ونصلح عليهم أبناء الجماعة، أي جماعة الحكم والسلطة، هذه اصطلاحات ولا نريد الوقوف عندها.

والسؤال هو: ما هي نظرية أهل البيت عليه السلام تجاه أبناء العامة؟ طبعاً هم

يحاولون أن يصطلحوا على أنفسهم أهل السُّنة، وهذا الاصطلاح مسروق، فأهل السُّنة هم نحن؛ لأن من التزم بسُّنة رسول الله هم الشيعة، ولهذا فإن العلماء في الكتابات العلميّة لا يقولون أبناء السُّنة، بل يقولون أبناء العامّة، أو أبناء الجماعة، أو أهل الخلاف، الحقيقة أنه قد جرى في التاريخ تحريف للألقاب والمصطلحات. (الصديق) في ثقافتنا هو الإمام عليّ عليه السلام، «السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ الْأَكْبَرُ»، ومصطلح (الفاروق) يقصد به الإمام عليّ عليه السلام. «السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْفَارُوقُ الْأَعْظَمُ»، لكن هذه كلها اصطلاحات سُرفت وصودرت من أهل البيت عليه السلام، وأعطيت لغيرهم. أهل البيت لم تُصادر فقط حقوقهم، بل صودرت حتّى عناوينهم وألقابهم، فأصبح يقال الصديق ويقال الفاروق لغيرهم، والحال أن الصديق الأكبر هو أمير المؤمنين، وهو الذي نزل به القرآن الكريم في قوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(١)، وهكذا الفاروق بين الحق والباطل فإنه الإمام عليّ عليه السلام وكما جاء ذلك عن رسول الله ﷺ^(٣).

(١) الزمر: ٣٣.

(٢) راجع: تفسير مجمع البيان ٨: ٤٠٠؛ تفسير السمعاني ٤: ٤٧٠، قال: حكاه ليث عن مجاهد.

(٣) عن ابن عباس أنه قال: ستكون فتنة، فإن أدركها أحد منكم فعليه بخصلتي: كتاب الله، وعلي بن أبي طالب عليه السلام. فإني سمعت نبي الله ﷺ يقول - وهو أخذ بيد علي عليه السلام -: «هذا أول من آمن بي، وأول من يضافني يوم القيامة، وهو فاروق هذه الأمة يفرق بين الحق والباطل، وهو يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الظلمة، وإنه لهو الصديق الأكبر، وهو باي الذي أوتى منه، وهو خليفتي من بعدي». راجع: معاني الأخبار: ٤٠١/٦٤. ورواه الشيخ الطوسي في أماليه: ١٤٨/٢٤٢/٥٥ عن أبي ذر الغفاري.

وعن أبي ليلى الغفاري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون بعدي فتنة، فإذا كان ذلك فالزموا علي بن أبي طالب، فإنه أول من يراني، وأول من يضافني يوم القيامة، هو الصديق الأكبر، وهو فاروق هذه الأمة يفرق بين الحق والباطل، وهو يعسوب المؤمنين والمال يعسوب المنافقين». راجع: الاستيعاب ٤: ١٧٤٤/٣١٥٧؛ كنز العمال ١١: ٦١٦/٣٢٩٨٩.

ما هو الموقف من أهل الخلاف؟

وماذا نعتقد بهم؟ هل هم على حق؟ أم أنهم على باطل؟

هنا يجب أن نقول: إنه طالما كان أهل البيت عليهم السلام على حق، إذن من يخالفهم على باطل، إذا كان عليّ مع الحق والحق مع عليّ^(١)، إذن من يخالف عليّاً ليس مع الحق، هذا هو اعتقادنا نحن الشيعة في المخالفين.

أين تجد هذا في الزيارة الجامعة الكبيرة ذات المفاهيم المفصلة؟ يوجد الإشارة إلى ذلك في قوله: «مُسْتَبَصِّرٌ بِشَأْنِكُمْ وَبِضَلَالَةِ مَنْ خَالَفَكُمْ».

اليوم حديثنا عن هذه البحوث الثلاثة:

البحث الأول: مسألة التضحية والفداء:

«بِأَبِي أَنْتُمْ وَأُمِّي»، أي (أفديكم بأبي...).

الحقيقة أن الولاء لله ولرسوله ﷺ ولأهل البيت عليهم السلام على

مراتب:

المرتبة الأولى: الولاء التجاري.

المرتبة الثانية: الولاء المزدوج.

المرتبة الثالثة: الولاء الخالص.

١ _ الولاء التجاري:

قد يقول قائل: أنا موالي، لكن هو موالي لأن مصلحته في الولاء،

(١) قوله ﷺ: «علي مع الحق، والحق معه، لا يفرقان حتى يردا عليّ الحوض» راجع:

أُمالي الصدوق: ١٥٠؛ مجمع الزوائد ٧: ٢٣٥؛ تاريخ دمشق ٤٢: ٤٤٩.

مصلحته التجارية والاقتصادية والاجتماعية تفرض عليه بأن يكون مالياً، هذا يذكره القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾^(١)، إذن قد يكون الارتباط بأهل البيت عليه السلام فيه ربح تجاري، فهو مؤمن بأهل البيت، لكن إذا انقلبت الأمور على أهل البيت أو على التشيع حينئذٍ هو أيضاً ينقلب على وجهه ويتبرأ من الدين والإسلام ومن أهل البيت، وهنا يقول القرآن الكريم: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾، هذا هو النموذج التجاري للولاء، يصلي طالما كانت الصلاة تحقق منفعه الشخصية، أما إذا كانت الصلاة لا تحقق منفعه الشخصية فإنه لا يصلي، هذا نسميه الولاء التجاري.

كثيرٌ من الناس مثلاً لا يعطون الحقوق الشرعية كالزكاة والخمس، لكن هو مستعد بأن يعطي للأئمة الأطهار ويشارك الإمام بنصف أمواله؛ لأن هذا فيه مردود اقتصادي له؛ لأنه يعلم أنه إذا أعطى للإمام الحسين من أمواله فإن الإمام الحسين عليه السلام سيعطيه أضعاف ذلك.

هذا النموذج في الحقيقة ليس نموذجاً مثالياً صحيحاً، والقرآن الكريم يعبر عنه ويقول: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

٢_ الولاء المزدوج:

هنا الشخص يصلي ويصوم ويقول أنه موالي، لكن ولاءه نسميه ولاءً متأرجحاً ومزدوجاً.

كيف يكون مزدوجاً؟ إذا كان هذا الولاء لا يكلفه أموراً ثقيلة شاقّة عليه فإنه يلتزم به، لكن إذا كان هذا الولاء فيه مطالب ثقيلة عليه فإنه لا يلتزم به.

القرآن الكريم في هذا النموذج يقول: ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ أَمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾^(١)، أي جاء الأغنياء - وهم أولو الطول - وكل واحد منهم يقدم عذراً؛ لأن في الأمر فداء وتضحية، وهم يعتذرون من ذلك ويرفضونه، ولكنهم يقبلون بالإيمان الذي ليس فيه مشقّة.

٣ - الولاء الخالص:

هنا ولاء مطلق، نواليهم ولا نوالي غيرهم، نحبههم ولا نحب غيرهم، ولا نؤثر غيرهم عليهم، فكل ما عندنا لله وللدين والنبي وآله، فإذا اقتضى الأمر الجهاد جاهدنا، وإذا اقتضى الأمر بذل الأموال بذلنا، وهكذا الفداء والتضحية، وكل ما يريد الله، «سَلِمَ لِمَنْ سَأَلَكُمْ وَخَرَبَ لِمَنْ حَارَبَكُمْ».

القرآن الكريم يقول في هذا النموذج: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَاعْيُضُّهُمْ تَفْيِضُ مِنَ الدَّعْوِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾^(٢)، هؤلاء جماعة لما عزم رسول الله على الحرب لم يكن لديهم أموال لكي يعطوها ولا خيلاً ليركبوها، لكن قلوبهم كانت مع الدين ومع التضحية، فكانوا سيكون لأنهم غير قادرين على المساهمة ﴿تَوَلَّوْا وَاعْيُضُّهُمْ تَفْيِضُ مِنَ الدَّعْوِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾، وهؤلاء هم نموذج الولاء المطلق.

(١) التوبة: ٨٦.

(٢) التوبة: ٩٢.

هذا الولاء هو المطلوب، وهو الولاء التام المطلق «بِأَبِي أَنْتُمْ وَأُمِّي وَأَهْلِي وَمَالِي وَأُسْرَتِي»، أي إذا اقتضى الأمر أن أفديكم بكل هذه الأمور فأنا مستعد لذلك.

الفداء والتضحية هو تربية إسلامية، والقرآن الكريم يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^(١)، أي إنكم أبدأ لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا ممَّا تحبون من الأموال والأولاد والعشيرة والاعتبارات الاجتماعية.

جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه، وأهلي أحبَّ إليه من أهله، وعترته أحبَّ إلي من عترته، وذاتي أحبَّ إليه من ذاته»^(٢)، ليس علامة الإيمان هو كثرة الصلاة، ولا علامة التدين كثرة الصوم، ولا كثرة الصدقات، ما لم يخضع الإنسان للتمحيص والبلاء.

اختبار إبليس:

إبليس خضع مرة واحدة للاختبار وفشل فيه، وهو قد عبد الله تعالى ستة آلاف عاماً، بحيث كان في صف الملائكة، لكن الله عرض له لامتحان واحد حين قال له: اسجد لآدم، فكان إبليس غير مستعد للتنازل، منعه أنانيته من ذلك، وهو بذلك ضيَّع عبادة ستة آلاف سنة لأجل الغرور والحسد، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(٣)، وفي هذا لنا عبرة، فعبادة ستة آلاف سنة ليس بقليل، والإمام أمير المؤمنين

(١) آل عمران: ٩٢.

(٢) أمالي الصدوق: ٤١٤ / ٩٠٤٢.

(٣) الأعراف: ١٢ و ص: ٧٦.

عليه السلام يقول: «فاعتبروا بما كان من فعل إبليس، إذ أحبط عمله الطويل وجهده الجهد، وقد كان عبد الله ستة آلاف سنة، لا يُدرى أين سني الدنيا أم من سني الآخرة»^(١).

هذه هي مشيئة الله تعالى، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(٢)، أي إنه لا بد من البلاء لأجل تبلور هوية الإنسان وصدق إيمانه، فـ«عند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان»^(٣).

اختبار الأنصار:

الأنصار هم أناس أخلصوا الله تعالى وقاتلوا دفاعاً عن رسول الله، وكان رسول الله ﷺ يحبهم، وكان يدعو لهم ويقول: «اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار»^(٤)، هؤلاء نصروا الإسلام نصراً عظيماً، لكن لاحظوا قد يسقط الإنسان في امتحان بسيط، وبالتالي يضيع كل جهوده والعياذ بالله.

الأنصار تعرضوا إلى امتحان في معركة حنين المعروفة تاريخياً والتي كانت فيها غنائم للمسلمين، ورأى رسول الله ﷺ أن يوزع تلك الغنائم على المهاجرين فقط، ريثما باعتبارهم جاءوا من مكة وتركوا بيوتهم وأموالهم، وهنا كان ذلك اختباراً للأنصار الذين وسوس لهم

(١) نهج البلاغة ٢: ١٣٨ / ١٩٢.

(٢) البقرة: ١٥٥.

(٣) عيون المواعظ والحكم: ٣٣٧.

(٤) شرح الأخبار ١: ٣١٨.

الشیطان، فقالوا: (إن رسول الله ﷺ آثر أصحابه علينا ومالَ إلى قومه)، بما يعني أن رسول الله ﷺ سيطرت عليه الأهواء القومية والنزعة العنصرية. هم قاتلوا من أجل الله وليس من أجل الغنائم، لكن الشيطان أنساهم ذلك، وهم حينما قاتلوا كانوا مستعدين لأن يُقتلوا ويضخّوا بأنفسهم، لكن هذه هي الفتنة ووسوسة الشيطان، هذه فتنة عجيبة أن الإنسان يكون مستعداً لكي يضخّي بنفسه قبل الانتصار، ولكن بعد أن ينتصر تصبح القضية قضية توزيع غنائم وينسى إخلاصه السابق.

الشیطان جاء إلى سعد بن عبادَةَ زعيم الأنصار ووسوس له قائلاً: إن رسول الله مالَ إلى قومه وأصحابه وأهلكم، وحدثت فتنة في وسط الأنصار وهم الجمهور الأكبر _ من أهل المدينة _ أمّا أهل مكّة وهم المهاجرون فهم قليلون، وهؤلاء الأنصار غضبوا من رسول الله، وبدلاً من أن يهنئ بعضهم بعضاً بالنصر حدث اختلاف داخلي بينهم، ولكن رسول الله ﷺ جمع الأنصار وقال لهم:

«بلغني أن سيّدكم _ سعد بن عبادَةَ _ يقول: إن رسول الله ﷺ مالَ إلى قومه، أنتم أيّها الأنصار على رأي سيدكم؟»
قالوا: يا رسول الله أنت سيدنا.

ولكن رسول الله ﷺ مرة أخرى ناشدهم: هل أنتم على رأي

سعد؟

قالوا: بلى.

الرواية تقول: بمجرد أن قالوا بلى يا رسول الله، حطّ الله نورهم!! لقد قاموا بجهد وتضحيات كبيرة، ولكنهم حينما خاضوا هذا الامتحان وقالوا نعم يا رسول الله نحن على رأي سعد، كان معناه أنهم

يشكّون في عدالة رسول الله ﷺ، وبذلك يكونون قد انتكسوا وفشلوا في الامتحان، ولهذا رغم أنّ الأنصار ممدوحون، لكنّهم خسروا في الامتحان، وكما أن المهاجرين خذلوا أهل البيت وخذلوا علياً وفاطمة بعد رسول الله ﷺ، كذلك الأنصار خذلوا علياً وفاطمة.

طبعاً رسول الله ﷺ أرضاهم بعدئذٍ بأدبه الرفيع، حيث قال: «ألا ترضون أن يذهب المهاجرون بالغنائم وأنتم تذهبون وترجعون بنيكم؟»^(١).

لاحظوا أنّهم كانوا قبل ذلك يفدون رسول الله بأنفسهم، لكن حينما مات رسول الله ﷺ وصارت المسألة مسألة حكم وزعامة أصبحوا يتقاتلون، «منا أمير ومنكم أمير»^(٢)، هل أن المعارك كانت من أجل الزعامة؟، «فحطّ الله نورهم»، أي: سلبهم النور الذي كان لديهم.

(١) في الرواية عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «إن رسول الله ﷺ يوم حنين تألف رؤساء العرب من قريش وسائر مضر، منهم أبو سفيان بن حرب وعيينة بن حصين الفزاري وأشباههم من الناس، فغضبت الأنصار واجتمعت إلى سعد بن عباد، فانطلق بهم إلى رسول الله ﷺ بالجعرانة، فقال: يا رسول الله، أتأذن لي في الكلام؟ فقال: نعم، فقال: إن كان هذا الأمر من هذه الأموال التي قسمت بين قومك شيئاً أنزله الله رضىنا، وإن كان غير ذلك لم نرض.. فقال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار أكلكم على قول سيدكم سعد؟ فقالوا: سيدنا الله ورسوله، ثم قالوا في الثالثة: نحن على مثل قوله ورأيه. الإمام يقول: فحط الله نورهم. وفرض الله للمؤلفة قلوبهم سهماً في القرآن». راجع: الكافي ٢: ٤١١.

(٢) لما انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله ﷺ، قال عليه السلام: «ما قالت الأنصار؟»، قالوا: قالت: «منا أمير ومنكم أمير»، فقال عليه السلام: «فهلّا احتججتم عليهم بأن رسول الله ﷺ وصّى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم» قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟ فقال عليه السلام: «لو كانت الإمارة فيهم لم تكن الوصية بهم». راجع: نهج البلاغة ١: ٦٧/١١٦.

هذه هي سُنَّة الابتلاء والامتحان، فبدونه لا يُعرف مدى صدق إيماننا، وهناك قصص قرآنية كثيرة في هذا الموضوع.

اختبار طالوت:

مثل قصة قوم طالوت حين قال قومه لنبيهم: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١)، فاختار الله تعالى لهم طالوت قائداً عسكرياً لهم، وجهز جيشاً قوياً للدخول في معركة ضد معسكر الكفر في جيش جالوت، أنظروا إلى الامتحان الإلهي العجيب.

طالوت قال لجنوده إنكم سوف تجدون أمامكم نهراً. ولكن الشرط لنجاحكم وانتصاركم أن لا تشربوا منه ﴿مَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ لماذا هذا الامتحان؟ لا أحد يدري ما هو السبب في هذا القرار، هل كان في الماء مشكلة صحيّة؟ لا، هذا امتحان، ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾^(٢) أي إنهم فشلوا في الامتحان ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾، لكن لاحظوا هؤلاء الذين شربوا وارتووا بدلاً من أن يقاتلوا أصبحوا ضعفاء مهزومين وأولئك الذين لم يشربوا أصبحت معنوياتهم عالية جداً، لمّا وصلوا إلى جالوت ﴿قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾، بينما ﴿قال الذين يظنون أنهم ملأوا الله - وهم الذين لم يشربوا - كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله﴾^(٣).

(١) البقرة: ٢٤٦.

(٢) البقرة: ٢٤٩.

(٣) الآية السابقة.

البحث الثاني: التضاد بين الحق والباطل:

في الفلسفة الإسلامية هناك تضاد بين الحق والباطل.

هذا في الفلسفة الإسلامية، حيث يقول القرآن: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْقِصَامَ لَهَا﴾^(١)، فلا يمكن أن تؤمن بالله إلا وأنت تكفر بالطاغوت. وهو إشارة إلى الباطل، هذا الأمر ترسخه الزيارة الجامعة بالقول: «مُؤْمِنٌ بِكُمْ وَمِمَّا آمَنْتُمْ بِهِ، كَافِرٌ بِعَدُوِّكُمْ وَمِمَّا كَفَرْتُمْ بِهِ».

مدرسة الصحابة ومدرسة أهل البيت عليه السلام:

كان هناك في التاريخ الإسلامي بعد رسول الله ﷺ مدرستان

تمثل اتجاهين:

الاتجاه الأول: مدرسة الصحابة.

الاتجاه الثاني: مدرسة أهل البيت عليه السلام.

مدرسة أهل البيت عليه السلام تقول: نحن نقرأ الإسلام من منظار أهل

البيت عليه السلام، من خلال العين الصافية لباب مدينة علم النبي ﷺ.

مدرسة الصحابة تقول: نحن نأخذ الإسلام من جميع الصحابة وما

ورد عنهم، وقد تُسمّى هذه المدرسة (مدرسة الخلفاء).

المحقق الخبير والباحث السيد مرتضى العسكري له بحث كبير

وضحم في المقارنة بين مدرسة الخلفاء ومدرسة أهل البيت عليه السلام في

كتابه (معالم المدرستين).

ما الفرق بين هاتين المدرستين؟

الفرق هو أن مدرسة أهل البيت عليه السلام تقبل بقراءة أهل البيت وما ثبت عنهم في معرفة أحكام الإسلام ومعارفه، أما مدرسة الخلفاء فإنهم يقبلون بمختلف القراءات، وإن كانت متضادة، واستندوا بذلك إلى حديث عن رسول الله ﷺ يقول: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»^(١)، فالجميع عندهم منابع إسلامية صحيحة.

مدرسة الخلفاء تقول: إن هناك قراءات عديدة للإسلام، فإنك تستطيع أن تأخذه من يزيد بن معاوية! أو تأخذه من أئمة الهدى عليهم السلام، مدرسة الخلفاء وإلى الآن هي ديمومة في الحقيقة لنفس المنهاج، بينما مدرسة أهل البيت عليه السلام تقول ما قاله رسول الله ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»^(٢)، و«علي مع الحق والحق مع علي»^(٣)، و«مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى»^(٤)، وهي عشرات الروايات التي يقبلها أهل السنة، لكنهم يقولون: نحن نقبل

(١) حديث «أصحابي كالنجوم» هو حديث موضوع، وقد حكم بوضعه وضعفه أكابر المحققين من العامة، كما صرح بذلك عديد من الأعلام، فقد ضعفه ابن القيم في الجزء الثاني من أعلام الموقعين: ٢٢٣، ونص على أنه من الأحاديث الموضوعة..

وقال ابن تيمية الحراني: أما قوله: «أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم»، فهذا الحديث ضعيف، ضعفه أئمة الحديث. قال البزار: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وليس هو في كتب الحديث المعتمدة. (منهاج السنة ٤: ٢٣٩).

وقال الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن حزم في رسالته في إبطال الرأي والقياس والاستحسان والتعليل والتقليد ما نصّه: وهذا خبر مكذوب موضوع باطل لم يصح قط. (البحر المحيط ٥: ٥٢٧).

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٣١٤؛ مستدرک الحاكم ٣: ١٢٦.

(٣) أمالي الصدوق: ١٥٠؛ مجمع الزوائد ٧: ٢٣٥.

(٤) أمالي الطوسي: ٦٠/٨٨/٥٧؛ كنز العمال ١٢: ٣٤١٤٤/٩٤.

من هنا ومن هنا أيضاً، ثم تطوّرت هذه المدرسة مع الأسف الشديد ليس إلى قبول الحق والباطل معاً، وإنما إلى قبول الباطل فقط ورفض الحق، قبول المذاهب الأخرى، ورفض مذهب أهل البيت عليه السلام، إلى أن جاء شيخ الأزهر الأسبق - أي في القرن الماضي - وهو الشيخ محمود شلتوت الذي أفتى بجواز اتباع مذهب أهل البيت عليه السلام إلى جانب باقي المذاهب الأربعة، أخيراً بدأ الأزهر يتحدث عن شرعية مذهب أهل البيت عليه السلام واعتبارهم مصدر العلم، بعد أن كانوا يحرمون أخذ المذهب من أهل البيت.

صحيح البخاري مثلاً وهو الكتاب الأول من كتب الحديث لدى أهل السنة وهو بمثابة القرآن المعصوم عندهم يروي عن جميع الصحابة والتابعين، وحتى من أعداء أهل البيت عليه السلام ومن لا شأن له في الساحة العلمية^(١)، لكنّه لا يروي رواية واحدة عن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، رغم أن البخاري معاصر لزمان الإمام الصادق عليه السلام، وقد كان الإمام الصادق عليه السلام أشهر علماء عصره، فقد سارت بأحاديثه الركبان، وانتشر حديثه في البلدان، ولكن الحقد على أهل البيت عليه السلام هو الذي منع البخاري من رواية حديث الإمام الصادق عليه السلام. فالقضية هنا ليست التمسك بالاثنتين، بل هي ترك الحق، ولو فرضنا أن الإمام علي عليه السلام لم يكن هو الخليفة الأول، ولا صهر رسول الله، ولا زوج البتول، ولا غيرها من صفاته عليه السلام، لكن هل هناك من يشك في فضل علي وشخصيته وعلمه، بينما

(١) كروايته عن عمران بن حطان الخارجي الراثي ابن ملجم (قاتل أمير المؤمنين عليه السلام) بقوله:

يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

وعن عمر بن سعد قاتل الحسين عليه السلام، وعن مروان بن الحكم طريد ابن طريد رسول

الله ﷺ، ولا عن أمير المؤمنين عليه السلام!!

نجد أنَّ البخاري لا يروي عن الإمام علي عليه السلام إلا إحدى عشرة رواية، وهو باب مدينة علم النبي بلا شك، والذي قال عنه عمر بن الخطاب: (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو حسن)^(١)، وهذا يُعتبر ترك الحق.

الإمام الصادق عليه السلام قيل له: إن فلاناً يواليكم إلا أنه يضعف عن البراءة من عدوكم.

قال عليه السلام: «هيهات كذب من ادعى محبتنا ولم يتبرأ من عدونا»^(٢).

الإمام الباقر عليه السلام أيضاً يقول: «من أراد أن يعلم حبنا فليمتحن قلبه، فإن شاركه في حبنا حب عدونا فليس منا ولسنا منه»^(٣)، لا يمكن أن يحب الإنسان الزهراء عليها السلام ويحب من كسر ضلعها أيضاً، هذا اختبار، وهو دائم إلى اليوم.

«بأبي أنتم وأُمِّي وأَهْلِي وَمَالِي وَأُسْرَتِي، أَشْهَدُ اللَّهَ وَأُشْهَدُكُمْ أَنِّي مُؤْمِنٌ بِكُمْ وَبِمَا آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرٌ بَعْدُوكُمْ وَبِمَا كَفَرْتُمْ بِهِ»، هنا الزائر يقول لأهل البيت: (أفديكم بأبي وأُمِّي...)، لقد لاحظت في موضعين أن هناك فداءً متعكساً:

الموضع الأول: في قصَّة القلادة التي تبرعت بها فاطمة الزهراء عليها السلام ووصل الخبر إلى رسول الله ﷺ وقال: «قد فعلت، فداها أبوها، فداها أبوها، فداها أبوها»^(٤)، هذا يدل على أن أي منزلة عظيمة للزهراء التي يقول عنها النبي ﷺ: «فداها أبوها»، ليس مجاملة ولا مبالغة.

(١) بحار الأنوار ٤٠: ١٤٩، أنساب الأشراف: ٢٩ / ١٩٩.

(٢) بحار الأنوار ٢٧: ٥٨.

(٣) بحار الأنوار ٢٧: ٥١.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٢١.

الموضع الثاني: في عصر اليوم التاسع من محرّم الحرام حينما زحفت الخيل إلى خيام الحسين عليه السلام، فانتبه الحسين لذلك وقال للعبّاس عليه السلام: «اركب إليهم - بنفسي أنت - حتّى تلقاهم فتقول لهم: ما لكم وما بدا لكم؟»^(١)، فهذا هو الحسين يقول للعبّاس: (بنفسي أنت)، وتعني (أفدك بنفسي)، وهذه هي منزلة العبّاس عليه السلام.

وأقبل العبّاس عليه السلام إليهم وقال: ماذا تريدون؟ قالوا: جاء أمر الأمير أن تنزلوا على حكم الأمير أو نناذكم الحرب.
رجع العبّاس عليه السلام وقال: يا أخي، يا أبا عبد الله، هذه مقولة القوم، إما أن نستسلم، أو ندخل في معركة.

الحسين عليه السلام قال: «أخي أبا الفضل قل لهم: يمهّلونا هذه الليلة، قد علم ربّي أنّي أحب الصلاة وتلاوة القرآن والاستغفار».
فأقبل إليهم العبّاس ونقل رسالة الحسين عليه السلام، فاختلف القوم بينهم حتّى صار لغط، ثمّ حسمت المسألة فيما بعد، حيث قال قائل منهم: لو كانوا من الديلم وطلبوا منّا ذلك لأمهّلناهم، وسوف نصبح ويصبحون، فكانت تلك الليلة مليئة بالعبادة^(٢).

هذه هي منزلة العبّاس عليه وعلى أخيه وأبيه وأمه أمّ البنين آلاف التحية والسلام.

وهناك مشهد ثانٍ أيضاً يدلّ على موقع العبّاس عليه السلام عند الحسين عليه السلام، فالمشهد الأوّل هو قول الحسين له: «بنفسي أنت».

(١) مقتل الحسين لأبي مخنف: ١٠٥.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٠.

أما المشهد الثاني فهو عملي ومسرحي وروائي، الإمام الحسين عليه السلام كما تعرفون يوم عاشوراء حينما كان يسقط أحد من الأصحاب أو من أهل بيته يأتي إليه ويحمله إلى الخيام، لكن حينما خرَّ العباس صريعاً وأقبل إليه الحسين ثم قام عنه، يقول المؤرخون: إن الحسين قام وهو منحني الظهر، قائلاً: «الآن انكسر ظهري، وقلَّتْ حيلتي»^(١).

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

١٦

المحاضرة الثانية والستون:

الإيمان حقيقته واستحقاقاته

«أشهد الله وأشهدكم أنني مؤمن بكم»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث اليوم عن العلاقة بين الإنسان والإيمان، وموقع الإيمان في حركة الإنسان التكاملية.

اليوم يوجد بحث معاصر ساخن، هو هل أن قيمة الإنسان بإنسانيته، أم قيمة الإنسان بإيمانه؟

المدنية الغربية الحديثة تقول: هناك قاسم مشترك بين كل أبناء البشر وهو الإنسانية، وعند هذا القاسم المشترك تذوب فوارق عقيدة الإيمان والكفر، كما تذوب فوارق اللون والقومية، كذلك يجب أن تذوب فوارق المعتقد والانتماء الديني، لا فرق بين مؤمن وكافر.

ما هي رؤية الإسلام في موقع المعتقد؟ هل الإيمان هو قضية هامشية مثل اللون أبيض وأسود، أو غني وفقير، أو عربي وأعجمي، أم أن الإيمان هو جوهر الإنسان، وبدونه لا يعدو الإنسان أن يكون حيواناً؟

هذا هو البحث الذي نتطرق إليه مما قرأناه في الزيارة الجامعة «أشهدُ اللهَ وأشهدُكُمْ أَنِّي مُؤْمِنٌ»، حيث يرى الدين أن أول خطوة في حركة تكامل الإنسان هي الإيمان، قبل أن أكون عربياً أو أعجمياً، غنياً أو فقيراً، هاشمياً أو قرشياً، أو ما شاكل، «أشهدُ اللهَ وأشهدُكُمْ أَنِّي مُؤْمِنٌ بِكُمْ وَبِمَا آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرٌ بَعْدُ وَكُنتُمْ وَبِمَا كَفَرْتُمْ بِهِ»، هذا هو ما نريد بحسه اليوم.

الإيمان حقيقته واستحقاقاته:

ما هو الإيمان؟

هل هو مجرد اعتقاد فلسفي بالله تبارك وتعالى؟ أم أن الإيمان له عمق ومدلول وانعكاس على أرض الواقع؟ وحيث أن يكون الإيمان معبراً عن هوية الإنسان، وأما إذا كان الإيمان مجرد اعتقاد فلسفي لا يتبعه العمل، فإنه لا يحقق التكامل الإنساني المطلوب، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾^(١). إبليس كان يعرف الله تعالى أكثر من الناس؛ لأنه عبد الله ستة آلاف سنة مع الملائكة، إذن هو يؤمن بالله، لكن إيمانه هذا ليس له قيمة؛ لأنه مجرد إيمان نظري يتقاطع مع الممارسة العملية.

إذن ما هو الإيمان؟ هو مقوم من مقومات الإنسان، ويمثل جوهره إنسانية الإنسان، وهذا بحث ثانٍ، وسوف نتقلب في طيات هذين البحثين ببعض الأحاديث والآيات والروايات، وفي ضوء «أني مؤمن بكم وبما آمنتم به»، ثم تأتي ترجمة الإيمان «مُحَقِّقٌ لِمَا حَقَّقْتُمْ، مُبْطِلٌ لِمَا أَبْطَلْتُمْ»، لكن قبل هذا أنظروا إلى مطلع الفصل الرابع من الزيارة الجامعة، ونحن اليوم دخلنا في مطلع الفصل الرابع من الزيارة الجامعة، وكما شرحت لكم سابقاً أن هذه الزيارة تتألف من خمسة فصول.

وهذا الفصل الرابع يبدأ بقوله: «يَا أَيُّهَا أَنْتُمْ وَأُمِّي وَأَهْلِي وَمَالِي وَأُسْرَتِي»، أي إن هذا الفصل يحدد علاقة الزائر بأهل البيت عليه السلام، حيث كان الفصل الأول عبارة عن التحية: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ النَّبُوَّةِ

وَمَوْضِعَ الرِّسَالَةِ...»، «السَّلَامُ عَلَى أُمَّةِ الْهُدَى...»، «السَّلَامُ عَلَى الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ...». والفصل الثاني كان عبارة عن بيان اعتقادنا في أهل البيت عليهم السلام: «عَصَمَكُمُ اللَّهُ مِنَ الزَّلَلِ وَأَمَنَكُم مِّنَ الْفِتَنِ»، والفصل الثالث كان عبارة عن بيان موقع أهل البيت عليهم السلام في الأمة، والذي يبدأ من قوله: «مَنْ وَالَاكُم فَقَدْ وَالَى اللَّهَ...».

اليوم نحن في مطلع الفصل الرابع، يقول: «بِأَبِي أَنْتُمْ وَأُمِّي وَأَهْلِي وَمَالِي وَأُسْرَتِي»، أي إنني أفديكم بأبي وأمي ونفسي وأهلي ومالي وأُسْرَتِي، أي لا يبقى شيء من الأمور الدنيوية إلا ونجعلهُ فداءً لأهل البيت عليهم السلام، وكما تعلمون أن الإيمان درجات؛ فهناك شخص مستعد أن يقدم المال لأهل البيت، وهناك من يقدم أولاده، لكن إذا وصلت إلى نفسه ينسحب، وهناك من يقدم ماله وأولاده ونفسه، لكن عند أهله ينسحب، وهكذا.

هنا الزيادة تعطينا قِمة الفداء، فنحن لأجل الدين ولأجل الله وأهل بيت النبوة لا نُبقي شيئاً.

مثلاً عبيد الله بن الحر الجعفي حينما التقى به الإمام الحسين عليه السلام في الطريق إلى كربلاء بعث له الإمام فلم يأت، فذهب الإمام إلى فسطاطه والتقى به وعرض عليه أن يلتحق بحركته.

فقال: والله إنني لأعلم أن من شايعك كان السعيد في الآخرة، ولكن ما عسى أن أغني عنك، ولم أخلف لك بالكوفة ناصراً، فأنشدك الله أن لا تحملني على هذه الخطة، فإن نفسي لم تسمح بعد بالموت، ولكن فرسي هذه الملحقة، والله ما طلبت عليها شيئاً قط إلا لحقته، ولا

طلبني وأنا عليها أحد قط إلا سبقتة، فخذها، فهي لك، فقال الحسين: «أما إذا رغبت بنفسك عنا فلا حاجة لنا إلى فرسك»^(١).

هو طبعاً محب للحسين، لكن بمستوى من المستويات، ومستعد أن يضحي بفرسه، لكن غير مستعد أن يعطي نفسه، وهذه مراتب في التضحية.

الزيارة تعلمنا أن التضحية للإسلام ولأهل البيت بلا حدود، ﴿رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾^(٢).

مشكلة يوسف عليه السلام:

مشكلة يوسف هي الحب، الرواية عن الإمام الرضا عليه السلام تقول: إن السجان قال له: إنني لأحبك، فقال له يوسف عليه السلام: ما أصابني إلا من الحب، إن كانت خالتي أحببني فسرقني، إن كان أبي أحببني فحسدني إخوتي، وامرأة العزيز أحببني فحبستني. ثم قال عليه السلام: وشكا يوسف إلى الله فقال: يا رب، بما استحققت السجن؟ فأوحى الله إليه: أنت اخترته حين قلت: ﴿رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾، هلا قلت: (رب العافية أحب إليّ مما يدعونني إليه)^(٣).

الإنسان لا يدري أحياناً يقول كلمة فتكون، قال: ﴿رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ ولا تصرف عني كيدهن أصب إليهن^(٤)، الشاهد

(١) راجع: الأخبار الطوال: ٢٥١.

(٢) يوسف: ٣٣.

(٣) بحار الأنوار ١٢: ٢٤٧.

(٤) يوسف: ٣٣.

في الأمر أن التضحية من أجل الله والنبي والأئمة الأطهار عليهم السلام هي بلا حدود، كما جسد ذلك الأبطال من شهداء بدر وأُحُد وكربلاء، وهم سادة الشهداء، وهذا الطريق الطويل للأبطال أمثال دعبل الخزاعي وميثم التمار وقيس بن صرد وأبطال الشيعة على طول التاريخ، «بِأَيِّ أَنْتُمْ وَأُمِّي وَأَهْلِي وَمَالِي وَأُسْرَتِي»، هذه آداب التربية.

الإيمان والكفر تلازم وتضاد:

الآن نبدأ بالفقرة الأولى، وهي: «أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُكُمْ»، أي أجعل الله سبحانه وتعالى شاهداً عليّ، وأنتم أيضاً شهود عليّ، أن أول كلمة في صحيفة أعمالي هي: «أَنِّي مُؤْمِنٌ بِكُمْ وَبِمَا آمَنْتُمْ بِهِ»، لاحظوا هنا عدة فقرات:

١ - «مُؤْمِنٌ بِكُمْ».

٢ - «بِمَا آمَنْتُمْ بِهِ».

مؤمن بكم، ومؤمن بكل الرؤى والقرارات والشعارات التي آمنتم بها أنتم، هذه هي الفقرة الثانية.

٣ - «كَافِرٌ بَعْدُوكُمْ وَبِمَا كَفَرْتُمْ بِهِ».

لنقف قليلاً عند الإيمان وحقيقة الإيمان واستحقاقاته.

الإيمان بينه وبين الكفر تلازم، وبينه وبين الكفر تضاد، أي تلازم وتضاد في نفس الوقت، وهذا يفتح لنا باباً للحديث عن سر من أسرار الحياة البشرية.

الله تعالى خلق الوجود الحي من زوجين، ويمتد هذا إلى الصراع في الدنيا، فهناك إيمان، وهناك كفر، وحتى نصل إلى القرآن الكريم

الذي يقول: ما من نبي يُبعث إلا وإلى جانبه عدو من المجرمين، وكل من يعمل عملاً دينياً لا بد أن يلاحقه أو يؤذيه عدو من الأعداء أو ما شاكل ذلك ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾^(١)، يوجد تلازم بين الإيمان وبين الكفر، كيف ذلك؟ الإيمان والكفر على مستوى أرض الواقع بينهما تلازم، فكل إيمان يمشي إلى جانبه كفر يوازيه، أنت مؤمن بالله يجب أن تكفر بأعداء الله، مؤمن بالأنبياء يجب أن تكفر بأعداء الأنبياء، مؤمن بالحق يجب أن تكفر بالباطل، هذا المفهوم _ أي التضاد والتلازم _ يجب أن يكونا في نفس الوقت دائماً، وذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْقِصَامَ لَهَا﴾^(٢)، أي إن المؤمنين أول خصلة عندهم هي الكفر بالطاغوت والشيطان والظلم والباطل، القرآن يجمع بين الكفر والإيمان معاً، لا يصح أن تؤمن بالطاغوت وبالله في نفس الوقت.

أوثق عرى الإيمان:

رسول الله ﷺ مرة سأل أصحابه قال لهم: «أيُّ عرى الإيمان أوثق؟».

فقال أحدهم: الصلاة، وقال بعضهم: الزكاة، وقال بعضهم: الصيام، وقال بعضهم: الحج، وقال بعضهم: الجهاد.

فقال رسول الله ﷺ: «لكل ما قلتم فضل، وليس به، إن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، وتوالي أولياء الله، والتبيري

(١) الفرقان: ٣١.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

من أعداء الله^(١). وهذه الرواية يرويها الشيخ الكليني في كتاب أصول الكافي في باب الحب والبغض في الله. الحب في الله والبغض في الله هو الترجمة الحقيقية للإيمان بالله.

دور الإيمان في الشخصية:

المدنية الغربية الحديثة تقول: إن المقياس هو الإنسانية وحدها، والإيمان هو وصف هامشي، وفي ضوء هاتين الرؤيتين نحن نطرح سؤالاً: ما هو دور الإيمان؟ هل هو دور هامشي، أم دور أصيل؟

الإسلام يقول: إن دور الإيمان في حياة الإنسان التكاملية هو دور أصيل، وليس كالأموال والصحة وما شاكل، فدورها هو هامشي، الإيمان هو مقوم إنسانية الإنسان، حينما تقول المدنية الحديثة أن الإنسانية هي الأصل فالمقصود هو هذا العنصر المشترك بين كل الناس، بين المحسن والمسيء والمجرم والقاتل وأصحاب الذات العدوانية والصوص، فكلهم أناس، المدنية الحديثة تقول إن كل هؤلاء سواء، والإسلام يقول: لا، هؤلاء يفقدون جوهر الإنسانية، الإيمان هو مقوم الإنسانية، وبدون إيمان فلا تكون الإنسانية إلا مظهراً كاذباً يستبطن الحيوانية، ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾^(٢)، الإيمان دوره دور البصر ودور العين؛ فالأعمى ليس كالبصير، ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾^(٣)،

(١) الكافي ٢: ١٢٥/٦.

(٢) الأنعام: ١٢٢.

(٣) الرعد: ١٦.

الإيمان مقومٌ لحياة الإنسان، ولهذا يقول الإسلام: إن الناس ينقسمون إلى قسمين: مؤمن، وكافر، هذا التفسير في المدينية الحديثة غير موجود، وفي الليبرالية غير موجود، أي إن الاعتقاد لا دور له في تصنيف الناس، أما الدين الإسلامي فهو يقول: إن الاعتقاد هو الأساس في تقسيم البشر، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾^(١)، ولم يقل منهم غني ومنهم فقير، أو ما إلى ذلك، ويأتي الإسلام ويقول: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ﴾^(٢)، ﴿وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ﴾^(٣)، الناس مع الأسف لا يفكرون بمدى قيمة الإيمان، ويتصورون أن القضايا شكلية، لا، الإيمان هو جوهر الإنسان، والسعادة إنما هي بالإيمان وليس بالأموال.

لكن ماذا نقصد بهوية الإيمان؟ هل نقصد بالإيمان مجرد أن يقول الإنسان: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله؟ نعم، إذا كان الحديث عن الإيمان الظاهري وعلى مستوى ما تُحقن به الدماء وتعصم به الأموال، فلو قال ذلك حتى وإن كان أبو سفيان أو يزيد بن معاوية فنقول إن هذا مسلم، لكن المسألة أعمق من الظاهر والتعاش، فالإيمان الذي يحاسب عليه الله تعالى والذي هو مقياس إنسانية الإنسان هو ذلك الإيمان الذي يُترجم إلى عمل.

كنت أقرأ في تقرير خبري _ وأظنه في إيطاليا _ يقول: إنهم أصدرُوا حكماً بالعقوبة على كل من لا يرفقه على حيوانه في الأسبوع ثلاث مرات، هذه قضية لا بأس بها، فهي قضية إنسانية وهي الرفق بالحيوان.

(١) البقرة: ٢٥٣.

(٢) البقرة: ٢٢١.

(٣) الآية السابقة.

الإيمان والعمل:

لدينا حديث شريف يقول: «عُذِّبَتْ امرأة في هَرَّةٍ حبستها حتى ماتت جوعاً، فدخلت فيها النار»^(١)، نعم، الإيمان يجب أن يُترجم إلى رقة قلب، وخضوع لله، وشعور بالعبودية لله، وعدم التكبر حتى على الحيوان.

الكافر يوم القيامة يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾^(٢).

الإيمان الذي هو مقوم إنسانية الإنسان ليس مجرد الاعتقاد الفلسفي الفكري الموجود حتى عند إبليس، وإنما هو الإيمان الذي يترجم إلى عمل، «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس بمسلم»^(٣)، ولهذا تقول الزيارة الجامعة: «مُؤْمِنٌ بِكُمْ وَبِمَا آمَنْتُمْ بِهِ، كَافِرٌ بَعْدُوكُمْ وَبِمَا كَفَرْتُمْ بِهِ»، ثم تبدأ الترجمة العملية، «مُؤَالٍ لَكُمْ وَلَأَوْلِيَائِكُمْ، مُبْغِضٌ لَأَعْدَائِكُمْ وَمُعَادٍ لَهُمْ، سِلْمٌ لِمَنْ سَأَلَكُمْ وَحَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَكُمْ»، وهذا هو بالضبط ما امتاز به شيعة أهل البيت عمن سواهم، فهم كانوا أكثر الناس ترجمة عملية للإسلام ولوصايا القرآن الكريم.

القرآن الكريم حينما يقول: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٤)، وهذه وصية واضحة.

رسول الله ﷺ يقول: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي

(١) كثر العمال ١٦: ٨ / ٤٣٩٩٦.

(٢) النبأ: ٤٠.

(٣) الكافي ٢: ١٦٤ / باب الاهتمام بأمر المسلمين ... / ٤.

(٤) الشورى: ٢٣.

أهل بيتي»^(١)، ويقول: «فاطمة بضعة مني، من سرّها فقد سرني، ومن ساءها فقد ساءني»^(٢)، هذه تحتاج إلى ترجمة عمليّة، والشيعّة ترجموا الإيمان ترجمة عمليّة، ولهذا صاروا هم مصداق الآية القرآنيّة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٣)، لأنهم هم المؤمنون حقّاً، فالباقون مسلمون في الظاهر، لكن ليس لديهم ترجمة عمليّة للإيمان، إذن الإيمان هو عبارة عن الانعكاسات العمليّة للمعتقدات الفكرية.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) أمالي الصدوق: ١٥ / ٨٦ / ٥٠٠؛ مستدرک الحاكم ٣: ١٤٨.

(٢) أمالي الطوسي: ٣٠ / ٣٠ / ٢٤.

(٣) المؤمنون: ١.

١٢

المحاضرة الثالثة والستون:

زيارة قبور الأولياء واللجوج إليهم

«زَائِرٌ لَكُمْ لَائِدٌ عَائِدٌ يَقْبُورُكُمْ»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث هذا اليوم في رحاب الزيارة الجامعة الكبيرة عن هذا المقطع من الزيارة: «زَائِرٌ لَكُمْ لَا يَزِيدُ عَائِدٌ بِقُبُورِكُمْ».

اليوم لدينا بحثان:

البحث الأول: في زيارة الأموات والقبور.

البحث الثاني: ما معنى اللجوء واللوذ والاستعاذة بقبور الأنبياء

والأئمة عليهم السلام؟

وهذان البحثان هما سبب لمفترق الطريق بين الاتجاه الإسلامي

العام لدى الشيعة والسنة، وبين الاتجاه التكفيري المتحجر، وهو الاتجاه الوهابي.

اليوم العالم الإسلامي لديه اتجاهان: اتجاه مجموع المسلمين من

سنة وشيعة، وهؤلاء يؤمنون بزيارة قبور الصالحين وبالتوسل بالأنبياء

والأئمة عليهم السلام، ليس الشيعة فقط، وإنما كل العالم الإسلامي، كما هو في

مصر والجزائر وروسيا والهند وباكستان وأفريقيا، حيث نجد أن

المسلمين يلوذون بقبور الصالحين، ويتوسلون إلى الله تعالى بهم. وهناك

اتجاه متحجر شقّ المسلمين وحاول أن يبتث بينهم الفرقة، وهو اتجاه

مضاد للزيارة والتوسل، وطوّر القضية إلى اعتبار ذلك كفرًا، وطوّر

القضية إلى الحكم بوجوب هدم جميع القبور، حتّى قبر النبي ﷺ،

وهذا الاتجاه هو الاتجاه الوهابي.

البحث الأول: زيارة القبور والأموات:

في الفقه الإسلامي لدى الشيعة كما هو لدى السنة يُستحب زيارة الأموات والقبور، الروايات ثابتة لدى الفريقين، حتّى كان يوم الاثنين وعشيّة الخميس هو موعد استحباب زيارة القبور، وكان رسول الله ﷺ يزور القبور، وكان الصحابة يزورون القبور، وكانت الأجيال الإسلامية جيلاً بعد جيل يزورن القبور، ويتبركون أيضاً بزيارتهم، على خلاف الاتجاه الوهابي السلفي كما أشرت لكم.

أنا أقرأ لكم بعض الروايات من الفكر السنّي؛ لكي يكون البحث اليوم بحثاً علمياً.

عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من رجل يزور قبر حميمٍ فيسلم عليه ويقعد عنده إلّا وردّ عليه السلام وأنس به حتّى يقوم من عنده»^(١).

وفي حديث آخر كان رسول الله ﷺ إذا خرج إلى بقيع الغرقد يقول: «السلام عليكم أهل الديار من المسلمين والمؤمنين، ورحم الله المستقدمين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون»^(٢).

وفي رواية أخرى: زار النبي ﷺ قبر أمّه، فبكى وأبكى من حوله، ثمّ قال: «استأذنت ربي في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنّها تذكركم الموت»^(٣).

(١) كتر العمال ١٥: ٦٥٦ / ٤٢٦٠١.

(٢) مجمع الزوائد ٣: ٦٠.

(٣) صحيح مسلم ٣: ٦٥؛ سنن ابن ماجه ١: ٥٠١.

مثل هذه الروايات موجودة أيضاً من طرق الشيعة^(١)، وهذا بالنسبة للإنسان العادي كالصديق والجار والأخ والأُم، فكيف إذا وصلنا إلى قبر النبي ﷺ والأولياء الصالحين، فلا بد أن تكون المرتبة هنا أهم، ولهذا نجد تأكيد استحباب ذلك بإجماع الفريقين من السُنَّة والشيعة.

الرواية عن رسول الله ﷺ قال: «من حجَّ بيت ربي ولم يزرنني فقد جفاني»^(٢)، أي إن عدم زيارة قبر الرسول ﷺ عند الذهاب للحج يعتبر جفاءً وخلاف الوفاء له ﷺ.

وفي رواية أخرى قال ﷺ: «من حجَّ فزار قبري بعد مماتي كان كمن زارني في حياتي»^(٣).

وهذا بإجماع المذاهب الإسلامية، واليوم كما هو على طول التاريخ نجد أن أئمة المذاهب الإسلامية لهم قبور وأضرحة، والعالم الإسلامي يزورون قبور هؤلاء، من الإمام الأعظم في بغداد مثلاً، إلى أئمتنا الأطهار عليهم السلام، باستثناء المنهج الوهابي، والمؤسس لهذا المنهج هو ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وهؤلاء في الحقيقة حرّموا التوسّل بالقبور، وأفتوا بوجوب هدم القبور، وحكموا بكفر من يزورها ويتوسّل بها، أقرأ لكم مثلاً فتوى ابن القيم:

يقول ابن القيم: (يجب هدم المشاهد التي ثبتت على القبور، ولا يجوز إبقاؤها بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً)^(٤)، وبدأ

(١) راجع: الكافي ٣: ٢٢٨ باب زيارة القبور؛ إعلام الوری ١: ٥٣؛ بحار الأنوار ٢٢: ٥٣٠.

(٢) الهداية للصدوق: ٢٥٥؛ كثر العمال ٥: ١٣٥.

(٣) سنن البيهقي ٥: ٢٤٦؛ مجمع الزوائد ٤: ٢.

(٤) زاد المعاد: ٦٦١.

الجيش الوهابي بعد أن سيطرت الوهابية في القرن الماضي بالزحف إلى كربلاء والنجف، وهدموا قبور البقيع في المدينة المنورة، وما أبقى مشهداً من مشاهد الصحابة أيضاً في البقيع إلا وهدمه.

مؤسس هذا المنهج في العصر الحديث هو محمد بن عبد الوهاب، لكن قديماً هم يأخذون الفتوى من ابن تيمية المتوفى سنة (٧٠٨هـ)، يعني في أوائل القرن السابع، وهكذا تلميذه ابن القيم المتوفى سنة (٧٥٠هـ).

أنا أوصي الشباب بزيارة القبور، وهي إلى جانبنا هنا في النجف الأشرف في وادي السلام، حيث مقبرة المسلمين، وخاصة شيعة أهل البيت، خاطبهم، ولا تمرّون عليهم مرور الغافلين، فهم إلى جانبنا ونحن في لهو ولعب، هؤلاء الموتى جلوس يشهدوننا، خاطبهم: «السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِنْ أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَا أَهْلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ بِحَقِّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَيْفَ وَجَدْتُمْ قَوْلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ بِحَقِّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ اغْفِرْ لِمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاحْشُرْنَا فِي زُمْرَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيَّ وَلِيُّ اللَّهِ»^(١) وهذا نص في زيارة القبور.

وهناك نص ثانٍ أيضاً، عندما نزور القبور نجد هناك فرقاً، فمرة تقرأ سورة الفاتحة، وأحياناً تسلم عليهم، وهذا يسمى زيارة القبور، وهنا غير قراءة سورة الفاتحة، بل هناك مخاطبة، «اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الْأَرْوَاحِ الْفَانِيَةِ وَالْأَجْسَادِ الْبَالِيَةِ وَالْعِظَامِ النَّخِرَةِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ بِكَ مُؤَمِّنَةٌ أَذْخِلْ عَلَيْهِمْ رَوْحاً مِنْكَ وَسَلَاماً مِنِّي»^(٢).

(١) بحار الأنوار ٩٩: ٣٠١؛ كتر العمال ١٥: ٦٥٤ / ٤٢٥٩١.

(٢) بحار الأنوار ٩٩: ٣٠١.

«اللَّهُمَّ أَنْفَعْنِي بِزِيَارَتِهِمْ وَتَبِّئْنِي عَلَى قَصْدِهِمْ وَتَوَفَّنِي عَلَى مَا تَوَفَّيْتَهُمْ عَلَيْهِ وَاجْمَعْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فِي مُسْتَقَرِّ دَارِ رَحْمَتِكَ أَشْهَدُ أَنَّكُمْ لَنَا قَرِطٌ وَتَخُنُ بِكُمْ لَاحِقُونَ»^(١)، هذا اعتبار، وفي نفس الوقت هو تبرك بقبور الأنبياء وقبور الصالحين والأئمة الأطهار عليهم السلام.

طبعاً نحن في ثقافة مدرسة أهل البيت عليهم السلام لدينا تحشيد كبير من الدعوة للارتباط بعالم ما بعد الدنيا، الإسلام يريد دائماً من الإنسان أن يجمع بين الدنيا والآخرة والارتباط بعالم ما بعد الموت، في الوقت الذي لا ننسى نصيبتنا من الدنيا.

لاحظوا أن الإسلام يقول: إن الإنسان يستحب أن لا ينام إلا وقد وضع وصيته تحت وسادته، فهذا مستحب، وهو يعني الارتباط بالعالم الثاني، أي ما بعد الموت؛ لأن الموت في الفهم الإسلامي لا يعني الفناء، وإنما يعني بداية الحياة الحقيقية، إذن لا يوجد فناء، ولهذا فإن الحديث عن النبي ﷺ يقول: «ما خُلِقْتُمْ للفناء، بل خُلِقْتُمْ للبقاء، وإنما تُنقلون من دار إلى دار»^(٢)، أي إن الإنسان خلق ليبقى وليس ليفنى.

ثقافة أهل البيت فيها تحشيد لروايات في فضل الزيارة وثوابها، بدءاً من زيارة الموتى، إلى زيارة قبر الأبوين بالخصوص، حيث يعتبر ذلك برّاً بالأبوين، والروايات تقول: «وليطلب أحدكم حاجته عند قبر أبيه، وعند قبر أمه»^(٣)، وطلب حاجتك يكون من الله، لكن عند قبر أبيك، وهذا ليس بدعة، وليس طلباً من الموتى.

(١) بحار الأنوار ٩٧: ٢٢٢.

(٢) الاعتقادات في دين الإمامية: ٤٧.

(٣) الكافي ٣: ٢٢٩/ باب زيارة القبور / ١٠.

رجل أعرابي جاء إلى الرسول ﷺ قال: يا رسول الله ما بقي من الشر إلا وقد عملته فهل لي من توبة؟
قال رسول الله ﷺ: «فهل بقي من والدك أحد؟».
قال: نعم، أبي.

قال: «اذهب فبرء، فلعله يُغفر لك»، ولما ذهب هذا الأعرابي قال رسول الله ﷺ: «لو كانت أمه»^(١)، أي إن الأم أكثر تأثيراً في استردار العطف والرحمة من الله.

روايات يذكرها الحر العاملي في وسائل الشيعة الجزء الثالث في استحباب طلب الحاجة عند قبر الأبوين، حتى نصل إلى زيارة قبور الأئمة الأطهار عليهم السلام، وأنا للتبرك أذكر لكم هذه الروايات:
عن محمد بن مسلم، قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: الموتى نزورهم؟
قال: «نعم».

قلت: فأني شيء نقول إذا أتيناهم؟ قال: قل: «اللهم جاف الأرض عن جنوبهم، وصاعد إليك أرواحهم، ولقهم منك رضواناً، وأسكن إليهم من رحمتك ما تصل به وحدتهم، وتونس به وحشتهم، إنك على كل شيء قدير»^(٢).
وعن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: الموتى تزورهم؟ قال: «نعم»، قلت: فيعلمون بنا إذا أتيناهم؟ فقال: «إي والله، إنهم ليعلمون بكم ويفرحون بكم، ويستأنسون إليكم»^(٣).

(١) الدعوات: ٣١٠ / ١٢٦.

(٢) وسائل الشيعة ٣: ٢٢٨ / ٣٤٨١، ١.

(٣) وسائل الشيعة ٣: ٢٢٢ / ٣٤٦٣، ٢.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «زوروا موتاكم، فإنهم يفرحون بزيارتكم، وليطلب أحدكم حاجته عند قبر أبيه وعند قبر أمه بعدما يدعو لهما»^(١).

أما عن زيارة الأئمة الأطهار عليهم السلام فإنه سوف يفتح علينا بحثٌ علميٌّ وفلسفيٌّ مهمٌّ جداً، وهو أن الإمام المعصوم هل هو موجود في قبره عندما تزورونه؟ أم هو موجود عند الله تعالى في الجنة؟ أنت تقف عند قبر الإمام وتقول له - كما في زيارة الإمام الحسين عليه السلام -: «أشهد أنك تسمع كلامي، تشهد مقامي»^(٢)، أو حين يقول رسول الله ﷺ: «من زارني بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي، وكنت له شفيعاً وشاهداً يوم القيامة»^(٣).

الفكرة أن الأموات والصالحين بالخصوص هل هم موجودون في قبورهم؟ أو هم عند الله تعالى في جنّات النعيم؟ وإذا كانوا في جنّات النعيم إذن لماذا نزورهم في قبورهم؟

هذا بحث علمي، لدينا روايات ظاهرة في أن الأئمة عليهم السلام موجودون في موضع دفنهم، ولدينا روايات أخرى أيضاً صحيحة ومعتبرة أنهم موجودون عند العرش وعلى يمين العرش، فكيف نجتمع بين هاتين الطائفتين من الأخبار؟

هنا وقف العلماء عند هذا البحث وقالوا: إن كلا الأخبار من الطائفتين صحيح، نزورهم عند قبورهم فهم موجودون فيها ويسمعون الكلام ويردون السلام، في نفس الوقت هم على يمين العرش عند الله تبارك وتعالى.

(١) وسائل الشيعة ٣: ٢٢٣ / ٣٤٦٦. ٥.

(٢) بحار الأنوار ٩٧: ٣٦٦.

(٣) كامل الزيارات: ٤٥ / ١٧ / ١٢.

أنا أقرأ لكم رواية عن الصادق عليه السلام، سأله الراوي عن الحسين عليه السلام هل هو في قبره؟

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنه على يمين العرش متعلق يقول: يا رب أنجز ما وعدتني، وإنه لينظر إلى زواره، وهو أعرف بهم وبأسمائهم وبأسماء آبائهم وبدرجاتهم ومنزلتهم عند الله من أحدكم بولده وما في رحله، وإنه ليرى من يبكيه فيستغفر له رحمةً له، ويقول: لو تعلم أيتها الباكي ما أعد لك لفرحت أكثر مما جزعت، ويستغفر له كل من سمع بكاءه من الملائكة في السماء وفي الحائر، وينقلب وما عليه من ذنب»^(١).

ربّما نحن غير قادرين على أن نستوعب النظريّة بشكل كامل وفق مقاساتنا الماديّة، نحن نفهم أن الأئمة عليهم السلام يسمعون الكلام ويردون السلام، وفي نفس الوقت هم على يمين العرش في مقعد صدق عند ملك مقتدر. هناك نمط من أنماط الارتباط بين الروح وبين هذا البدن الموجود في القبر. لكن كيفيّة هذا الارتباط لا نعلمها.

هناك نمط من أنماط الارتباط، ويبقى عالم الموت بالنسبة لنا عالم رمزي ومجهول، رغم أنّه معروف على مستوى المفاهيم وليس كممارسة عمليّة، فنحن لم نعش في ذلك العالم، وبالتالي الفقهاء يقولون: الصحيح هو أن نجتمع بين الروایتين، أي الرواية التي تقول إن الإمام على يمين العرش، والروايات التي تقول إنه موجود عند قبره ويرد السلام ويسمع الكلام، وذلك بقدرة الله تبارك وتعالى، وهكذا أيضاً أنت حينما تزور قبر أبيك أو أمك أو أيّ ميّت من الأموات، فالروايات بالإجماع

تقول إنهم يأنسون بكم، وهذا يعني أنهم موجودون، ولو مضى على دفنهم ألف سنة، إذن كيف أنهم موجودون؟ وكيف يكون القبر روضة من رياض الجنة؟ هل هم موجودون في هذه الحفرة المظلمة الحارة؟ طبعاً لا، بل تفتح لهم باب إلى الجنة، أو يكون القبر نفسه روضة من رياض الجنة، وعلى كل حال، فإن العلماء يقولون: إننا نقبل بالروايات التي تؤكد أن الإمام المعصوم يُعرج به إلى السماء بعد موته بثلاثة أيام^(١)، ثم هو غير موجود في القبر، لكن في نفس الوقت هناك نحو من أنحاء الارتباط بين الروح وبين عالم القبر، وهكذا أي ميت من الأموات، ولهذا عند زيارتك للقبر يأنس بك ذلك الميت.

بعض الروايات تقول: «إنهم يأنسون بكم، فإذا غبتم عنهم استوحشوا»^(٢).

البحث الثاني:

ما معنى الاستعاذة واللجوء إلى قبور الأنبياء والأئمة عليهم السلام؟

الزيارة تقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَائِذُ بِقُبُورِكُمْ».

(لائذ) يعني ألوذ بكم وألجأ إليكم. (عائذ) تعني أحتمي بكم وأدفع الأخطار والأهوال بالاحتماء بكم.

يأتي هذا السؤال: كيف نستعيز بهم عليهم السلام، بينما الفهم الإسلامي يقول إنه لا ملجأ إلا لله تعالى، ولا منجى إلا الله تعالى؟ فما معنى اللجوء

(١) في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما من نبي ولا وصي نبي يبقى في الأرض أكثر من ثلاثة أيام حتى تُرفع روحه وعظمه ولحمه إلى السماء، وإنما تؤتى مواضع آثارهم، ويلفونهم

من بعيد السلام، ويسمعونهم في مواضع آثارهم من قريب». الكافي ٤: ١٠٦٧/١.

(٢) الكافي ٣: ٢٢٨/باب زيارة القبور/١.

إلى غير الله تعالى؟ من المهم أن نؤكد هنا أن الإسلام دين فطري وواقعي، فأنت في الوقت الذي تقول الشفاء بيد الله، ولا شافي إلا الله، لكنك تذهب إلى الطبيب، الله هو الرزاق ذو القوة المتين، لكنك تذهب وتكسب وتطلب التجارة، هذا هل يعتبر شركاً أم لا؟ طبعاً لا يعتبر شركاً.

الفكر الإسلامي حينما يقول: إن الملجأ هو الله وإن المنقذ هو الله تبارك وتعالى وإن المعاذ هو الله «يا من لا مفر إلا إليه، يا من لا مفرغ إلا إليه»^(١)، هذا صحيح، ولكن إذا لجأت إلى باب من أبواب الله، إذا لجأت إلى وجه من وجوه الله تعالى، فذاك لا يكون شركاً، ولهذا فإن القرآن الكريم صريح في قوله تعالى مخاطب نبيه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(٢)، أي لو أن المذنبين يأتون ويلوذون برسول الله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾، ودخلوا في الخط المباشر ﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾، والخط غير المباشر ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾، فالرسول في الحقيقة هو باب من أبواب الله تعالى، ففي الروايات يستحب أن يزور الإنسان قبر أبيه وأمه ويطلب حاجته عند قبرهما، والنبى أعظم من الأب والأم، وهكذا الإمام المعصوم هو أعظم من الأب والأم، فالاستعاذة بالنبي باعتباره باباً من أبواب الله تعالى ومفتاحاً من مفاتيح الله تبارك وتعالى، وباعتبار أن الله أذن باللجوء إليهم، لاحظوا ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾^(٣)، هذا هو صريح القرآن الكريم، ولهذا فإن الفقه الإسلامي يقول: إن ذاك الذي أذن ذنباً أو أجرم جريمة كان ملاحقاً من طرف القضاء،

(١) مصباح الكفعمي: ٢٥٢.

(٢) النساء: ٦٤.

(٣) آل عمران: ٩٦ و٩٧.

الطَّيِّبِينَ^(١)، يوم الثلاثاء يكون المؤمنُ ضيفاً عند الإمام زين العابدين والإمام محمد الباقر والإمام جعفر الصادق عليهم السلام، «يَا مَوَالِيَّ هَذَا يَوْمُكُمْ وَهُوَ يَوْمُ الثَّلَاثَاءِ وَأَنَا فِيهِ ضَيْفٌ لَكُمْ»^(٢)، وإلى آخر أيام الأسبوع. هذه مفاهيم مهمة، ولا بد أن نقرب منها ونتعبد بها، وهي تفيدنا في الدنيا، وتفيدنا عند الانتقال إلى العالم الآخر ﴿وَيَوْمَ يَعْزُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾^(٣)، ونحن الآن في النجف بالخصوص نعيش في بحبوحة الجنة في جوار أمير المؤمنين عليه السلام، والموتى في وادي السلام هم جلوس حلقات حلقات، لكن مع الأسف نحن لا نرى ذلك، ولكن بمجرد أن يموت الإنسان يرى شيئاً عجبياً، يرى عالماً من الأموات وهم جلوس، ويرى الملائكة التي تصعد وتنزل، وهذا ما حدثنا به النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام، والقرآن حدثنا به ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ﴾^(٤)، القرآن يقول ثقوا بأن القيامة والموت وعالم ما بعد الموت هي حق مثلما أنكم تتكلمون، فهل يشك أحدكم بكلامه مع الآخرين.

الاستعاذة بأهل البيت عليهم السلام وقبورهم هي مشروع إسلامي لتوثيق العلاقة مع الله تعالى من خلال أوليائه:

بقبرك لذنا والقبور كثيرة ولكن من يحمي الجوار قليل
هناك يوم عاشوراء، كان مشهداً من مشاهد اللجوء واللوذ بالإمام الحسين بعد مقتله، وكان عليه السلام هو الملجأ أثناء حياته، وهناك لود ولجوء وتحصن به عليه السلام.

(١) بحار الأنوار ٩٩: ٢١٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الفرقان: ٢٧.

(٤) الذاريات: ٢٣.

يوم عاشوراء بعد مقتله، ذلك المشهد المعروف عندكم، وهو مشهد تلك الطفلة الصغيرة التي رأت واحداً من جيش ابن سعد وقالت: يا هذا، حدثتني عمّتي زينب أن لنا قبراً بالغري، هل لك أن تأخذني إليه؟ كانت المناظر موحشة من القتلى والعطش والجوع، وهذه طفلة تذكرت أن لهم حامياً للجوار في الغري وتريد أن تلتجئ إليه.

فقال لها: إن بينك وبين الغري مسافة بعيدة، فأنت في عرصة كربلاء، والغري بعيد عنك.

قالت: إذن يا هذا دلّني على جسد والدي الحسين.

يقول: أقبلت بها إلى جسد الحسين، رمت بنفسها عليه، فتح الحسين يديه وضمّها إلى صدره، وهي تقول: أبه يا أبه من الذي قطع رأسك، من الذي خضّب لحيتك، من الذي أيتمني على صغر سنّي.

هذا المشهد لم يقبله ابن سعد، فأمر بالجلالوزة أن يسحبوها من جسد الحسين، فأقبلوا إليها بالسياط يسحبونها من جسد الحسين.

تقول الرواية: إن الحسين عليه السلام كان يقول:

شيعتي مهما شربتم عذب ماء فاذكروني

أو سمعتم بشهيدٍ أو قتيلاً فاندبونني^(١)

إنّا لله وإنا إليه راجعون

* * *

١٢

المحاضرة الرابعة والستون:

أدوات القرب من الله تعالى

«وَمُتَّقِرِبٌ بِكُمْ إِلَيْهِ وَمُقَدِّمُكُمْ أَمَامَ طَلِبَتِي
وَحَوَائِجِي وَإِرَادَتِي فِي كُلِّ أَحْوَالِي وَأُمُورِي».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث في هذه المحاضرة عن هذا المقطع من الزيارة: «وَمُتَقَرَّبٌ بِكُمْ إِلَيْهِ وَمُقَدَّمُكُمْ أَمَامَ طَلِبَتِي وَخَوَانِجِي وَإِرَادَتِي فِي كُلِّ أَحْوَالِي وَأُمُورِي». «وَمُتَقَرَّبٌ بِكُمْ إِلَيْهِ»، هنا بحثان:

البحث الأول: معرفة الله، وهذا ما يُسمّيه علماء الكلام _ علماء العقيدة _ البحث في وجوب المعرفة والنظر، وهذا هو أول بحث يدرسه الباحثون وطلاب العلوم الدينية في كتب العقائد.

البحث الثاني: التقرب إلى الله بعد التعرف عليه، الإيمان به في المرحلة الأولى، ثم يعمل في المرحلة الثانية على أن يتقرب إليه. إذن نحن سوف نقف عند البحث الأول.

وجوب النظر والمعرفة:

يجب على الإنسان أن يتعرف على الله، فالمسألة ليست استحيائية أو اختيارية.

هنا اتجاهان في تحليل الموقف وبيان خلفية هذا الوجوب:

الاتجاه الكلامي: حيث يقول علماء الكلام إن البحث عن الله

واجب عقلي.

لاحظوا هناك وجوب شرعي وهناك وجوب عقلي، فحينما يكون

أمامك خطر إذن يجب عليك عقلياً سواء أكنت مسلماً أم كافراً، مؤمناً أم

غير مؤمن أن تباعد عن الخطر، هذا الوجوب اسمه وجوب عقلي، أي إن العقل الذي هو نعمة الله سبحانه وتعالى يفرض عليك أن تباعد عن الخطر.

وهناك وجوب شرعي مثل وجوب الصلاة والصوم، فالعقل هنا لا يفرض عليك وجوب الصلاة لولا أن الله تعالى شرعها عبر أنبيائه. الإنسان مرفوع ذاتياً لكي يبحث عمن خلق هذا الوجود، فهل لهذا الوجود خالق؟

العلماء يقولون: هنا وجوب عقلي، والعقل يقول: أيها الإنسان، ابحث عن خالقك وعن مبدع هذا الوجود ومستقبل هذا الوجود، أنت عقلياً مكلف بأن تبحث، وهذا يسمّى الوجوب النظري، وجوب التفكير، طبعاً علماء الكلام يستدلون على ذلك، بدليل أن شكر المنعم واجب، ومعرفة المنعم هي مقدمة لشكره، وبما أن مقدمة الواجب واجبة، إذن وجب علينا أن نبحث عن المنعم لكي نشكره. لكن في الحقيقة البحث عن الله هو نزعة فطرية قبل أن تتطور المسألة إلى حكم عقلي ووجوب عقلي، أن يبحث الإنسان عن بدايته ويبحث عن نهايته وعمّا ينتظره من أيام حياته، ذلك هو نزعة فطرية، لا يوجد إنسان لا يعرف أن حياته هي عمر محدود ولا يتساءل فطرياً ماذا بعد هذا العمر المحدود؟ وإلى أين؟ لا يوجد من لا يتساءل بأنه من أين جاء؟ الكل نتفق فطرياً بأننا لم نخلق أنفسنا ولم نقدّر لأنفسنا هذا التقدير المكاني والزماني، فنحن نعرف أننا جئنا من أقدار ومحيطات خارجيّة، من أب وأمّ، وفي زمان وفي مدينة وضمن ظروف خاصّة خارجة عن اختيارنا وإرادتنا. ولهذا فإنّ كل شخص له تركيبته النفسيّة حسب الظروف التي ولد فيها. ولو كان الأمر بيدنا لخلقنا أنفسنا بأجمل ما يكون، الحقيقة أن الكل يعرف أننا لم نخلق أنفسنا، وسواءً قبلنا بوجود خالق أو

لم نقبل فهناك مناخات وظروف أحاطت بنا هي التي أولدتنا بهذا الشكل، ولو كان بيدنا لخلقنا أنفسنا في زمن صاحب العصر والزمان الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن تملأ ظلماً وجوراً، وتخرج له الأرض أفلاذ كبدها، ويحثو المال حثاً ولا يعده عدلاً^(١).

لكن الحقيقة نحن مسيرو، أيها الإنسان أنت مسير لا مخير، صحيح أن عندك اختيارات، لكنها محدودة، فليس كل شيء بيدك، وأنتك مهما تفكر لكن تبقى ثمانون بالمائة من الأمور خارج إرادتك، وهذا هو ما نسميه القضاء والقدر الإلهي، الفكرة هي أن البشر بشكل عام يمتلكون نزعة فطرية في البحث عمن هو الخالق، عما هو المستقبل، وعما هي المؤثرات، وعما هي الأسباب للنجاح في مستقبل حياتنا، الإنسان مجبر على البحث، وهذا نسميه نزعة فطرية، ولهذا فإن البشرية اليوم وعلى طول التاريخ لديها تساؤل عن الله، من هو الله؟ هل هو موجود، أم غير موجود؟ ما هي علاقتنا بالله؟ هذا حديث النفس، وهو نزعة فطرية.

البحث عن الله هو نزعة فطرية، وهنا يأتي دور الدين الذي يكشف دور هذه النزعة الفطرية، «أَفَلَا يَدَّبَّرُونَ»^(٢)، «أَفَلَا يَنْظُرُونَ»^(٣)، «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ»^(٤)، «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ رَبُّكَ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ»^(٥).

(١) راجع: بحار الأنوار ٥١: ٦٨.

(٢) النساء: ٨٢.

(٣) الغاشية: ١٧.

(٤) الطارق: ٥ و ٦.

(٥) الانفطار: ٦ - ٨.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾^(١)، ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾^(٢)، دور الدين هو تنبيه الفطرة؛ لكي تبحث عن الله تبارك وتعالى وتبحث عن مستقبل العمر البشري.

لاحظوا حتّى فرعون رغم منطلقاته الماديّة، لكنّه قال: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَتَأْتِي السَّمَاءَ فَتُطَلِّعُ لَهَا بَاسًا وَآفَاقًا﴾^(٣)، الفكرة أن الإنسان مجبر للبحث عن الله تبارك وتعالى.

مسألة القرب من الله:

هذا البحث ندخل إليه من قوله في الزيارة: «وَمُتَقَرِّبُ بِكُمْ إِلَيْهِ»، ففي البداية كانت معرفة الله، «مَنْ أَرَادَ اللَّهَ بَدَأَ بِكُمْ»، وثانياً التقرب إلى الله، وكما تعرفون فإنّ القرب يكون إمّا مكانياً أو زمانياً، وهناك نوع ثالث لا مكاني ولا زمني، وهو القرب الروحي، فالمحجوب مع محبوبه قريب وليس بعيداً، وإن كانت المسافة بينهما بعيدة، سواء كان من تحب وطناً أو أباً أو أمّاً أو زوجاً أو زوجةً أو صديقاً، وأحياناً شخصٌ يجلس إلى جانبك أو جار لك، لكن بينك وبينه بعدٌ روحي يزيد على آلاف السنين فتبغضه ويبغضك.

القرب من الله تعالى حين نقول: (يا قريب) ليس قرباً زمانياً ولا مكانياً. بل هو قرب إحاطة كاملة بالإنسان. فالله قريب، ونقول: (يا بعيد)، ففي نفس الوقت الله قريب، وهو بعيد، فالله «أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ»^(٤)،

(١) الواقعة: ٦٣ و ٦٤.

(٢) الواقعة: ٥٨ و ٥٩.

(٣) غافر: ٣٦ و ٣٧.

(٤) ق: ١٦.

وبنفس الوقت لا يُنال باليد أو العين، فهو أبعد من كل بعيد، مقياس القرب والبعد من الله سبحانه وتعالى هل هو مقياس زمني أو مكاني أو روحي؟ أم هناك مقياس آخر لا هو مكاني ولا هو زمني ولا هو روحي نسّميه القرب والبعد الحقيقي؟.

إن الزمان والمكان هي مؤشرات للحقائق الماديّة، فإذا عبرنا حدود الزمان والمكان والمادة أصبح لدينا القرب والبعد الحقيقي، الأنبياء قريبون قريباً حقيقياً من الله تبارك وتعالى، يعني أنهم ملتصقون بمصدر الطاقة، والالتصاق هنا ليس مكانياً؛ لأن الله ليس جسماً، ولا قريباً زمانياً؛ لأن الله تعالى في كل زمان، الالتصاق هنا يكون التصاقاً بالحقيقة، فيسمّى قريباً حقيقياً، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^(١)، والمقصود هو القرب الحقيقي، والاندكاك مع مصدر الوجود، وليس القرب المكاني أو الزمني، ولا بمعنى القرب والبعد الروحي، بل هو القرب الوجودي الحقيقي، وبذلك يكون للإنسان القريب جداً من الله تعالى القدرة العالية المستمدة من مصدر الوجود، فيقول للشيء كن فيكون، جاء في الحديث القدسي: «ما تقرب إليَّ عبدٌ بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، وإنه ليتقرب إليَّ بالنافلة حتّى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبه، وإن سألني أعطيته»^(٢)، أي إنّ أقوى وسيلة للتقرب من الله هي أن تؤدّي الواجبات كالصلاة والصوم والحج والزكاة والخمس، هذه

(١) النجم: ٩.

(٢) الكافي ٢: ٣٥٢/ باب من آذى المسلمين واحترقهم / ٧.

أقرب الطرق، وهي ليست طرقاً مكائنة ولا زمائنة أو روحية فحسب، بل القرب الحقيقي، ثم نرتقي بطريق ثانٍ وهو النوافل، فبدلاً من أن تُصلي الصلاة الواجبة فقط فإنك تصلي الواجب والمستحب وهي النافلة.

ولهذا فقد كان رسول الله ﷺ ينظر من خلفه كما ينظر من بين يديه، وهي من خصائص نبينا ﷺ، وهذا ليس ببصر العين، وإنما يبصر البصيرة وبصر القلب، وهي ليس خيالاً، بل هو الرؤية الحقيقية. وكان ﷺ ينام فنام عيناه ولا ينام قلبه، وهذا جاء من الاندكاك والقرب الحقيقي من مصدر الوجود ومصدر العلم ومصدر البصر والسمع والرؤية، وهو الله تبارك وتعالى.

بحثنا الآن هو في القرب من الله تبارك وتعالى، «مُتَقَرَّبٌ بِكُمْ إِلَيْهِ»، سأقرأ لكم بعض الروايات في القرب الحقيقي للإنسان بينه وبين الله تبارك وتعالى. الرواية عن الإمام علي عليه السلام قال: «أقرب الناس من الله سبحانه أحسنهم إيماناً»^(١).

الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «فيما أوحى الله تعالى إلى داود، قال: يا داود أقرب الناس من الله المتواضعون، كذلك أبعد الناس من الله المتكبرون»^(٢)، وهذه خصال أخلاقية.

رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام أنه كان يقول: «أقرب ما يكون العبد إلى الرب ﷻ وهو ساجد باك»^(٣)، إذا أردت

(١) غرر الحكم: ٣١٩٣.

(٢) الكافي ٢: ١٢٣ / باب التواضع / ١١.

(٣) الكافي ٢: ٤٨٣ / باب البكاء / ١٠.

القرب من الله فعليك أن تخرَّ ساجداً وتقول: الشكر لله، أستغفر الله، الحمد لله، فأنت بذلك قد عبرت الحجب والمسافات الواسعة.

رواية أخرى: أن عيسى بن مريم عليه السلام مرَّ بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم، فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا: الخوف من النار، فقال: حقّ على الله أن يؤمن الخائف. ثمّ جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشدّ نحولاً وتغيّراً، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الشوق إلى الجنة، فقال: حقّ على الله أن يعطيكم ما ترجون. ثمّ جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشدّ نحولاً وتغيّراً كأن على وجوههم المريا من النور، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا: نحب الله تعالى فقال: أنتم المقربون، أنتم المقربون^(١).

ودلالة هذا الحديث واضحة في أن أقوى وسيلة للقرب من الله تبارك وتعالى هو الحب له سبحانه وتعالى.

وهذا المفهوم موجود في أحاديث أهل البيت عليهم السلام، أن الله تعالى يقول: «لا أجمع على عبدي خوفين»^(٢).

نرجع إلى موضوع البحث «مُتَقَرَّبٌ بِكُمْ إِلَيْهِ»، فنحن نتقرب إلى الله تعالى بأهل بيت النبوة، وهذا ما تقوله الزيارة.
وهذا له تفسيران:

التفسير الأول: هو التفسير المجازي، فالتقرب إلى الله تعالى ليس هو بذوات الأشخاص، إنما هو بحب هؤلاء الأشخاص، فهناك متعلق محذوف مقدّر، بمعنى مُتَقَرَّبٌ بِحُبِّكُمْ وولايتكم، وكما قلنا إن الحب

(١) شرح نهج البلاغة ١٠: ١٥٦.

(٢) الخصال: ١٢٧/٧٩.

هو أقرب الطرق إلى الله تبارك وتعالى. وكما تعرفون لدينا روايات كثيرة تدل على أن أفضل الأعمال هو حب الله وحب رسوله ﷺ وحب آل بيته الأطهار عليهم السلام.

عن أنس بن مالك قال: جاء رجل من أهل البادية، وكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية يسأل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله متى قيام الساعة، فحضرت الصلاة، فلما قضى صلاته قال: «أين السائل عن الساعة؟»، قال: أنا يا رسول الله، قال: «فما أعددت لها؟»، قال: والله ما أعددت لها من كثير عمل، لا صلاة، ولا صوم، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال له النبي ﷺ: «المرء مع من أحب»، قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بعد الإسلام بشيء أشد من فرحهم بهذا^(١). أي: لما سمعوا قول الرسول ﷺ: «المرء مع من أحب».

التفسير الثاني: هو التفسير الحقيقي، ولا داعي لأن نقول إن هاهنا كلمة محذوفة مثل كلمة (بحبكم)، فالتقرب هنا يكون بكم، «مُتَقَرَّبٌ بِكُمْ»، أي: أنتم وسيلتي إلى الله، وأنا متقرب بكم إلى الله باعتباركم أسماء الله.

نحن نقول: (بسم الله الرحمن الرحيم)، ونوح لما صعد السفينة كان المحرك لتلك السفينة هو أن نوح عليه السلام قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَبُرْسَاَهَا﴾^(٢)، أنظروا القرآن الكريم يقول: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾^(٣)، فمن يسيطر على هذه الأمواج غير الله سبحانه وتعالى.

(١) علل الشرائع ١: ١٤٠/ باب ١١٧/ ٢.

(٢) هود: ٤١.

(٣) هود: ٤٢.

الشاهد في الأمر أن الله سبحانه وتعالى يدبر الكون عبر أسمائه: الجواد، القاهر، الرزاق، الشافي، الحي، الجميل، ومن خلال هذه الأسماء الله تعالى يعطي الرزق والعافية، ويخلق الجمال والخلق، الله هو ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُكَبِّرُ﴾^(١)، ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٢)، وهذه الأسماء عبارة عن الصفات الإلهية، والله من خلال صفاته يخلق الخلق، فالله جميل فقد خلق الجمال، والله رزاق فأعطى الرزق، ولأنه رحيم أنزل الرحمة، ولأنه كريم تكرم على عباده.

هنا تأتي رواية أهل البيت عليهم السلام التي تقول: «نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا»^(٣)، أي إن رسول الله ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام هم أسماء الله الحسنى، طبعاً المقصود أن الله تعالى تجلّى جماله في جمال أهل البيت عليهم السلام، تجلّت حكمته في حكمة أهل البيت عليهم السلام، تجلّت قدرته في هؤلاء الكائنات العظيمة الذين هم أشرف الخلق، نحن الآن إذا نظرنا إلى الشمس قلنا: سبحان الله، وإذا نظرنا إلى القمر قلنا: سبحان الله ما أجمله، جمال الله وجلاله وأسماءه كلّها تجلّت في أهل بيت النبوة عليهم السلام، تجلّت حكمة، عظمة، جمالاً، صبراً، علماً، ومعرفةً، تجلّى الله تبارك وتعالى كأفضل ما تجلّى في أهل بيت النبوة، فهم أسماء الله.

وفي ضوء ذلك فلنقف عند قوله: «مُقَرَّبٌ بِكُمْ»، أي أنتم طريقي إلى الله، أنتم أدواتي إلى الله، ألسنت أنا أتقرب إلى الله بأسمائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الْعَظِيمِ الْأَعْظَمِ الْأَعَزِّ الْأَجَلِّ الْأَكْرَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ

(١) الحشر: ٢٣.

(٢) الحشر: ٢٤.

(٣) الكافي: ١/ ١٤٤/ باب النواذر/ ٤.

بِهِ عَلَى مَغَالِقِ أَبْوَابِ السَّمَاءِ لِّلْفَتْحِ بِالرَّخْمَةِ انْفَتَحَتْ»^(١)، والنبي والأئمة الأطهار عليهم السلام هم تجلّي لأسماء الله تبارك وتعالى، فنحن نتقرب إلى الله تعالى بهم، ونقول: (إلهنا نحن نتقرب إليك بهم)، فهم نموذج الجمال والجلال الإلهي والرحمة الإلهية والمعرفة الإلهية.

الرواية في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾^(٢) وردت في مصدرنا وكذلك مصادر أبناء العامة أيضاً، أنه ما هي الكلمات التي توسّل بها آدم إلى الله تعالى؟

الرواية تقول كما في الكافي عن أحد الإمامين الصادقين عليهما السلام قال: «قال آدم: لا إله إلا أنت سبحانك اللهم وبحمدك، عملت سوءاً وظلمت نفسي، فاغفر لي وأنت خير الغافرين»^(٣).

وفي رواية أخرى: سأله بحق محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام^(٤).

لكن هناك روايات أخرى من طريق أهل السنة أيضاً تقول: «إنّ آدم لما أذنب رفع رأسه إلى السماء فقال: اللهمّ أسألك بحق محمّد إلا ما غفرت لي، فأوحى الله تعالى إليه: يا عبدي يا آدم، من محمّد؟

قال آدم: تبارك اسمك، لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك، فإذا مكتوب على ساق العرش: لا إله إلا الله، محمّد رسول الله، فعلمت أنه ليس أحد عندك أعظم ممّن جعلت اسمه من اسمك.

(١) مصباح المتعبد: ٤١٦.

(٢) البقرة: ٣٧.

(٣) الكافي ٨: ٣٠٤ / ٤٧٢.

(٤) المصدر السابق.

فأوحى الله إليه: إن محمداً رسول الله هذا هو آخر النبيين من ذريتك، ولولاه لما خلقتك»^(١).

ولذا فنحن نقرأ في دعاء ليالي شهر رمضان:

«اللَّهُمَّ بِذِمَّةِ الْإِسْلَامِ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ وَبَحَرَمَةِ الْقُرْآنِ أَعْتَمِدُ إِلَيْكَ وَبِحَبِيبِ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ الْقَرَشِيِّ الْهَاشِمِيِّ الْعَرَبِيِّ الْتَهَامِيِّ الْمَكِّيِّ الْمَدَنِيِّ أَرْجُو الزُّفْلَةَ لَدَيْكَ»^(٢).

عن جابر بن عبد الله، قال: لما قدم علي عليه السلام على رسول الله ﷺ بفتح خبير، قال له رسول الله ﷺ: «لولا أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى للمسيح عيسى بن مريم، لقلت فيك اليوم قولاً لا تمرُّ بملأ إلا أخذوا التراب من تحت رجلك ومن فضل طهورك يستشفون به، ولكن حسبك أن تكون منِّي وأنا منك، ترثني وأرثك، وإنك منِّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وإنك تبرئ ذمتي، وتقاتل على سُنَّتِي، وإنك غداً على الحوض خليفتي، وإنك أول من يرد عليَّ الحوض، وإنك أول من يُكسى معي، وإنك أول داخل الجنة من أمتي، وإن شيعتك على منابر من نور مبيضة وجوههم حولي، أشفع لهم، يكونون غداً في الجنة جيرانني، وإن حربك حربِي، وسلمك سلمِي، وإن سرك سري، وعلايتك علايتي، وإن سريرة صدرك كسريرتي، وإن ولدك ولدي، وإنك تنجز عداوتي، وإن الحق معك، وإن الحق على لسانك وقلبك وبين عينيك، الإيمان مخالط لحكمك ودمك كما خالط لحمي ودمي، وإنه لن يرد عليَّ الحوض مبغض لك، ولن يغيب عنه محب لك حتَّى يرد الحوض معك».

(١) راجع: مجمع الزوائد ٨: ٢٥٣؛ معجم الطبراني (الأوسط) ٦: ٣١٤؛ الدر المنثور ١: ٥٨.

(٢) مصباح الكفعمي: ٥٩٥.

قال: فخرٌ علي عليه السلام ساجداً، ثم قال: «الحمد لله الذي أنعم عليّ بالإسلام، وعلمني القرآن، وحببني إلى خير البرية خاتم النبيين وسيد المرسلين، إحساناً منه وفضلاً منه عليّ». قال: فقال النبي ﷺ: «لولا أنت لم يعرف المؤمنون بعدي»^(١).
ولهذا يوم عاشوراء حينما تقدّم عابس قال: ألا هل من مبارز؟ فلم يبرز له أحد، فألقى درعه ثم حمل على الناس، ف قيل له: أجننت يا عابس؟ قال: حب الحسين أجنني.

وذاك الغلام الأسود جون مولى أبي ذر الغفاري رضي الله عنه يوم عاشوراء حينما أذن له الحسين عليه السلام بالانصراف وقع على قدمي الحسين يقبلهما وهو يقول: سيدي إن لوني لأسود، وإن حسبي للثيم، وإن ريحي لنتن، فتنفّس عليّ بالجنّة، فلمّا قُتل كان لا يمرّ عليه أحدٌ في المعركة إلّا ويشمّ منه رائحة المسك^(٢).

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

(١) أمالي الصدوق: ١٥٦ / ١٥٠ / ١.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف: ٦٤؛ بحار الأنوار ٤٥: ٢٣.

المحاضرة الخامسة والستون:

أسس العلاقات الاجتماعية في الإسلام

«مُوالٍ لَكُمْ ولأُولِيائِكُمْ».

بسم الله الرحمن الرحيم

هنا في الحقيقة ولاء متعدد الجوانب، الولاء لأهل البيت عليه السلام واجب، ولكن هناك ولاء ثانٍ هو ولاء لشعبة أهل البيت عليه السلام، «مُوالٍ لَكُمْ»، هذا يعني الولاء لأهل البيت عليه السلام، لكن هناك ولاء آخر مطلوب من الإنسان، هو: «وَلِأَوْلِيَائِكُمْ»، يعني موالٍ لشيعتكم، الولاء لمجتمع الإيمان.

الولاء لأمة المؤمنين، الولاء لشعبة أهل البيت عليه السلام، هذا ولاء آخر، فأنت كما يجب عليك أن تكون موالياً ومحباً لأهل البيت عليه السلام، كذلك يجب أن يكون لديك علاقات ايجابية وروابط حسنة مع مجتمع المؤمنين، وهذا ما نريد اليوم أن نتحدث عنه.

الولاء للمؤمنين:

العلاقات الايجابية مع المؤمنين. وهو واجب، ومعناه أن الإنسان لا يجوز له أن يتقاطع مع المؤمنين، مع مجتمع المؤمنين، فيكون مبغضاً للمؤمنين، مبغضاً للشعبة، هذا لا يجوز، وهذا ما نريد أن نقف عند تحليله في قوله: «مُوالٍ لَكُمْ وَلِأَوْلِيَائِكُمْ».

هنا لدينا أربعة بحوث:

البحث الأول: مجالات الحكم الشرعي.

البحث الثاني: فلسفة الحكم الشرعي.

البحث الثالث: النظرية الإسلامية في أسس العلاقات الاجتماعية.

البحث الرابع: استحقاقات الأخوة الإيمانية.

البحث الأول: مجالات الحكم الشرعي:

الحكم الشرعي هو الحكم الصادر من عند الله تعالى، وهو عبارة عن الوجوب والحرمة والاستحباب والكراهة والإباحة، وهذا له عدة مجالات:

هناك حكم شرعي متعلق بالفكر، وهناك حكم شرعي متعلق بالعمل، وهناك حكم شرعي متعلق بالقلب، يعني أنَّ الله تبارك وتعالى عندما أعطانا أحكاماً شرعية، فإن بعضها يرتبط بالفكر تُسمِّيها واجبات ومحرمات فكرية، وبعضها واجبات ومحرمات عملية، وبعضها واجبات ومحرمات قلبية، هناك إذن ثلاثة مجالات:

١ _ مجال الفكر.

٢ _ مجال العمل.

٣ _ مجال القلب.

مثلاً في مجالات الفكر: هناك واجبات فكرية، مثل الاعتقاد بالله تبارك وتعالى، فهو واجب اعتقادي فكري. وهذا غير مسألة الصلاة والصوم، وبالمقابل هناك الجحود والشك، فهذا حرام، لكن أي حرام؟ حرام فكرياً، سواء ترتب عليه أثر عملي أم لا، أنت يحرم عليك أن تكون مشركاً أو جاحداً لله تبارك وتعالى، وكذلك الاعتقاد بالنبوة، هذا واجب، لكن أي وجوب؟ وجوب فكري، حيث يجب عليك أن تؤمن، وكذلك الاعتقاد بالإمامة، هذه تُسمِّيها واجبات فكرية، في مقابلها لدينا محرمات فكرية، مثل حرمة الكفر بالله، وحرمة الشك بالنبوة. وحرمة الجحود بالإمامة.

لدينا في المجال الثاني واجبات عملية لا علاقة لها بالفكر

والاعتقاد، مثلاً: يجب عليك الصلاة، يجب عليك الحج، يجب عليك الخمس، يجب عليك صلة الرَّحِم، هذه الواجبات واجبات حركية على الأرض تُسمِّيها واجبات في مجال العمل، وهكذا يقابلها محرّمات في مجال العمل، ونستطيع أن نعدد العشرات من الواجبات العملية والمحرّمات العملية غير الفكرية.

هناك في الإسلام واجبات من نوع آخر، نسميها واجبات قلبية، هذه غير متعلقة بالعقيدة، بل هي في مرحلة ما بعد العقيدة، وهي غير مرحلة العمل أيضاً، إنما هي في مرحلة القلب والعاطفة النفسية، الله تبارك وتعالى يعطينا أحكاماً في العاطفة النفسية، يجب عليك أن تكون محباً لله تعالى، هناك من يؤمن بالله لكن يبغض الله، هذا مقبول أم لا؟ طبعاً غير مقبول، عقائدياً هو مؤمن بالله، لكن لا يحب الله تبارك وتعالى، فيجب عليك من الناحية الإسلامية أن تؤمن بالله فكريباً، وأن تطيع الله عملياً، وأن تحب الله تعالى قلبياً. وهذا تُسمِّيه واجب قلبي. وهكذا يجب عليك أن تكون مُحبّاً للنبي، ممكن يوجد أناس يؤمنون بالنبي لكن لا يحبونه، وكذلك أناس يؤمنون بأحقية أهل البيت عليهم السلام لكن لا يحبونهم، هذا تخلف آخر، فهنا واجبات تُسمِّيها واجبات قلبية، تقابلها المحرّمات العكسية، من جملة الواجبات القلبية الحب، الحب لله واجب، الحب للأنبياء واجب، الحب لدين الله واجب، الحب لكتاب الله واجب، الحب لأئمة الهدى واجب، ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(١)، ومن جملة الحب الواجب الحب لمجتمع المؤمنين، فقد يكون هناك

مسلم لكنّه يكره المسلمين، مؤمن شيعي لكنّه يكره الشيعة، هذا إثم، يجب على الإنسان أن يكون مُجِبّاً للمجتمع الإيماني. هذا هو معنى «مُوالٍ لَكُمْ وَلِأَوْلِيائِكُمْ»، أولياؤكم يعني شيعتكم، ليس فقط محب لكم، ولكن لشيعتكم، حينما تعرف أن هؤلاء شيعة أهل البيت عليه السلام فيجب أن تُحبهم.

البحث الثاني: فلسفة الحكم الشرعي:

اليوم حديثنا عن واحدة من تلك المجالات، وهي العلاقات القلبية، «مُوالٍ لَكُمْ وَلِأَوْلِيائِكُمْ».

أنتم ستسألون، كما يوجد هذا السؤال اليوم: ما هي فلسفة الحكم الشرعي؟

الله تبارك وتعالى لماذا يتدخل في شأن الإنسان؟ هذا واجب، وهذا حرام، افعل هذا، ولا تفعل هذا، الله يتدخل في فكر الإنسان، يقول: يجب عليك أن تكون معتقداً بالله، الله يتدخل في عمل الإنسان، يقول: يجب عليك أن تصلي وتصوم، ويحرم عليك الربا والسرقه، والله أيضاً يتدخل في قلب الإنسان، يقول له: يجب أن تكون مُجِبّاً للمؤمنين، مُبْغِضاً للكافرين، هذا السؤال اليوم مطروح.

لماذا التدخل الإلهي؟ أليس الإنسان بالفطرة يعرف الخير؟

أليس الإنسان قد وهبه الله عقلاً؟ أليس الأفضل أن يقول الله تعالى للإنسان: أيها الإنسان أنا أتركك وعقلك وفطرتك، أي شيء أوصلك عقلك فالتزم به، أي شيء عرفته خيراً اعمله، شراً اتركه، هذا سؤال عن فلسفة الشريعة. يقال أنتم المسلمون وأصحاب الديانة الإلهية تتلقون من

الله تعالى شريعةً كبيرةً بآلاف المفردات الحرام والواجب والمستحب، لكن أنتم تقيّدون الناس، لا تتركون الناس أحراراً. أليس الله تعالى أودع لدى الإنسان فطرة طيّبة. دعوه يسير على فطرته؟! هذا السؤال مطروح اليوم، في الليبرالية، في الحداثة، أنه لا ضرورة للالتزام بشريعة من فوق الإنسان، دعوا الإنسان يشرّع ما يرى، التشريع من فوق الإنسان، هذا كبت يؤدي إلى أزمة نفسية، واجب وحرام، أتركوا هذا الإنسان يريد أن يُصلّي فليصل، إن أراد أن يترك الصلاة دعوه، اليوم هذا السؤال تطرحه الليبرالية والحداثة العالمية، أن التشريعات الدينية هي تحميل للإنسان وكبت للإنسان، وفرض على الإنسان من سلطة عليا، والحال أننا نعرف أن السلطة هي من حق الإنسان وحده.

نحن بوعينا الديني نقول: لا، الله تبارك وتعالى يعطينا أحكاماً حتى في مجال الفكر، وفي مجال العمل، وفي مجال القلب، هذا رأي الدين، فما هو الجواب على تلك الأسئلة؟

الجواب: نحن نعتقد _ وهذا الأمر علمي والتجربة الخارجية تثبتُه _ أن الإنسان يحتاج إلى ترشيد حركته الفكرية والسلوكية والقلبية، ترشيد من الأعلى، كما الإنسان في أي مجتمع من المجتمعات يحتاج إلى ترشيد صحي _ مثلاً _ ولهذا لدينا وزارة الصحة، ولدينا تعليمات صحية دائماً تُعرض في وسائل الإعلام. هذا تُسمّيه ترشيد صحي، ولا يكفي أن يقال للإنسان: أنت اذهب حسب معرفتك، بل الإنسان يحتاج إلى ترشيد، في المدارس هناك شيء اسمه التربية الوطنية، ماذا يعني التربية الوطنية؟ هناك رأي واضح في العالم بأن الإنسان يحتاج إلى ترشيد فكري، يجب أن يوجّه إلى حب الوطن، إلى حب الدين، وهكذا

لا بدءاً من ترشيد. ولهذا العالم كله اليوم يسير على نظرية الترشيد، صحيح أن الله تبارك وتعالى أعطى للإنسان عقلاً، فطرةً، لكن هذا العمل ونتيجة الاحتكاكات وتضارب المصالح والشبهات، فإنَّ العقل يحتاج إلى ترشيد من الأعلى، والفطرة تحتاج إلى ترشيد من الأعلى، الإنسان لن يستغني عن الترشيد في يوم من الأيام، لكن الرشد من أين؟

الرشد من أعلى. باعتقادنا الإسلامي أن هناك سلطة فوق الإنسان، من قال أن الإنسان سلطة ليس فوقها سلطة؟ في الفكر الديني يقال: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطْفَى﴾^(١)، ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾^(٢).

أنظروا القرآن يقول: أيها الإنسان، لماذا أنت مغرور؟ ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(٣).

ألا ينظر الإنسان كم هو حجمه في الوجود حتى يقول: لا توجد سلطة فوقى، ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نَفْثَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾^(٤)، الاعتقاد الديني أن هناك ولاية وسلطة فوق الإنسان، هذه السلطة هي سلطة الله تبارك وتعالى، وكما هناك سلطة مثل سلطة القانون وسلطة القضاء وسلطة الدولة، وكل العالم اليوم لا يعترضون على الدولة حين تتدخل في النظام المروري أو الاقتصادي أو غيره لغرض تنظيم حركة المجتمع، وليس معنى ذلك أن الإنسان ليس لديه عقل أو ليس عنده معرفة، وإنما معناه أن هذه الحركة الاجتماعية عندما تصبح واسعة وتتصادم بعضها مع البعض الآخر فإنَّ الإنسان

(١) العلق: ٦.

(٢) عبس: ١٧.

(٣) الانفطار: ٦.

(٤) عبس: ١٧ - ١٩.

يحتاج إلى ترشيد مروري وتجاري وزراعي وغيره، الإنسان يحتاج إلى ترشيد، وهذا الأمر يعتقد به الإسلام في مجمل حركة الإنسان، إن الإنسان يحتاج إلى ترشيد من قِبَل سلطة عليا هي سلطة الله تبارك وتعالى، وعلى هذا الأساس عندما يتدخل الله ويقول اعتقادكم يجب أن يطابق الحقيقة، والحقيقة الكونية هي بالنحو الذي يشرحه لكم الوحي، فإن هذا يُعتبر بمثابة الترشيد لحركة الفكر.

البحث الثالث: ما هو الواجب في العلاقات الاجتماعية؟

وما هي أسس العلاقات الاجتماعية؟

الإسلام ماذا يقول؟ الحداثة الغربية ماذا تقول؟ والجاهلية ماذا تقول؟

النظرية الجاهلية:

كانت العلاقات الاجتماعية في الجاهلية مبنية على أساس التعصب القبلي والمحلي والقومي والإقليمي. هذا من قبيلتي ومن عشيرتي سواء أكان على حق أم كان على باطل، هذا هو الأساس القائم عليه مبدأ التعصب، وحين جاء الإسلام أسقط هذا المبدأ.

النظرية الحداثيّة:

تقوم العلاقات الاجتماعية في النظرية الحداثيّة على أساس المنفعة الشخصية، فحينما يكون لديك علاقة منفعة مع أمك وأبيك فيجب أن تؤثّق علاقتك بهم. وحينما لا يكون لديك مصلحة شخصية معهم أتركهم، الإخوان كذلك، العشيرة كذلك، الزوجة كذلك، كل العلاقات الاجتماعية مقبولة ومحترمة بمقدار ما تحقق منفعة، الإنسان الغربي يمشي ويبحث عن منفعه الشخصية، فلا قيمة لأيّ علاقات اجتماعية ما لم تحقق منافع شخصية، كم فيها من الربح، لا يوجد غير

قانون الربح، كل المجتمع مسخر لأجل الأنا، لأجل المنفعة الشخصية، يعني لا يوجد اعتراف آخر غير الأنا، هذا نسميه مبدأ المنفعة الذاتية التي تكون هي أساس العلاقة الاجتماعية، وهذا هو مبدأ تحقيق الذات، حقق ذاتك في مجتمع، ولا تكن مقيداً بتقاليد المجتمع وأعراف المجتمع، أنت حقق ذاتك، تأكل كما تشاء، تمشي كما تشاء، ولا قيمة لأيّة مؤسسة وكيان غير تحقيق الذات، هذا هو ما تسير عليه الحداثة.

النظرية الإسلامية:

الإسلام يقول إن مبدأ العصبية خطأ، ومبدأ المنفعة الذاتية خطأ، الإسلام يقول إن أساس العلاقات الاجتماعية تتمثل بالأخوة الإنسانية، ثم الأخوة الإيمانية، هذا هو الفكر الديني، أن العلاقات الاجتماعية تقوم على أساس أن أبناء المجتمع بعضهم لبعض أخ وله استحقاقات الأخوة، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١)، يقطع النظر عن المنفعة. الإسلام يريد إيجاد روابط أخوة بين المؤمنين، ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(٢).

قصة دعبل الخزاعي:

وحيث نعيش ذكرى ولادة الإمام الرضا عليه السلام، يناسب أن أنقل لكم قصة دعبل الخزاعي. الإمام الرضا عليه السلام كان من شعرائه دعبل الخزاعي، وكما تعرفون أن دعبل كان شاعر أهل البيت عليهم السلام، دخل على الإمام الرضا عليه السلام وقال: يا ابن رسول الله نظمتُ في حقل قصيدة وأريد أن أنشدها، فقال أنشد، فأنشد:

مدارسُ آياتٍ خلّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ ومهبطٌ وحيٍ مقفر العرصات

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) التوبة: ٧١.

فدخل الإمام الرضا عليه السلام إلى داخل البيت، وأهدى له بيد الخادم خرقة فيها (٦٠٠) دينار، فلما وصلت هذه الهدية إلى دعبل قال: لا والله يا ابن رسول الله ﷺ ما أنشدتكم هذه الأبيات طمعاً في مال، ولكن أهدني قطعة من قماشك.

فقال الإمام الرضا عليه السلام: نحن لا نسترجع المال الذي نعطيه، لكن هذه الدنانير استعن بها على سفرك، وهذه جبة هي هدية لك.

أخذ دعبل الجبة فرحاً، فلما وصل إلى قم عرف الناس أن هذا الشاعر هو شاعر أهل البيت عليه السلام فاستقبلوه، وعلموا أنه قد حصل على جبة من الإمام الرضا عليه السلام.

فقالوا له: يا دعبل، أعطنا الجبة مقابل أي مال تريد، وكان دعبل يأبى عليهم ذلك. فلما خرج من قم بعثوا له جماعة فأخذوا منه الجبة قهراً، واضطر لأن يدفع إليهم ألف دينار لكي يسترجع الخرقة، فأبوا ودفعوا إليه قطعة صغيرة منها، وبقيت عنده إلى مماته^(١).

زيارة الإمام الرضا عليه السلام:

إن هناك أربع بركات في زيارة الإمام الرضا عليه السلام، وذلك كما في الرواية الصحيحة المعتبرة من حيث السند تقول عن رسول الله ﷺ: «ستُدفن بضعة مني في خراسان، ما زارها مكروب إلا نَفَسَ الله كربتته، ولا مذنب إلا غَفَرَ الله ذنبه»^(٢)، وفي رواية: «وما زارها مؤمن إلا أوجب الله له الجنة، وحرَّم جسده على النار»^(٣)، هذه أربع بركات لزيارة الإمام الرضا عليه السلام.

(١) راجع: عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٩٤/٣٤.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٨٨/١٤.

(٣) أمالي الصدوق: ٦/١٠٧/١١٩.

الإمام الرضا عليه السلام لما جعله المأمون ولي عهده وأقامه خليفة من بعده، وكان في حاشية المأمون أناس كرهوا ذلك وخافوا خروج الخلافة عن بني العباس، فحصل عندهم من الرضا عليه السلام نفور، وكان عادة الرضا عليه السلام إذا جاء إلى دار المأمون ليدخل عليه يبادر من الدهليز إلى السلام عليه ورفع الستر بين يديه ليدخل. فلما حصلت لهم النفرة عنه تواصلوا فيما بينهم، وقالوا: إذا جاء ليدخل على الخليفة اعرضوا عنه ولا ترفعوا الستر له، فاتفقوا على ذلك، فبينما هم قعود إذ جاء الرضا عليه السلام على عادته، فلم يملكوا أنفسهم أن سلموا عليه ورفعوا الستر على عاداتهم، فلما دخل أقبل بعضهم على بعض يتلاومون كونهم ما وقفوا على ما اتفقوا عليه، وقالوا المرة الآتية إذا جاء لا نرفعه له. فلما جاء في اليوم الثاني، فقاموا وسلموا عليه ووقفوا ولم يتدروا إلى رفع الستر، فأرسل الله ريحاً شديدة دخلت في الستر فرفعته أكثر مما كانوا يرفعونه، فدخل، فسكنت الريح فعاد إلى ما كان، فلما خرج عادت الريح ودخلت في الستر فرفعته حتى خرج، ثم سكنت فعاد الستر، فلما ذهب أقبل بعضهم على بعض وقالوا: هل رأيتم؟ قالوا: نعم، فقال بعضهم لبعض: يا قوم، هذا رجل له عند الله منزلة، والله به عناية، ألم تروا أنكم لما لم ترفعوا له الستر أرسل الله الريح وسخرها له لرفع الستر كما سخرها لسليمان، فارجعوا إلى خدمته، فهو خير لكم، فعادوا إلى ما كانوا عليه وزادت عقيدتهم فيه ^(١).

البحث الرابع: استحقاقات الأخوة الإيمانية:

قلنا بأن الإسلام يعتقد بأن العلاقات الاجتماعية تعتمد على أساس

الأخوة، بل على أساس الولاية ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(١)، وتلك هي استحقاقات الأخوة.

هذه نظرية عظيمة (المؤمن أخو المؤمن)، ليس الإنسان ابن منافعه الشخصية، المنافع الشخصية تموت وتنتهي ولا قيمة لها، الإنسان لديه القيم النفسية، عنده الإيثار، عنده الكرم، عنده الشجاعة، عنده الغيرة، هذه قيم اجتماعية، الإسلام والدين يرسّخ هذه القيم ويقول: أيها الإنسان، أنت لست ابن ذاتك فقط، أنت إنسان لك قيم إنسانية، وهذه القيم فوق المنفعة الذاتية، ثم بنفس الوقت هذه القيم الإنسانية تحقق المنفعة الذاتية، حيث لولا هذه القيم الإنسانية لانهار المجتمع. هذه الأخوة تترتب عليها عدّة استحقاقات.

أول تلك الاستحقاقات هو الحب، يجب على المؤمن أن يحب المؤمنين. عن الإمام الصادق عليه السلام: «من حبّ الرجل دينه حبّه أخاه»^(٢)، إذا كنت تحب الدين يجب أن تحب إخوانك في الدين، وهذا معنى عظيم، وهو يمتد لمحبة الأمة المؤمنة، أنت يجب أن يكون لديك اهتمام بما يصيب شعبك، وما يصيب الأمة، أما إذا كنت لا تبالي فهذا خلل في دينك، هذا ضعف في إيمانك، لو كان إيمانك حقيقياً لكنت تحمل هموم المؤمنين.

عن الإمام الباقر عليه السلام، عن رسول الله ﷺ: «ودّ المؤمن للمؤمن في الله من أعظم شُعب الإيمان»^(٣)، هذه أقوى وسيلة من وسائل الإيمان، كالصلاة والصوم. ودّ المؤمن من أقوى عرى الإيمان.

(١) التوبة: ٧١.

(٢) الاختصاص: ٣١.

(٣) الكافي ٢: ١٢٥/باب الحب والبغض في الله / ٣.

سألوا الإمام الصادق عليه السلام عن حق المؤمن على المؤمن؟ فقال:

«أيسر حق منها أن تحب له ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك، والحق الثاني أن تجتنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره، والحق الثالث أن تعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك، والحق الرابع أن تكون عينه ودليله ومرآته، والحق الخامس أن لا تشيع ويجوع، ولا تروى ويظماً، ولا تلبس ويعرى، والحق السادس أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم فواجب أن تبعث خادمك فيغسل ثيابه ويصنع طعامه ويمهد فراشه، والحق السابع أن تبر قسمه، وتجب دعوته، وتعود مريضه، وتشهد جنازته، وإذا علمت أن له حاجة تبادره إلى قضائها، ولا تلجئه أن يسألها ولكن تبادره مبادرة، فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتك»^(١).

على هذا الأساس يأتي الدين فيقول: يُحرم عليك سبّ المؤمن، يحرم عليك غيبة المؤمن، ويجب عليك معونة المؤمن، ويجب عليك أن تعوده إذا مرض، ويجب عليك أن تشهد جنازته، وحتى بعد الموت للمؤمن عليك حقوق. هذه مجموعة حقوق واجبة، ولكن هذه الحقوق غير مقبولة في النظرية الحدائية، كما هي غير مقبولة في الجاهلية.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة السادسة والستون:

الإيمان بين التجسيد والتجريد

«مُؤْمِنٌ بِسِرِّكُمْ وَعَلَانِيَتِكُمْ، وَشَهِيدٌكُمْ وَغَائِبٌكُمْ،
وَأَوَّلُكُمْ وَآخِرُكُمْ، وَمُقَوَّضٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَيْكُمْ».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث حول هذا المقطع من الزيارة: «مُؤْمِنٌ بِسِرِّكُمْ وَعَلَانِيَتِكُمْ،
وَشَهِدِكُمْ وَغَايِبِكُمْ، وَأَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَمُفَوَّضٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَيْكُمْ».

لدينا مجموعة بحوث في هذا المقطع، وهي بحوث مهمة، بحوث
ساخنة، ومعاصرة، وعلمية. وهي كالتالي:

١ _ قراءة الدين.

٢ _ الأشخاص أم المبادئ.

٣ _ الانقسامات في داخل المذهب.

البحث اللغوي:

لنبداً أولاً بالبحث اللغوي: ما المقصود بهذا المقطع؟ المعنى اللغوي لهذه
العبارة ليس أمراً عسيراً، فالمعنى أنني مؤمن بمعتقداتكم ومبادئكم التي هي
قضية قلبية، وعلايتكم التي هي قضية عملية، يعني مؤمن بما تعتقدون، ومؤمن
بما تتحركون، (سرکم) هو الخلفية القلبية للحركة الفكرية، (علايتکم) هي
الحركة الخارجية، الموقف السياسي، الموقف الاجتماعي، أي مؤمن بموقفكم،
وبما هي الخلفيات الفكرية لديكم عن ذلك الموقف، وهنا تفسير ثانٍ لقوله:
«مُؤْمِنٌ بِسِرِّكُمْ وَعَلَانِيَتِكُمْ»، وهو أن كل إنسان له مظهر ولديه سر، شخصيتك،
ونفسك واتجاهاتك النفسية، وهويتك هذه سر لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى،
لكن معالم شخصيتك، التي قد تكون مكشوفة لدي ولديك، هذه قضية علانية،

هنا كأن الزيارة تقول: إني مؤمن بهويتكم التي لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى، وهذا هو سركم، ومؤمن بشخصيتكم المكشوفة لنا.

وأما قوله: «وَشَاهِدُكُمْ وَعَايِبُكُمْ»، فالأئمة عليهم السلام لديهم مرحلة الظهور ولديهم مرحلة الغيبة، الأئمة عليهم السلام كلهم كانوا في مرحلة الظهور، أنا مؤمن بهم، وغائبهم الإمام الغائب المنتظر عليه السلام، أنا مؤمن به حتى لو كان غائباً عن الأبصار، وهكذا معنى «وَأُولَئِكَمْ وَآخِرُكُمْ». التفسير اللفظي له هو: أولكم هو الرسول ﷺ. إذا تحدثنا عن بيت النبوة فرأس بيت النبوة هو الرسول ﷺ. وإذا تحدثنا عن الأئمة فالأول هو الأمام علي عليه السلام، أي نؤمن بالإمامة من علي عليه السلام وحتى صاحب العصر والزمان عليه السلام، «وَمَقْوَصٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَيْكُمْ»، يعني نحن علاقتنا مع النبي ﷺ، مع الأئمة عليهم السلام أكثر من مجرد إيمان، وإنما أنا جميع موافقي، جميع معتقداتي، جميع متبنياتي، كلها طبقاً لما تأمرون، يعني أنا كلي لكم، تعتقدون بشيء أعتقد، تؤمنون بشيء أؤمن، وهكذا نقبل كل ما يصدر منهم، أما قبول البعض ورفض البعض فهذا كما يفعله اليهود والنصارى والمنافقون، حيث أن الذي يصب في صالحهم يقبلونه، والذي يتعارض يرفضونه، أما نحن فنقبل منهم كل شيء.

هذا هو البحث اللغوي، أما البحوث العلمية فهي باختصار:

البحث الأول: قراءة الدين:

كيف نقرأ الدين، الإسلام، التشيع؟

هناك قراءتان للدين:

القراءة الأولى: القراءة الماضوية التاريخية.

القراءة الثانية: القراءة الخاتمية الأبدية.

القراءة الأولى تقول: إن الإسلام نزل في تاريخ معين قبل (١٤٠٠) سنة، وذاك التاريخ له ثقافته وأدواته، ونحن يجب أن نتعامل مع الدين الإسلامي كتأريخ انتهى، وماض قد انتقلنا عنه، فلا نرجع إلى ذلك الماضي، يعني أن نتعامل مع الدين كعاملنا مع وسائط النقل، والأدوات الزراعية وغيرها، حيثُذُ مثلما تتغير الأدوات الزراعية، والتجارية، والاقتصادية، ووسائط النقل، فالدين أيضاً يتغير، حتى القرآن الكريم بحسب هذه القراءة جاء لوقته وعالج مشكلات موجودة، عالج مشكلة وأد البنات، وليس لدينا الآن وأد بناتي، وجاء وعالج مشكلة العبيد وليس لدينا الآن عبيد، القرآن جاء لثقافة معينة ونحن عبرنا تلك الثقافة، الآن نحتاج إلى كتاب جديد، إلى نظريات جديدة، مثلاً يقولون: كل الأمثلة والأفكار المطروحة في القرآن تنسجم مع ذلك الزمان، فهو يقول: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾^(١)، فانتخب المثال من طبيعة الحياة الاجتماعية في البادية العربية، ولو كان القرآن نزل في بلاد الهند لذكر الفيل بدل الإبل، إذن هو جاء لنمط حياتي معين. يتحدث مع هؤلاء، ويعطي حلولاً لمستوى هؤلاء، فلماذا تفترضون القرآن أبدياً.

والقرآن يقول في آية أخرى في وصف المنافقين: ﴿مَثَلُ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ﴾^(٢)، لقد كان الكلب يومئذٍ مظهراً من مظاهر السوء، بينما في هذا الزمان فإن (٤٥٪) من نساء أمريكا يتمنين أن يصبح رجالهن بوصف الكلاب، فهذه الإحصائية الغريبة تقول بأن النساء في أمريكا تفضل الكلاب على الرجال لأفضلية أخلاق الكلاب عندهن،

(١) الغاشية: ١٧.

(٢) الأعراف: ١٧٦.

في الغرب يُعتبر الكلب في البيت هو رقم واحد، والامراة رقم اثنين، وثالثاً يأتي الرجل، بينما القرآن الكريم ذكر الكلب كمثال تحقير وتوهين؛ لأن ذلك هو الذي يتناسب مع بيئة وثقافة ذلك الزمان. وهذا الكلام لو تحدثت به في الغرب الآن لقالوا: وهل هناك أحسن من الكلب؟

وهكذا حينما يتحدث الله تبارك وتعالى عن خلق سبع سماوات، فقد كانت نظرية بطليموس تقول: إن هناك سماوات موجودة، فالقرآن جاء وقرر ثقافة كانت موجودة لديهم، ولا يعني ذلك أن القرآن يعتقد بوجود سبع سماوات، وإنما هي معاشة مع الفكر الموجود حينئذٍ، وليس عبارة عن نظرية مطروحة إلى الأبد.

مثلاً يقول عن السفن: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾^(١)، الله إذا أسكن الرياح فهذه السفينة لن تسير؛ لأنها يومئذٍ سفن شرعية، والآن قد يقول قائل: إذا أسكن الله الرياح، فإن السفينة تشغلها المحركات وتنتهي القضية، هذه القراءة تقول: يجب علينا أن نتعامل مع القرآن والإسلام كتراث ماضٍ عاصر أمةً معيّنة، فلما انتهت تلك الأمة انتهى الدين أيضاً كما ينتهي التراث.

هذه هي قراءة الحداثة الغربية للدين.

القراءة الثانية: الخاتمية والأبدية. وهذه القراءة تعتقد بأن الدين الإسلامي هو الخاتم الأبدي، صحيح أنه نزل في الجزيرة العربية واستعمل لغتها وناقش ثقافتها وعالج مشكلاتها، لكنه ليس فقط لأهل

الجزيرة، وصحيح أنه نزل قبل أربعة عشر قرناً في ثقافة معينة، لكنه يستوعب كل الثقافة البشرية إلى أبد الآبدين. أما أن هناك أمثلة استخدمها القرآن الكريم تتناسب مع البيئة يومئذٍ، فذلك لا يعني أنه أصبح بحجم تلك البيئة، فكل عالم ومؤلف اليوم يستخدم لغة معينة، ويستخدم أمثلة معينة، وأسلوباً معيناً. لكنه يطرح نظريات علمية تتجاوز الزمان والمكان. لنفترض أن (أنشتاين) يتحدث عن النظرية النسبية، أو يتحدث (دارون) في كتابه (أصل الأنواع)، طبعاً هم تحدثوا بأمثلة وثقافة معينة، لكن النظرية المطروحة هي نظرية لكل العالم، فالدين يطرح نظرية عالمية، نعم يستخدم أمثلة محلية ولغة محلية، وثقافة محلية، لكن هذا لا يعني أنه يطوق نفسه بتلك الثقافة.

رؤيتنا للدين هي الخاتمية والأبدية، بدليل أن الدين في الحقيقة يطرح أفكاراً عامة، ويطرح معالجات لمشكلات بشرية، وهذه المشكلات موجودة في كل زمان رغم اختلاف ألوانها. في ذلك الزمان كانت عملية الاعتداء عبارة عن غزو عشائري، في هذا الزمان ليس لدينا غزو بذلك الشكل، لكن يوجد لدينا غزو بطريقة دبابات وطائرات وما شاكل، يأتي الإسلام ليعالج مشكلة الاعتداء عند الإنسان، مشكلة اضطهاد حقوق الآخرين، مشكلة التفاوت الطبقي، الإسلام يأتي ويناقش التفاوت الطبقي، يناقش جوهر المرض، ولعل القضية في ذلك الزمان بشكل، وفي هذا الزمان بشكل آخر، اضطهاد المرأة في ذلك الزمان كان بطريقة وأد البنات واغتصاب حقوقها، ولكن الفكرة نفس الفكرة في كل زمان، اضطهاد المرأة واستعبادها، والإسلام لا يقبل باضطهاد المرأة واستعبادها، ويطرح نظرية عامة تصلح لكل زمان وكل مكان بشأن حقوق المرأة وموقعها الإنساني ودورها.

على هذا الأساس فإن قراءتنا للدين هي قراءة خاتمية أبدية، ولهذا فإن الزيارة الجامعة تقول: «مُؤْمِنٌ بِسِرِّكُمْ وَعَلَانِيَتِكُمْ وَشَهِدِكُمْ وَعَايِكُمْ وَأَوَّلِكُمْ وَآخِرِكُمْ»، كما لو كان النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام موجودين معنا، الزيارة تقول: إننا لا نؤمن بالقراءة الماضية، وأن الإمام الصادق عليه السلام مات وانتهى، وفكر الإمام الصادق عليه السلام ماضٍ وقد انتهى، ورسول الله ﷺ والقرآن ماضٍ قد انتهى. لا، نحن نؤمن بالخاتمية والأبدية لرسالة الإسلام. هذا هو ما تريد أن تقول العبارة التي نبينها في الزيارة الجامعة.

البحث الثاني: الأشخاص أم المبادئ؟

نحن نؤمن بمبادئ، ونؤمن بأفكار، نؤمن بالتوحيد، بالآخرة، بالجنة، بالنار، بالعدل، بالمساواة، بالحرية، بالإيثار، بالأخلاق الحسنة، بمكارم الأخلاق، نحن أبناء مبادئ وأبناء أفكار.

فإذا كنّا أبناء مبادئ وأفكار، فلمَ نتمسك بالأشخاص؟ أليس التمسك بالأئمة عليهم السلام هو تمسك بالأشخاص؟
هناك طريقتان في التعامل:

الطريقة الأولى: هي طريقة التعامل مع أفكار مجردة، نتحدث ونرتبط بأفكار بعيداً عن رجالها وشخصها.

الطريقة الثانية: نظرية البحث عن أفكار ومبادئ صحيحة، وفي نفس الوقت البحث عن تجسيّدات صحيحة لتلك المبادئ، أما أن تعطيني مبادئ معلقة بين الأرض والسماء، هذه نسميها نظرية التجريد، يعني فكرة مجردة عن تطبيقها الخارجي، هذه ليست لها قيمة، الأفكار تحتاج إلى تجسيد.

هنا يقول الدين نحن نبحث عن أفكار مجسدة، والدين كله مملوء بهذه النظرية، نظرية أن هناك تجسيدات للمبادئ.

عندما يتحدث القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾^(١)، يتحدث عن الإنسان الكامل: ﴿أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾^(٢)، ارتبطوا به، إنه تجسيدكم، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾^(٣). فأنتم أيها الناس تبحثون عن تجسيد، القرآن الكريم يقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾^(٤)، أما إذا بقيت تبحث عن النظرية مجردة فإنك تضع، تبحث عن الطب بدون الطبيب تموت، تبحث عن الهندسة الحديثة بدون أن تراجع شركة هندسية تضع.

لا بد من اتباع الأشخاص الذين يجسدون النظرية، ﴿فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾، أنت تريد الحق. هناك أناس يجسدون هذا الحق، «علي مع الحق والحق مع علي»^(٥)، الدين كله على هذا، عيسى، وموسى، ونوح، وإبراهيم، ونبينا ﷺ، وهي حاجة بشرية.

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾^(٦)، كل الناس من زمان إبراهيم إلى يومنا هذا يجب أن يطوفوا بالكعبة، لماذا؟ قد تقول هذه

(١) النساء: ١٢٥.

(٢) الحج: ٧٨.

(٣) آل عمران: ٦٧.

(٤) الأنعام: ٩٠.

(٥) أمالي الصدوق: ١٥٠؛ مجمع الزوائد ٧: ٢٣٥.

(٦) المائدة: ٩٧.

قضية انتهت، إبراهيم بنى الكعبة، ولحد الآن يجب أن نصلي خلف مقام إبراهيم! ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(١)، أنظروا الربط بالأشخاص، السعي بين الصفا والمروة، وهي مبادئ عظيمة، وأنا أتحدث عن البعد التاريخي، وهي عبارة عن تخليد هاجر أم إسماعيل، إن هذه المرأة الصالحة، حينما كان إسماعيل عطشاناً، وأصبحت تبحث عن الماء، سعدت من الصفا، ثم نزلت إلى المروة بحوالي (٤٠٠ - ٤٥٠) متراً سبع مرات ذهاباً وإياباً، وتنادي: ألا هل من إنس؟ هل من أحد؟ جاء الدين الإسلامي وخلد ذكر هذه المرأة، السعي بين الصفا والمروة، ويأتي القرآن يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾^(٢)، قضية شخصية، لكن حولها القرآن إلى شعيرة، ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، وهكذا الذبح، إن كل الحجاج عليهم أن يذبحوا في يوم العيد، هو محاولة لاستذكار إبراهيم، أن إبراهيم استجاب لنداء الله القلبي، ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا آيَاتُ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾^(٣)، إبراهيم استجاب، إسماعيل استجاب، ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾^(٤)، وبعد ذلك ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾^(٥)، الفكرة هي الاستجابة، أن الإنسان يعطي كل شيء لله حتى ابنه، وهذه طبعاً رمزية، والأنبياء علاقتهم مع الله فيها الكثير من الرموز.

(١) البقرة: ١٢٥.

(٢) البقرة: ١٥٨.

(٣) الصافات: ١٠٢.

(٤) الصافات: ١٠٣ - ١٠٥.

(٥) الصافات: ١٠٧.

قد يقول القائل: نحن لم نرَ أباً يذبح ابنه، فليست الفكرة أن الأب يذبح ابنه ولا أن الله تعالى يريد أن يذبح إسماعيل، وإنما الله تعالى يريد التضحية بأعز شيء عند الإنسان، تصور أنك في معركة، واقتضى الأمر أن تتقدم أنت في المعركة. يجب أن تكون مستعداً، إبراهيم ما كان في معركة، كان في الصحراء هو وابنه، فقال له الله: أريد أن أختبرك بهذا الاختبار، فوجده صادقاً، ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ هذه القضية إلى اليوم وأتباعاً لإبراهيم وتخليداً لإبراهيم، يقول الإسلام: يجب على كل حاج أن يذبح ذبيحة. يوم العيد، لاحظوا هذا تجسيد المبدأ. لأن إبراهيم كان أسوة ونموذجاً على الأرض، نحن اليوم نأتي ونتبع هذا التجسيد.

إذن نحن في الرؤية الدينية نبحث عن أفكار مجسّدة، وليس عن أفكار مجردة.

ولهذا رسول الله ﷺ يقول: «مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فَيَكُم مَثَلُ سَفِينَةِ نُوحٍ، مِنْ رَكِبَهَا نَجَا، وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ وَهُوَ»^(١)، هذا تجسيد، الإسلام قال: إن لدينا فكر ولدينا تجسيد، وهذا هو روعة التشيع، وهذا هو واقعية التشيع، واقعية الإسلام الحقيقي.

ماذا قال رسول الله ﷺ، تريدون فكراً اقرأوا القرآن. لكن الفكر وحده لا يكفي، تحتاجون لشيء آخر، وهو التجسيد لذلك الفكر، والتجسيد هم أهل البيت عليهم السلام. «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي»^(٢).

(١) أمالي الطوسي: ٦٠ / ٨٨ / ٥٧؛ كنز العمال ١٢: ٩٤ / ٣٤١٤٤.

(٢) أمالي الصدوق: ٥٠٠ / ٨٦ / ١٥؛ مستدرک الحاكم ٣: ١٤٨.

حين تذهبون إلى أمريكا - نيويورك -، تشاهدون هناك تمثالاً لإنسان يحمل مشعلًا، وهذا المشعل يتوهج ناراً، يسمى (تمثال الحرية)، والحرية فكرة، فلماذا هم بحاجة إلى هذا التمثال؟ لأن الإنسان لا تكفيه الأفكار، يريد أفكاراً ويريد أموراً على الأرض تجسد له تلك الأفكار كنموذج.

ولهذا الروايات تقول: «النظر إلى وجه العالم عبادة»^(١)، أنظروا إلى جمال الإسلام، نحن نبحث عن تجسيد للأفكار، وليس عن أفكار خيالية، مجردة عن تجسيدها.

هذه النظرية أين توجد؟

توجد في زيارة الجامعة حينما يقول: «مُؤْمِنٌ بِسِرِّكُمْ وَعَلَانِيَتِكُمْ وَشَاهِدِكُمْ وَعَائِبِكُمْ وَأَوْلَكُمْمْ وَأَخْرَكُمْ وَمَقْضُوفٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَيْكُمْ» يعني أنتم التجسيد الكامل للإسلام.

رسول الله ﷺ حين أراد الاستعداد لحرب قريش، فكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة وأرسله مع امرأة على أن توصله إلى أهل مكة، وكتب في الكتاب: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، إن رسول الله يريدكم، فخذوا حذركم. فخرجت المرأة، ونزل جبرئيل عليه السلام فأخبر النبي ﷺ بما فعل، فبعث رسول الله ﷺ علياً وعماراً وعمر والزيير وطلحة والمقداد بن الأسود وأبا مرثد، وكانوا كلهم فرساناً، وقال لهم: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها، فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي ذكره رسول الله ﷺ، فقالوا لها: أين الكتاب؟

فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحوها وفتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً، فهموا بالرجوع، فقال علي عليه السلام: والله ما كُذِّبنا ولا كُذِّبنا، وسلّ سفیه وقال: أخرجني الكتاب وإلاّ والله لأضربنّ عنقك، فلما رأت الجد أخرجته من ذؤابتها قد خبأتها في شعرها، فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ، فأرسل إلى حاطب فاتاه، فقال له: هل تعرف الكتاب؟ قال: نعم، قال: فما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله، والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ صحبتك، ولا أجبته منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلاّ وله بمكة من يمنع عشيرته، وكان أهلي بين ظهرائهم فخشيت على أهلي، فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه، وإن كتابي لا يُغني عنهم شيئاً، فصدقه رسول الله ﷺ وعذره^(١).

الفكرة هي أننا آمنّا برسول الله ﷺ باعتباره تجسيدا للصدق والحق على الأرض، «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»^(٢).

على كل حال نحن نؤمن بالقدسية المطلقة لله، والقدسية المطلقة لدين الله، وأن الله تعالى جسّد تلك القدسية في أنبيائه، هذا هو الخط الديني، أن القدسية ليست قدسية أفلاطونية معلقة بين السماء والأرض، وإنما القدسية تجسدت في الأنبياء، الله تعالى بعث أنبياء وقال عنهم أنهم الإنسان الكامل، «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ»^(٣)، هذه فكرة التقديس للمبادئ والتقديس للتجسيّدات الخارجية، «النظر إلى وجه علي عبادة»^(٤).

(١) بحار الأنوار ٢١: ٩٤.

(٢) الأحزاب: ٢١.

(٣) النساء: ٥٩.

(٤) أمالي الصدوق: ٤٤٤ / ٥٩١ / ١؛ مستدرک الحاكم ٣: ١٤٢.

يأتي قائل يقول: لماذا النظر إلى وجه العالم عبادة؟
الجواب: نحن نؤمن بالله وبالمبادئ. ولكن لا بدّ ممّن يجسّد تلك
المبادئ، والتجسيد مرة (١٠٠٪) هو مستوى العصمة، وأخرى
(٨٠٪)، وهي للعلماء والفقهاء.

البحث الثالث: الانقسامات المذهبية:

والبحث الأخير: كيف نفسّر الانقسامات المذهبية داخل

التشيع؟

الزيارة تقول: «وَأُولَئِكَمُ وَآخِرُكُمْ»، لأن هناك مذاهب
قطعت السلسلة من النصف، ومن تلك المذاهب المذهب
الزيدي، هؤلاء وصلوا إلى زيد بن عليّ، وهو شخصية عظيمة،
وله شأن في التاريخ، وهو أحد الثوار، والأمام الباقر عليه السلام يقول:
«لا تقولوا لعمي زيد إلا خيراً، رحم الله عمّي، فلو ظفر لوفى»^(١)،
الرؤية الشيعية تقدّس زيد بن عليّ، لكن برز مذهب يتبع زيدا،
ويشترط في الإمام أن يكون نائراً بالسيف.

لدينا مذهب آخر هو الإسماعيلية، وهم وقفوا عند
إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام. وهو أكبر أبنائه، لكنه
مات في حياة والده، والإمام يعلم بأن الناس سيَتبعونه، فأرشد
القوم عليه بأنه مات، ولكن الإسماعيلية يعتقدون أن إسماعيل
الآن حي غائب قد رفعه الله.

أما نحن الإمامية الإثنى عشرية، نعتقد بإمامة الأئمة الإثنى عشر «أُولَئِكَمَّ وَآخِرُكُمْ».

يقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «طوبى لشيعتنا المتمسكين بحبنا.. الثابتين على موالاتنا والبراءة من أعدائنا، أولئك منا ونحن منهم، رضوا بنا أئمة، فرضينا بهم شيعة»^(١)، فهذا العشق وهذا الارتباط بأهل البيت عليهم السلام له جزاؤه.

وهناك مذهب آخر قد انتهى اليوم وهو مذهب (الواقفة)، هؤلاء الذين وقفوا على إمامة الإمام موسى الكاظم عليه السلام وقالوا إن الإمامة انتهت عند موسى الكاظم عليه السلام.

وهذه انقسامات مذهبية، لكن الأصل في مذهب التشيع والذي يمثل الخط العريض لمذهب شيعة أهل البيت عليهم السلام يُسمى مذهب (الإمامية الإثنى عشرية). الشيعة الموجودون في العراق، وإيران، ولبنان، ومصر، وفي باكستان هو (الإمامية الإثنا عشرية).

نعم، يوجد في اليمن جماعة الإسماعيلية والزيدية، لكن عندما تُطلق كلمة الشيعة يتبادر إلى الذهن الشيعة (الإمامية الإثنا عشرية)، نحن لدينا (١٢) إماماً، وعلى هذا الأساس كانت هذه التسمية. وحينئذٍ نطرح هذا السؤال:

إمامة الإثنى عشر:

ما هو دليلكم على إمامة الأئمة الإثنى عشر؟
الإمام علي عليه السلام جاء فيه من أحاديث رسول الله ﷺ (حديث

المنزلة^(١)، و(حديث الغدير)^(٢)، و(حديث الدار)^(٣)، لكن هذه الأحاديث كلها في شخص الإمام علي عليه السلام، لكن أنتم الشيعة تقولون باستمرار الإمامة فيمن بعده، فما هو دليلكم؟ لماذا لم نصبح من الإسماعلية؟ أو من الزيدية؟ لماذا اثنا عشرية؟

هذا بحث أريد أن أتناول منه شيئاً يسيراً، حيث إن ثقافتنا هكذا تقول: «أولكم وآخركم»، ترسيخ فكرة الإيمان بالجمع، لا نؤمن بنصف الأئمة، إنما نؤمن بكل الأئمة الإثني عشر، «شاهدكم وغائبكم وأولكم وآخركم»، هذا المعنى يتكرر في فقرات أخرى في نفس هذه الزيارة، «توليت آخركم بما توليت به أولكم»، نحن نؤمن بالإمام علي عليه السلام كما نؤمن بالإمام الحسن العسكري عليه السلام، القضية واحدة، هذه هي نظرية (النور الواحد)، نحن نعتقد أن أهل البيت عليهم السلام هم حقيقة واحدة، سلسلة واحدة، هذا المعنى أيضاً نقرؤه في الزيارة الجامعة، وهناك تركيز عليه «شاهدكم وغائبكم وأولكم وآخركم»، «توليت آخركم بما توليت به أولكم»، وهكذا نقرأ في الزيارة: «أن أرواحكم

(١) قوله ﷺ: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي». (مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٣؛ مسند أحمد ١: ١٧٧؛ صحيح البخاري ٥: ١٢٩).

(٢) قوله ﷺ في غدير خم: «ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: بلى، فقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه...» الحديث. (كمال الدين: ٢٧٦؛ مستدرک الحاكم ٣: ١٠٩).

(٣) قوله ﷺ وقد جمع بني عبد المطلب: «من يوازرني على هذا الأمر يكن أخي ووصي ووزير ووارثي وخليفتي من بعدي»، فقام إليه أمير المؤمنين عليه السلام من جماعتهم، وهو أصغرهم يومئذ سناً فقال: «أنا أواذك يا رسول الله» فقال له النبي ﷺ: «أجلس فانت أخي ووصي، ووزير، ووارثي، وخليفتي من بعدي». (الإرشاد ١: ٨؛ شرح نهج البلاغة ١٣: ٢١١؛ كثر العمال ١٣: ١١٤؛ ٣٦٣٧١).

وَتُورَكُمْ وَطَيِّتَكُمْ وَاحِدَةً طَابَتْ وَطَهَّرَتْ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ»، هناك نظرية اللّحمة الواحدة، نظرية الكيان الواحد، نظرية النور الواحد، أن أهل البيت عليه السلام لا ينفصلون، مثلما نحن لا نستطيع أن نفصل بين الحسن والحسين عليهما السلام، لماذا؟ لأنه جاء التركيز من رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»^(١)، نفس هذا الترابط موجود بين الإمام الحسين والإمام زين العابدين عليهما السلام، وبين الإمام زين العابدين والإمام الصادق عليهما السلام، وهكذا، فإن التفكيك غير مقبول في نظرية الإمامية الإثني عشرية، «أَنَّ أَرْوَاحَكُمْ وَتُورَكُمْ وَطَيِّتَكُمْ وَاحِدَةً طَابَتْ وَطَهَّرَتْ»، الطينة واحدة، النور واحد، الأرواح واحدة، التمييز غير مقبول، هذه النظرية ما هو الدليل عليها؟ نحن نتعامل معها بهذا الشكل: أنهم كلهم كيان واحد، وموقعهم موقع واحد، وهنا بحثان:

البحث الأول: موقع أهل البيت عليهم السلام بشكل عام.

البحث الثاني: أن الأئمة اثنا عشر.

موقع أهل البيت عليهم السلام:

تحدثنا عنه مراراً، وأشير إليه هنا مجرد الإشارة، أن هناك حديثاً يقينياً عن رسول الله ﷺ، وهناك محاولة للتشكيك به من قِبل عناصر معادية لأهل البيت عليهم السلام، الحديث هو حديث الثقلين: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً»^(٢)، وهذا الحديث يعطي موقعاً واضحاً لأهل البيت عليهم السلام بأنهم في موازاة القرآن الكريم، هذا الحديث يرويه صحاح السُّنة الكبار

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٣.

(٢) أمالي الصدوق: ٥٠٠/٦٨٦/١٥؛ مستدرک الحاكم ٣: ١٤٨؛ سنن الترمذي ٥: ٣٢٨. بتفاوت.

فضلاً عن الشيعة، لكن جاء دور التشكيك وكما تعرفون أنهم ما تركوا رواية لأهل البيت عليه السلام إلا وحاولوا التشكيك فيها، أو جعلوا رواية تماثلها تقول: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وسُنَّتِي»^(١)، وليس عترتي، وإذا كان كتاب الله وسُنَّتِي فلا وجود لأهل البيت عليه السلام، هذه شبهة في حديث الثقلين، أنتم تعتمدون على حديث الثقلين، لكن هناك رواية يرويها أهل السُنَّة تقول إن رسول الله ﷺ قال: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وسُنَّتِي».

الجواب: أن حديث (الثقلين) برواية (وعترتي) قد رواه ثلاثون صحابياً^(٢)، وهو بهذا النص متواتر في صحاح السُنَّة فضلاً عن الشيعة^(٣)، وأما حديث (سُنَّتِي) فقد جاء كرواية نادرة ضعيفة السند، ليست موجودة في صحاح السُنَّة. وعلمائنا ناقشوا هذه الرواية بسندها فوجدوا أن السند ضعيف وفق مناهج أهل السُنَّة، وهناك جهود كثيرة بذلت لتوضيح ذلك أود أن أشير إليها، منها لسماحة آية الله العظمى السيد (محمد سعيد الحكيم) في كتابه القيم (في رحاب العقيدة)، إذن فالحديث الصحيح هو المروي في كتب (الصحاح) للسُنَّة والشيعة هو: «كتاب الله وعترتي أهل بيتي»، وهناك تحريف وكذب كما جاء في كتاب (منهاج السُنَّة)

(١) أورده الحاكم في مستدركه ١: ٩٣؛ والبيهقي في سننه ١٠: ١١٤، والدارقطني في سننه ٤: ١٥٩، كلهم رواه بسنده عن أبي هريرة.

(٢) صرح بذلك ابن حجر في الصواعق: ١٢٢/ ذيل الحديث الرابع، وأضاف: وإن كثير من طرقه صحيح وحسن.

(٣) راجع: مسند أحمد ٣: ١٤؛ المستدرک على الصحيحين ٣: ١٤٨؛ سنن الترمذي ٥: ٣٢٨؛ سنن النسائي ٥: ٤٥؛ فضلاً عن مصادرنا.

لابن تيمية، وهذا الرجل قد بلغ حقه على أهل البيت عليه السلام أنه يقول: (إن عليّ بن أبي طالب لم يقتل كافراً واحداً)، وأن كل ما يقال عنه من شجاعة هو كذب!!، أو يأتي لحديث: «لأعطين الراية غداً لرجل يحبه الله ورسوله»^(١)، ويقول ابن تيمية هذه الرواية صحيحة ولكن ليس فيها أي فضيلة لعليّ بن أبي طالب عليه السلام. ولكن حينما يصل إلى ابن ملجم يقول عنه: (كان عابداً صالحاً شديد الورع والتقوى)، ومثل هذا الكلام يقوله عن يزيد بن معاوية^(٢). وقس على ذلك تشكيكات ابن تيمية العجيبة والتي يعتمد عليها علماء السلفية اليوم.

ونحن نقول لماذا كل هذا الحقد على أهل البيت عليه السلام، فلم يترك فضيلة إلا وشكك بها، حتى في أوضح الواضحات!.

ما نريد أن نقوله إن موقع أهل البيت عليه السلام من وجهة نظرنا المأخوذة من رسول الله ﷺ أنهم يمثلون الثقل الثاني بعد القرآن.

ولو كان الحديث (كتاب الله وسنتي)، إذن لماذا منعت الخلافة تدوين سنة رسول الله ﷺ؟ فقد كان عمر بن الخطاب يضرب بالسوط ويهدد من يروي رواية عن رسول الله ﷺ، كان ذلك في زمن أبي بكر، وفي زمن عمر، وفي زمن عثمان، واستمرت القضية إلى أيام عمر بن عبد العزيز، فهذه تسعون سنة كان ممنوعاً فيها أن يقول القائل: (قال رسول الله ﷺ)!! حتى رفع المنع عمر بن عبد العزيز.

فإذا كان الحديث «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وسنتي»، فلماذا منعوا السنة؟! فإن قلتم: إنهم قد خالفوا سنة رسول الله ﷺ فقد

(١) راجع: صحيح البخاري ٤: ٥٠؛ صحيح مسلم ٥: ١٩٥.

(٢) راجع في ذلك بشكل مفصل كتاب العلامة السيد عليّ الميلاني في (نقد منهاج السنة).

شهدتم على أنفسكم بالانحراف، وإن قلتم: إن الحديث هو «كتاب الله وعترتي» فقد شهدتم بموقع العترة، فلماذا خالفتموهم؟
يبقى السؤال الآخر عن الدليل على أن الأئمة اثنا عشر. حيث يمكن أن نشير إلى عدة أدلة:

الدليل الأول: الروايات المتواترة اليقينية الثابتة، هذه الروايات موجودة في صحاح السُّنة، وموجودة أيضاً في كتبنا، أن رسول الله ﷺ قال في أكثر من موضع: «الأئمة من بعدي اثنا عشر كلهم من قریش»^(١).
في رواية البخاري وفي رواية مسلم «ما زال هذا الدين عزيزاً منيعاً ما دام فيه اثنا عشر أماماً»^(٢)، يذكر أسانيد هذا الحديث كتاب (في رحاب العقيدة) لسماحة آية الله العظمى السيد محمد سعيد الحكيم، كما أن سماحة السيد سامي البدري له كتاب^(٣) في دفع الشبهات عن المذهب يذكر فيه مصادر حديث الأئمة الإثني عشر من مصادر السُّنة ومصادر الشيعة.

وكتاب الكافي للشيخ الكليني يذكر (٢٠) رواية في أن الأئمة اثنا عشر^(٤). ولأجل أن القضية ثابتة فقد جاء علماء السُّنة وبحثوا هذا الموضوع، ماذا نصنع؟ من أين نأتي بإثني عشر خليفة؟ الخلفاء الراشدون

(١) رواه جمهور المسلمين بألفاظ متفاوتة والمعنى واحد، راجع: أمالي الصدوق: ٣٨٧ / ٤٩٩ / ٨ دلائل الإمامة: ١٩؛ مسند أحمد ٥: ٨٧ سنن الترمذي ٣: ٣٤؛ مستدرک الحاكم ٣: ٦١٧ ... وغيرهم.

(٢) صحيح البخاري ٨: ١٢٧؛ صحيح مسلم ٦: ٣.

(٣) اسمه (شبهات وردود) في الردّ على أحمد الكاتب.

(٤) راجع: الكافي ١: ٥٢٥/ باب ما جاء في الإثني عشر والنص عليهم ﷺ.

أربعة فقط، فوقعوا في حيرة من أمرهم، قال بعضهم: إنني لم أفهم لهذا الحديث معنى، كيف أن الأئمة بعدي اثنا عشر؟ وقال بعضهم: نحن نختار خلفاء بعد الخلافة الراشدة إلى أن نصل إلى عمر بن عبد العزيز، فهؤلاء اثنا عشر إماماً، وعلى كل الأحوال فقد عجز علماء السُّنة عن موافقة حديث الإثني عشر طالما لم يعترفوا بإمامة أهل البيت عليهم السلام الإثني عشر، مع أنها روايات إجماعية متفق عليها في صحاحهم وفي كتبهم: «وكلهم من قريش»، ولم يكتب رسول الله ﷺ بذلك، بل قال: «كلهم من بني هاشم»^(١)، ونحن نطرحها كمناقشة علمية، والروايات في البخاري ومسلم، وفيها أن رجلاً سأل عبد الله بن مسعود قال: كم يملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال: سألنا رسول الله ﷺ فقال: «اثنا عشر، عدة نقيب بني إسرائيل»^(٢)، وفي رواية أخرى: «يكون بعدي من الخلفاء عدة أصحاب موسى»^(٣)، وهكذا الكثير من الروايات في هذا الشأن.

التفسير الشيعي واضح لهذا الحديث، أن لدينا إثني عشر إماماً معصوماً بالأدلة التفصيلية، ونكون قد استطعنا أن نفسّر حديث رسول الله ﷺ.

الدليل الثاني: لدينا روايات عن رسول الله ﷺ بلغت خمسين رواية^(٤) تذكر أسماءهم.

الدليل الثالث: أن الأئمة أحدهم نصّ على الآخر، الحسين أعطى

(١) يتابع المودة ٢: ٣١٥/٩٠٨ و ٣: ٢٩٠/باب ٧٧ ذيل الحديث ١٢.

(٢) كمال الدين: ٢٧١/٢٤/١٧؛ مستدرک الحاكم ٤: ٥٠١.

(٣) البداية والنهاية ٦: ٢٧٨؛ كتر العمال ١٣: ٢٧.

(٤) جمعها سماحة آية الله العظمى السيد محمد سعيد الحكيم في كتاب في رحاب العقيدة.

سلاح رسول الله ﷺ وأوصى لعليّ بن الحسين، وهكذا إلى الإمام صاحب العصر عليه السلام، ونحن نعتقد أن الإمام المعصوم وصيته نافذة^(١).

الدليل الرابع: وهناك برهان نستطيع أن نُسمّيه: البرهان الذاتي، وهو يعني أن كل أئمتنا يتمتعون ببرهان ذاتي على إمامتهم _ بقطع النظر عن النصوص _ كل إمام منهم أقام الحجّة على أن الإمامة له، كما كان عيسى بن مريم عليه السلام يُبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله، وكان ذلك هو البرهان الذاتي على نبوته.

ولهذا فإن الإمام محمّد الجواد عليه السلام وهو أصغر الأئمة سناً وهو بهذا العمر استطاع أن يفهم فطاحل العلماء من المذاهب الأخرى، حين عقد الخليفة العبّاسي ندوة علمية تخصصية دعا لها كافة الأساتذة لمناقشة الإمام الجواد عليه السلام، وعمره يومئذٍ سبع سنوات، مما اضطره بعد ذلك أن يقدم على تزويج ابنته للإمام الجواد عليه السلام لمحاولة احتواء الإمام الجواد عليه السلام، وذلك لأن الإمام _ مع صغر سنه _ استطاع أن يفرض

(١) قال الشيخ الصدوق: وقد وردت الأخبار الصحيحة بالأسانيد القوية أن رسول الله ﷺ أوصى بأمر الله تعالى إلى علي بن أبي طالب عليه السلام، وأوصى علي بن أبي طالب إلى الحسن وأوصى الحسن إلى الحسين، وأوصى الحسين إلى علي بن الحسين، وأوصى علي بن الحسين إلى محمّد بن علي الباقر، وأوصى محمّد بن علي الباقر إلى جعفر بن محمّد الصادق، وأوصى جعفر بن محمّد الصادق إلى موسى بن جعفر، وأوصى موسى بن جعفر إلى ابنه علي بن موسى الرضا، وأوصى علي بن موسى الرضا إلى ابنه محمّد بن علي، وأوصى محمّد بن علي إلى ابنه علي بن محمّد، وأوصى علي بن محمّد إلى ابنه الحسن بن علي، وأوصى الحسن بن علي إلى ابنه حجة الله القائم بالحق الذي لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتّى يخرج فيملأها عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين. (من لا يحضره الفقيه ٤: ١٧٧).

شخصيته العلمية على الواقع الإسلامي، واستطاع أن ينجح وأن يفهم كل ذلك المحفل العلمي الذي جمعه المأمون العباسي، والقصة في ذلك معروفة^(١).

ثلاث ظواهر في حياة الأئمة:

هناك ثلاث ظواهر تُسجّل في حياة الأئمة عليهم السلام لم يستطع أحد من مخالفينا أن يناقش هذه الظواهر الثلاث:
الظاهرة الأولى: أنهم لم يدرسوا عند أحد.
الظاهرة الثانية: أنهم أعلم الناس في زمانهم.
الظاهرة الثالثة: علمهم منذ الصغر.

هذه الظواهر الثلاثة هي شبيهة بمعجزة عيسى عليه السلام حين كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، وهذا هو ما تُسمّيه بالبرهان الذاتي.

والحمد لله رب العالمين

* * *

١٦
المحاضرة السابعة والستون:

التفويض إلى الله والنصرة لدين الله

«وَمُفَوَّضٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَيْكُمْ، وَمُسَلَّمٌ فِيهِ
مَعَكُمْ وَقَلْبِي لَكُمْ مُسَلِّمٌ وَرَأْيِي لَكُمْ تَبَعٌ
وَتَصَرُّفِي لَكُمْ مُعَدَّةٌ».

بسم الله الرحمن الرحيم

حديثنا اليوم عن محورين:

المحور الأول: التفويض.

المحور الثاني: النصر.

لاحظوا هذه الزيارة تقول: «وَمَفْوُضٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَيْكُمْ»، تفويض الأمر إلى أهل البيت عليهم السلام، هذا مقطع. ومقطع آخر يقول: «وَقَلْبِي لَكُمْ مُسَلِّمٌ وَرَأْيِي لَكُمْ تَبَعٌ وَتَضَرَّتِي لَكُمْ مُعَدَّةٌ»، النصر والانتصار لأهل البيت عليهم السلام.

المحور الأول: التفويض:

التفويض إلى الله تعالى بمعنى جعل الله هو صاحب الفعل والاختيار في أمر الإنسان، كما قال تعالى على لسان نبيه: ﴿وَأَفْوُضُ أُمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١).

مراحل الارتباط بالله:

ولكن العلماء مثل العلامة الطباطبائي^(٢)، واستفادة من الأحاديث الشريفة يفترض أن هناك ثلاث مراحل للارتباط بالله تعالى، مرحلة أكبر من مرحلة، ومرحلة أعمق من مرحلة.

(١) غافر: ٤٤.

(٢) في: تفسير الميزان ١٧: ٣٣٤.

المرحلة الأولى: هي التوكل.

المرحلة الثانية: هي التفويض.

المرحلة الثالثة: هي التسليم إلى الله تعالى.

فالمرحلة الأولى هي الاعتماد على الله تعالى والاستعانة به، والمرحلة الثانية هي إحالة الأمر إليه وجعله هو صاحب الاختيار، والمرحلة الثالثة هي القبول المطلق بما يصدر من الله تعالى وعدم الاعتراض عليه.

هذا هو الفهم العميق للتوكل والتفويض والتسليم، ولكنها تقترب من بعضها وتعطي مفهوماً متقارباً.

هنا لدينا تفويض إلى الله أولاً، ثم تفويض إلى أولياء الله، القرآن يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١)، ويقول: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾^(٢)، ويقول: ﴿وَأَفْوضُ أُمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾^(٣).

لاحظوا قوله: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾، يعني يسلم الوجه وقيادة النفس إلى الله تعالى. هذا هو من أعظم درجات الإيمان، فأعظم درجة للإيمان ليس أن تصلي أو تصوم، وإنما التوكل والتسليم والتفويض تكشف عن عمق العلاقة مع الله، كم أنت مسلم أمورك إلى الله؟ وكم أنت مفوض أمرك إلى الله؟ وكم أنت راض بقضاء الله وقدره؟ التفويض هو أعظم مراتب الإيمان.

بهذا الصدد أقرأ لكم رواية عن الإمام الصادق عليه السلام نقول: «أوحى

(١) الطلاق: ٣.

(٢) لقمان: ٢٢.

(٣) غافر: ٤٤.

الله إلى داود قال: ما اعتصم بي عبدٌ من عبادي دون أحد من خلقي ثمّ تكيده السماوات والأرض ومن فيهنّ إلا جعلت له المخرج من بينهنّ^(١)، يعني لو أن الإنسان يعتمد على الله تعالى، يقول الله تعالى لو تجتمع السماوات والأرض على هذا الإنسان لخلصته.

فتنة ابن الزبير:

الإمام السجّاد عليه السلام يقول في رواية يرويها الشيخ الكليني في أصول الكافي: «خرجت إلى حائط لي - حائط في اللغة العربية يعني البستان - فاتكأت عليه، فإذا رجل عليه ثوبان أبيضان، ينظر في تجاه وجهي، ثمّ قال: يا علي بن الحسين، ما لي أراك كثيراً حزناً؟ أعلى الدنيا؟ فرزق الله حاضر للبر والفاجر، قلت: ما على هذا أحزن، وإنه لكما تقول، قال: فعلى الآخرة؟ فوعد صادق يحكم فيه ملك قاهر، قلت: ما على هذا أحزن، وإنه لكما تقول، فقال: ممّ حزنت؟ قلت: مما نتخوف من فتنة ابن الزبير وما فيه الناس، قال: فضحك، ثمّ قال: يا علي بن الحسين، هل رأيت أحداً دعا الله فلم يجبه؟ قلت: لا، قال: فهل رأيت أحداً توكل على الله فلم يكفه؟ قلت: لا، قال: فهل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه؟ قلت: لا، ثمّ غاب عني^(٢)، فمن يكون هذا الرجل؟ هل هو الخضر؟ أم هو ملك من الملائكة؟

هذه الرواية محل الشاهد فيها أن هذا الرجل ذو الثياب والرداء الأبيض يقول: هل رأيت أحداً دعا الله فلم يجبه؟ قال له: لا، يعني ذلك

(١) الكافي ٢: ٦٣/ باب التفويض إلى الله والتوكل عليه / ١.

(٢) الكافي ٢: ٦٣/ باب التفويض إلى الله والتوكل عليه / ٢.

أن الإنسان إذا توكل على الله في أيّ عقدة وأيّ مشكلة، فإن الله ناصره ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١).

لمحة عن شخصية الزبير:

الإمام السجاد عليه السلام كان قلقاً من فتنة ابن الزبير، وهو عبد الله، أبوه الزبير من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن أوائل من أسلم، وكان من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، تاريخياً الزبير كان أحد الذين اعترضوا على السقيفة، ولم يقبل أن يبايع الأول، وتحصّنا في بيت أمير المؤمنين، ولهذا فإن الجماعة لما جاءوا بالحطب وكسروا الباب ودخلوا إلى البيت وجدوا مجموعة منهم الزبير، فهو من المجموعة المخلصة في تاريخه لأمر المؤمنين، والرواية تقول: أخذوا سيفه وكسروه^(٢)، طبعاً هو بطل من الأبطال، لكنه كان ينظر إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وأمر المؤمنين لم يجز لهم القتال يومئذٍ في أحداث السقيفة.

وهو أيضاً من ضمن الستة الذين رشّحهم عمر بن الخطاب للخلافة بعده. وكان الزبير من المتحمسين لأمر المؤمنين، وطلحة أعطى رأيه إلى عثمان، والزبير أعطى رأيه إلى عليّ ابن أبي طالب عليه السلام.

وعثمان حصل على الأكثرية؛ لأن عمر بن الخطاب جعل الشورى بين ستة، وجعل الأولوية للكفة التي فيها عبد الرحمن بن عوف، وعبد الرحمن من أقرباء عثمان فكان في كفة عثمان، فألت الخلافة لعثمان.

(١) الطلاق: ٣.

(٢) راجع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ٢: ٥٦، وفيه: لما جلس أبو بكر على المنبر كان علي عليه السلام والزبير وناس من بني هاشم في بيت فاطمة، فجاء عمر إليهم فقال: لتخرجن إلى البيعة أو لأحرقن البيت عليكم! فخرج الزبير مصلاً سيفه، فاعتقه رجل من الأنصار وزیاد بن لبيد فذق به فبدر السيف، فصاح به أبو بكر وهو على المنبر: أضرب به الحجر...

الشاهد في الأمر أن الزبير بعد ذلك كله وإذا به يتحوّل إلى مقاتل يقود جيشاً ضد أمير المؤمنين في معركة الجمل بقيادة عائشة، وكان أحد قادة الألوية هو الزبير، وأحد قادة الألوية أيضاً هو طلحة، ومع ذلك فإن الزبير كان لديه أصول خيرة، إلى أن كبر ابنه عبد الله فأغراه.

القصة تقول: إنه لما اصطفّ الناس للحرب بالبصرة خرج طلحة والزبير في صف أصحابهما، فنادى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الزبير بن العوام فقال له: يا أبا عبد الله، ادن منّي لأفضي إليك بسر عندي، فدنا منه حتّى اختلفت أعناق فرسيهما، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: نشدتك الله إن ذكرتك شيئاً فذكرته، أما تعترف به؟ فقال: نعم. فقال: أما تذكر يوماً كنت مقبلاً عليّ بالمدينة تحدّثني إذ خرج رسول الله ﷺ فرآك معي وأنت تبسم إليّ، فقال لك: يا زبير، أتحب علياً؟ فقلت: وكيف لا أحبه وبينني وبينه من النسب والمودة في الله ما ليس لغيره! فقال: «إنك ستقاتله وأنت له ظالم». فقلت: أعوذ بالله من ذلك؟ فنكس الزبير رأسه ثم قال: إني أنسيت هذا المقام. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: دع هذا، أفلست بايعتني طائعاً؟ قال: بلى. قال: فوجدت منّي حدثاً يوجب مفارقتي؟ فسكت، ثم قال: لا جرم والله لا قاتلتك، ورجع متوجّهاً نحو البصرة، فقال له طلحة: ما لك يا زبير! تنصرف عنّا، سحرك ابن أبي طالب؟ فقال: لا، ولكن ذكرني ما كان أنسانيه الدهر، واحتج عليّ ببيعتي له. فقال طلحة: لا، ولكن جنت، وانتفخ سحرك. فقال الزبير: لم أجبن، لكن أذكرت فذكرت. فقال له عبد الله: يا أبة، جئت بهذين العسكرين العظيمين حتّى إذا اصطفا للحرب قلت: أتركهما وأنصرف! فما تقول

قريش غداً بالمدينة؟ الله الله يا أبه لا تشمت الأعداء، ولا تشين نفسك بالهزيمة قبل القتال. قال: يا بني ما أصنع وقد حلفت له بالله ألا أقاتله؟ قال له: فكفر عن يمينك ولا تفسد أمرنا. فقال الزبير: عبيدي مكحول حر لوجه الله كفارة يميني. ثم عاد معهم للقتال^(١). ويروى أنه ترك المعركة فلقبه ابن جرموز فقتله وجاء برأسه وسيفه إلى أمير المؤمنين عليه السلام^(٢). هذه هي قصة الزبير وابنه عبد الله.

عبد الله بن الزبير:

أما عبد الله بن الزبير فقد كان يتنافس مع الإمام الحسين عليه السلام على زعامة الأمة الإسلامية؛ لأن الحسين هو ابن علي بن أبي طالب عليه السلام، وعبد الله هو ابن الزبير، والزبير من الصحابة الكبار، ولهذا كان الإمام الحسين عليه السلام ثقيلاً على عبد الله بن الزبير، وكان يريد الخلاص من الإمام بأيّة صورة كانت، وما زال الإمام الحسين عليه السلام موجوداً فلا أحد يرجع إلى عبد الله بن الزبير.

جرت معركة كربلاء وقتل الإمام الحسين عليه السلام، فكانت فرصة لعبد الله بن الزبير أن يعلن نفسه إماماً وزعيماً. وبايعه المسلمون في مكة والمدينة على أن يكون زعيماً في مقابل يزيد، وسقطت المدينة ومكة بيد عبد الله بن الزبير، ثم امتد الأمر إلى العراق والبصرة والكوفة، فأصبح الحجاز والعراق بيد عبد الله الزبير. والشام بيد يزيد، وحكم عبد الله بن الزبير تسع سنوات وعدة شهور.

(١) أمالي الطوسي: ٣٧ / ٢٢٣ / ٣٦.

(٢) راجع: بحار الأنوار ٣٢: ١٩٠.

وجَهَّز يزيد جيشاً من الشام إلى العراق والمدينة المنورة ومكة، وفي خارج المدينة في منطقة اسمها (الحرّة) وقعت معركة عظيمة بين جيش الشام وبين أهل المدينة المدافعين عنها، فتغلّب عليهم جيش الشام، ثم أبيضت المدينة المنورة لجيش الشام بأمر يزيد ليفعلوا ما يشاؤون وليدخلوا أيّ بيت شاؤوا ويفسدوا فيه، ثمّ زحف إلى مكة المكرمة حيث تحصّن بها عبد الله بن الزبير في المسجد الحرام، وهذا من أكبر الأخطاء، بينما الإمام الحسين عليه السلام لأجل حرمة المسجد الحرام انسحب حتّى لا تُنتهك حرمة المسجد، لاحظوا الفرق بين الإمام الحسين عليه السلام وعبد الله بن الزبير، حيث ضحّى عبد الله بن الزبير بالمسجد الحرام ليحمي نفسه حتّى لو كان يهدم المسجد، وكان قائد جيش الشام (الحصين بن نمير) وهو قائد أحد الفرق في معركة كربلاء، ومن القادة الذين كانوا ضد الإمام الحسين عليه السلام، فوقف عند جبل مرتفع اسمه (أبو قبيس) في مكة المكرمة، وعمل منجنيقاً - وهو أداة ترمي كتل نارية - من على الجبل ورموا الكعبة بها من بعيد، وبينما هم يرمونها جاء الخبر أن يزيد بن معاوية هلك، وكانت المعركة حينها قائمة، فراجع الحصين عن المعركة، وأرسل خيراً إلى عبد الله بن الزبير ليتصالح معه، وفعلاً رجع الحصين إلى الشام، بينما بقي عبد الله بن الزبير حاكماً على مكة المكرمة.

لقد حكم يزيد ثلاث سنوات وكان لديه ثلاث جرائم كبيرة:
 الجريمة الأولى: قتل الإمام الحسين عليه السلام في السنة الأولى من حكمه.
 الجريمة الثانية: إباحة المدينة المنورة للجيش بعد معركة الحرّة التي قتل فيها ثمانون صحابياً وتابعياً، ويقال: إن ألف امرأة حملت من سفاح عند دخول الجيش الأموي.
 الجريمة الثالثة: رمي الكعبة بالمنجنيق.

ولنعد إلى عبد الله بن الزبير الذي حكم تسع سنوات، فقد عيّن أخاه مصعب بن الزبير والياً على البصرة، ثمّ زحف إلى الكوفة، ودخل في معركة مع المختار الثقفي الذي كان حاكماً عليها آنذاك.

وتغلّب جيش مصعب بن الزبير على جيش المختار وقتل المختار^(١).

الإمام السجّاد عليه السلام في الرواية التي قرأتها عليكم يقول لهذا الشخص الذي أمامه: إني لست حزيناً على الدنيا ولا على الآخرة، إنّما أتخوّف من فتنة ابن الزبير، فهي فتنة في العالم الإسلامي، هي معركة ليست لله، صحيح هي ضد بني أمية، لكنها من أجل الدنيا فذاك يريد ملكاً، وهذا يريد ملكاً، هنا قال هذا الشخص للإمام زين العابدين عليه السلام: هل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه؟ قال: لا.

هل رأيت أحداً دعا الله فلم يجبه؟ قال: لا.

هل رأيت أحداً توكل على الله فلم يكفه؟ قال: لا.

في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «من أعطي ثلاثاً لم يُحرم ثلاثاً: من أعطي الدعاء أعطي الإجابة، ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة؛ ومن أعطي التوكل أعطي الكفاية، ثمّ قال: أتلوّ كتاب الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٢)، وقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٣)، وقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٤)،^(٥).

(١) للتفصيل عن وقعة الحرة، وأحداث ابن الزبير بمكة، راجع: تاريخ الطبري ٤: ٣٧٣؛

تاريخ ابن الأثير ٤: ١١١؛ البداية والنهاية ٦: ٢٦٢.

(٢) الطلاق: ٣.

(٣) إبراهيم: ٧.

(٤) غافر: ٦٠.

(٥) الكافي ٢: ٦٥/باب التفويض إلى الله والتوكل عليه/ ٦.

كان هذا حديثاً عن فضل التوكّل وفضل التفويض إلى الله تعالى.
اليوم حديثنا عن هذا المقطع من الزيارة: «وَمُقَوِّضٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ
إِلَيْكُمْ»، يعني أنت حينما تزور أهل البيت عليهم السلام تقول: (يا سادتي ومواليَّ
أنا موكّل أمري إليكم)، وهنا يأتي السؤال: كيف ينسجم ذلك مع
تفويض الأمر إلى الله تعالى؟

الجواب: أن التفويض إلى أهل البيت عليهم السلام يعني التفويض إلى
الله؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(١)، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
يُطِيعُونَكَ إِنَّمَا يُطِيعُونَ اللَّهَ﴾^(٢).

في الحقيقة نحن لا نرى أن هناك تضاداً بين الله وبين أنبيائه. النبي
ممثّل عن الله تعالى، إذن حينما نطيعه إذن نحن نطيع الله تعالى، وحينما
نفوض الأمر إلى النبي يعني ذلك التفويض إلى الله تعالى، باعتبار أن هذا
النبي وكيل ونائب، والنائب حينما يختار يعبر عن اختياره.

فلا يوجد تضاد بين النبي وبين الله تعالى، ولا يوجد تضاد بين
اسبي وبين أهل بيت النبي.

«فاطمة بضعة مني فمن آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى
الله»^(٣)، يوجد تطابق بين إرادة النبي وبين إرادة أهل بيته، ويوجد توافق
بين إرادة النبي وإرادة الله. إذن، _ بالاستعاضة _ إرادة أهل البيت
تساوي إرادة الله تعالى.

ولهذا نحن نقول: «وَمُقَوِّضٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَيْكُمْ»، يعني أن أمورنا نفوضها

(١) النساء: ٨٠.

(٢) الفتح: ١٠.

(٣) دلائل الإمامة: ١٣٥؛ مناقب آل أبي طالب ٣: ١١٢؛ شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٧٣.

إلى أهل البيت عليهم السلام، قالوا: سلم، قلنا: سلم، قالوا: حرب، قلنا: حرب، «سَلِّمْ لِمَنْ سَأَلَكُمْ، وَحَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَكُمْ»، أنتم يا أهل البيت قدروا الموقف واختاروا الموقف، ولسنا نحن الذين نفرض على النبي ونفرض على أهل البيت المواقف، بل هم الذين يفرضون علينا المواقف.

بهذا الصدد أقرأ لكم رواية، يقول أبو إسحاق النحوي: دخلت على الصادق عليه السلام، فسمعتة يقول: «إن الله أَدَبَ نَبِيَّهَ على محبته، فقال: ﴿وَأَنْتَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾»^(١)، ثُمَّ فَوَّضَ إليه، فقال: «مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»^(٢)، وإن نبي الله فَوَّضَ ذلك إلى عليٍّ واثمته، فسَلِّمْتُمْ وجحد الناس. فوالله لنحبكم أن تقولوا إذا قلنا، وأن تصمتوا إذا صمتنا، ونحن فيما بينكم وبين الله ﷻ ما جعل الله لأحدٍ خيراً في خلاف أمرنا»^(٣).

هذا حديث عن التفويض إلى رسول الله ﷺ، والتفويض إلى أهل البيت عليهم السلام.

البحث الثاني: النصره لدين الله وأوليائه:

فما معنى «وَتُصْرِي لَكُمْ مُعَدَّةً»؟

أهمية النصره في الإسلام:

توجد آية في القرآن الكريم هي من عجائب الآيات، تبين أن الله تعالى أخذ على كل الأنبياء السابقين عهداً أن ينصروا رسول الله ﷺ، رغم أن رسول الله في خاتم الأمم، لكن الله تعالى فرض على كل الأنبياء

(١) القلم: ٤.

(٢) الحشر: ٧.

(٣) الكافي ١: ٢٦٥/ باب التفويض إلى رسول الله ﷺ وإلى الأئمة عليهم السلام / ١.

أن ينصروا رسول الله، هذا نجده في الآية الكريمة من سورة آل عمران ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالُوا أَأَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(١)، هذا عهد أخذه الله تعالى على سائر الأنبياء؛ لأن رسول الله ﷺ هو سيدهم ونبيهم، فهو نبي عالمي، «الْخَاتِمَ لِمَا سَبَقَ وَالْفَاتِحَ لِمَا اسْتَقْبَلَ وَالْمُهَيِّمَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ».

﴿قَالَ أَأَقْرَضْنَا﴾ بنصرة خاتم الأنبياء؟

قالوا: بلى.

وأخذتم العهد على أممكم؟ ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾؟

قالوا: بلى.

﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

لكن هذه النصرة مرة نتعامل معها على أساس النصرة الشكلية، ومرة أخرى النصرة الحقيقية، يعني أن الله تعالى يطلب من إبراهيم عليه السلام أن ينصر نبينا، والمطلوب من نوح عليه السلام أن ينصر نبينا، فكيف ينصره؟ المطلوب هو النصرة الحقيقية، وليس النصرة الشكلية.

من أجل تحقيق النصرة يجب أن تكون:

أولاً: مستعداً لقبول هذه الحقيقة، أن يأتي بعدك نبي هو أشرف منك وهو سيد الأنبياء، فيجب أن تكون لديك حالة الخضوع.
ثانياً: أن يبلغ أتمته.

ثالثاً: أن يكتب ذلك في وصاياه لمن يأتي من البشرية والتاريخ،

وبالفعل فإن كل الأنبياء أوصوا بنبيّنا، ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(١)، هذه هي النصره.

في الزيارة حينما تقول: «نُصْرَتِي لَكُمْ مُعَدَّةٌ»، يعني: يا أبناء رسول الله، إن نصرتي لكم معدة.

أولاً: «قَلْبِي لَكُمْ مُسَلِّمٌ».

ثانياً: «رَأْيِي لَكُمْ تَبِعٌ».

ثالثاً: «نُصْرَتِي لَكُمْ مُعَدَّةٌ».

بعض الناس يتصور أن «نُصْرَتِي لَكُمْ مُعَدَّةٌ» أن يضع بندقيّة مثلاً في البيت، حتّى إذا ظهر صاحب الزمان يكون مستعداً ببندقيته، بعضهم مع الأسف هكذا يكتب في كتبه استناداً إلى رواية تقول: «ليعدن أحدكم لخروج القائم ولو سهماً»^(٢)، ولكن هذه الرواية غير قابلة للتصديق؛ لأن المطلوب هو النصره الحقيقية وليس النصره الشكلية.

اقرأ لكم رواية تبين كيفية التعاطي مع أهل البيت عليهم السلام.

الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يقول: «من لم يقدر أن يزورنا فليزر صالحي موالينا، يُكتب له ثواب زيارتنا، ومن لم يقدر على صلتنا فليصل صالحي موالينا، يُكتب له ثواب صلتنا»^(٣).

«نُصْرَتِي لَكُمْ مُعَدَّةٌ»، يعني بالفعل على أرض الواقع أنت تباشر عملية الانتصار لأهل البيت عليهم السلام.

هذا هو الفرق بين الانتصار الشكلي والانتصار الحقيقي.

(١) الصف: ٦.

(٢) غيبة النعماني: ٣٣٥/باب ٢١/١٠.

(٣) كامل الزيارات: ٥٢٨/باب ١٠٥ فضل زيارة المؤمنين..

عصر الظهور:

هناك سؤال أطرحه، وهو هل نحن الآن نقرب من عصر الظهور، أم نحن الآن بعيدون من عصر الظهور؟
الجواب: هناك نظريتان:

النظرية الأولى تقول: نحن الآن بعيدون عن عصر الظهور، بدليل أن الإمام صاحب الزمان عليه السلام (لا يظهر حتى تملأ الأرض ظلماً وجوراً)، والآن الأرض غير مملوءة ظلماً وجوراً، حيث يوجد مجال للتحرك من أجل الدين والحرية، إذن لا يظهر صاحب الزمان حتى تقطع كل الآمال، وحتى تغلق كل النوافذ، وحتى تُسدّ علينا كل الأبواب نحن المسلمون، وحينئذٍ ننتظر صاحب الزمان عليه السلام.

الآن توجد دولة إسلامية في إيران، وانتخابات حرة في العراق، فأنتم جداً بعيدون عن ظهوره عليه السلام.

النظرية الثانية تقول: وفقاً للقوانين القرآنية، ووفقاً للأدلة الثابتة في الروايات، نحن يوماً بعد يوم نقرب من ظهوره عليه السلام، وذلك لعدة أدلة:

الدليل الأول: أن ظهوره عليه السلام يكون على أساس قرآني، على أساس ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١)، ومتى ما أصبحت الأمة صالحة، إذن أصبحنا نقرب من ظهوره عليه السلام، والأمة إذا أصبحت غير صالحة، إذن هؤلاء لا يستحقون ظهور المعصوم، إنما يظهر المعصوم حسب استحقاقات الأمة، فمتى ما ازداد الاستحقاق اقتربنا من عصر الظهور، واليوم بحمد الله أصبحنا نشهد عملية التغيير، فنحن في بدايات عملية التغيير، وتوفير المؤهلات لظهوره.

الدليل الثاني: الرواية تقول: «ما يحبسنا عنهم إلا ما يتصل بنا مما نكرهه ولا نؤثره من أعمالهم»^(١)، هذا قول الإمام المنتظر عليه السلام. فإذا صلحت الأعمال اقتربنا من الظهور.

الدليل الثالث: الروايات تقول أنه قبل الظهور ستشكل دولة الممهدين الموطئين لدولة المهدي^(٢). أي يوجد قبل ظهور المهدي دولة إسلامية.

أين هذه الدولة الإسلامية؟ ما هو المقصود؟ هل الآن أم بعد مائة سنة؟ على كل الأحوال فإن هذه الروايات تجعل انتصارات العالم الإسلامي علامة من علامات الظهور، ولا نشك أننا في عصرنا هذا نشهد انتصاراً للعالم الإسلامي قياساً إلى ما كان عليه الحال سابقاً.

أما نظرية الانتظار والانسحاب إلى أن تملأ الأرض ظلماً وجوراً، فالصحيح أننا يجب أن نتعامل مع هذا النص بشكل آخر، تملأ الأرض ظُلماً، فهذا لا ينافي أن توجد انتصارات وتطور في الواقع الإسلامي.

اقرأ لكم هذه الرواية: أبو عبد الله محمد بن يوسف الشافعي في كتاب (كفاية الطالب) يقول: (أنا شافعي وجمعت هذا الكتاب وعريته من طرق الشيعة، — يعني حذفت كل الروايات التي تخص الشيعة — ليكون الاحتجاج به أكداً)، يقول في الباب الخامس هذه الرواية وهي متفق عليها عن رسول الله ﷺ: «يخرج أناس من المشرق فيوطنون للمهدي سلطانه»^(٣).

(١) تهذيب الأحكام ١: ٤٠؛ الاحتجاج ٢: ٣٢٥.

(٢) قوله ﷺ: «يخرج قوم من قبل المشرق فيوطنون للمهدي سلطانه»، وفي رواية: «وعلى مقدمتهم رجل يقال له شعيب بن صالح، يهزمون أصحاب السفيناني، حتى تنزل بيت المقدس توطى للمهدي سلطانه». راجع: الملاحم والفتن: ١١٨/ ١١٠؛ كثر العمال ١٤: ٢٦٣.

(٣) عنه: كشف الغمة ٣: ٢٧٦؛ بحار الأنوار ٥١: ٨٧.

إذن قبل خروج المهدي عليه السلام توجد هناك استعدادات على شكل دولة، أو مجتمع حرّ، أو على شكل تيار جماهيري قوي لصاحب الأمر عليه السلام.
هنا الراوي يقول: هذا الحديث صحيح روته الثقات، وأخرجه (الحافظ بن ماجة) في سنّنه.

نحن الآن بحمد الله نقرب من عصر الظهور، ولسنا مبتعدين عن عصر الظهور، بدليل هذه الأدلة التي ذكرتها لكم.
«وَتُصَرِّي لَكُمْ مُعَدَّةً».

هذه النصرة الحقيقيّة وجدّها الإمام الحسين عليه السلام في أصحابه، ولهذا قال: «إني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني خيراً»^(١).
لأنه رأى منهم النصرة الحقيقيّة.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة الثامنة والستون:

الاستقلال أو التبعية الفكرية

«وَرَأَيْتُ لَكُمْ تَبَعًا»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث في هذه الليلة عن هذا المقطع من الزيارة: «وَقَلْبِي لَكُمْ مُسَلِّمٌ وَرَأْيِي لَكُمْ تَبِعٌ وَتَضَرَّتِي لَكُمْ مُعَدَّةٌ»، هنا رأي، وقلب، ونصرة، يعني: عاطفة، واعتقاد، وموقف عملي.

نحن معهم ﷺ في القلب، مسلمون تسليماً، «وَقَلْبِي لَكُمْ مُسَلِّمٌ». ونحن أتباع لهم في الرأي والاعتقاد، «وَرَأْيِي لَكُمْ تَبِعٌ». ونحن أنصار لهم في الموقف العملي والسياسي، «وَتَضَرَّتِي لَكُمْ مُعَدَّةٌ».

الاستقلال الفكري:

الحديث هذه الليلة عن هذا المقطع، «وَرَأْيِي لَكُمْ تَبِعٌ»، هل نعتقد بالاستقلال الفكري، أو نؤمن بالتبعية الفكرية؟

هذا البحث نجعله تحت إطار: (العقل بين الإسلام والليبرالية).

في ذلك الزمان كان يقال: الإسلام والجاهلية، في هذا الزمان مصطلحات جديدة، مثل: ليبرالية، اشتراكية، ديمقراطية، السياسة، وما شاكل ذلك.

العقل والقدرة الفكرية لدى الإنسان بين رؤية الإسلام وبين رؤية الليبرالية الحديثة.

اليوم الحضارة الغربية تعتمد على دعامتين:

دعامة اسمها الليبرالية، وهي الأساس الفكري.

ودعامة أخرى اسمها الديمقراطية، وهي الأساس السياسي للنظرية الغربية.

الليبرالية بمعنى الحرية المطلقة في التفكير.

الديمقراطية بمعنى الحرية المطلقة في العمل.

وبما أن الحديث عن الفكر والعقل «وَرَأَيْتُ لَكُمْ تَبَعًا»، إذن سنجعل هذا المقطع مدخلاً ومفتاحاً للحديث عن المقارنة بين الإسلام والليبرالية في مسألة اعتماد العقل.

الإسلام يؤمن إيماناً قوياً متميزاً بالعقل، الليبرالية أيضاً تؤمن بالعقل، لكن نحن من دعاة النظرية الإسلامية، ولسنا من دعاة النظرية الليبرالية، ولا نقبل بتأسيس المجتمع على أساس الليبرالية، وسوف نشرح ذلك جيداً.

ماذا تقول الليبرالية؟

أولاً: الليبرالية ماذا تقول؟

الليبرالية تقول: إن الإنسان في حياته الاجتماعية وفي تشريعاته المدنية يجب أن يعتمد على تجاربه العلمية فقط، كما أن الإنسان في الطب والهندسة يعتمد على تجاربه العلمية، وهكذا في التشريعات المدنية والاقتصاد، الاجتماع، الأسرة، وما شاكل ذلك.

ما يتوصل إليه علمياً هو الصحيح، دون استناد إلى شيء اسمه الوحي واسمه الدين، لا يوجد مصدر أعلى من الإنسان للتشريع، فالحرام والحلال هو ما أوصلت إليه التجربة العلمية والعملية، فلا مانع من أن يشرب الإنسان الخمر، ولا مانع اقتصادياً من الربا، وهكذا حسب التجربة العملية للإنسان، دون تلقي من الوحي، هذا هو معنى الليبرالية.

في الاعتقادات الفكرية أيضاً نحن أحرار، شئت أن تؤمن بالله

والمعاد والأنبياء لك ذلك، وإن شئت أن لا تؤمن لك ذلك أيضاً، حسبما توصلت إليه تجاربك العلمية، هذا هو معنى الليبرالية، اعتماداً على الثقة بالعقل.

الليبرالية هكذا تقول: إننا نشق بالعقل الإنساني ثقة مطلقة، ولا نفرض على العقل أفكاراً وتشريعات آتية من مكان آخر، سواءً من مجتمع آخر، من إنسان آخر، من وحي، من عالم السماء، لا معنى لأن نفرض على الإنسان تشريعات ونظريات أخرى من خارج تجاربه العقلية. ولهذا فإن الليبرالية تمارس حرية مطلقة في المأكولات، في الملابس، في الحياة الاجتماعية، في التقاليد، ما شئت فاصنع، وما شئت فاعتقد، اعتماداً على ما يسمونه بـ (أصالة العقل).

أصالة العقل:

عنوان جميل: أصالة العقل، والثقة بالعقل.

الإسلام ماذا يقول؟

نحن نجد أن الإسلام أكثر ثقة بالعقل، وأشدّ التزاماً بنظرية أصالة العقل. في الوقت الذي كان العقل مطوقاً وأسير التقاليد والجاهلية والسحرة والكهنة والمنجمين نجد أن الإسلام وضع العقل أول موضع في الوجود، وليس فقط في العالم البشري.

الإسلام قبل ألف وأربعمائة سنة حيث لم تكن هناك حضارة، مع ذلك جاء الإسلام ليقول: «إِنَّ اللَّهَ َعَلَّمَ لَمَّا _ وفي رواية: أول ما خلق _ العقل، ثم قال له: أقبِلْ فأقبِل، ثم قال له: أدبِرْ فأدبِر، فقال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك، ولا أكملتك إلا فيما أحب،

أما إني إياك آمر، وإياك أنهي، وإياك أعاقب، وإياك أثيب^(١)، هذه هي منزلة العقل في الإسلام.

العقل في الإسلام أول مصدر من مصادر التشريع.
يقول علماء الإسلام: إن أدلة التشريع أربعة: الدليل الأول: العقل، الدليل الثاني: القرآن، الدليل الثالث: السُّنة _ يعني سُنَّة النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام _ والدليل الرابع: الإجماع _ يعني ما يتفق عليه الفقهاء بنحو إجماعي _ ويرون أن ذلك هو موقف الشريعة.

لاحظوا: أول دليل من الأدلة الشرعية في الإسلام هو العقل، ولدينا قاعدة تقول: (ما حَكَم به العقل فقد حَكَم به الشرع)^(٢)، هناك ترابط، هناك تآخي بين العقل والشرع، يعني ليس بالضرورة أن تجد آية قرآنية، ليس بالضرورة أن تجد رواية في حرمة السرقة أو في حرمة سيئة من السيئات المعاصرة التي لم يكن لها وجود ولا نص ولا عنوان في ذلك الزمان، مثلاً التجسس الفضائي على الشعوب، أو السيطرة الفضائية على الدول، هذا لا يوجد فيه نص؛ لأن هذه أمور مستحدثة، أو مثلاً الجمرة الخبيثة التي انتشرت في هذا الزمان، يومئذ لا يوجد جمرة خبيثة، وأنت لا تجد نصاً في القرآن والسُّنة على أن استخدام الجمرة الخبيثة وإرسالها في ظروف بريدية للآخرين، هذا جائز أو غير جائز، لا تجد مثل هذا، لكن الإسلام يقول: (ما حَكَم به العقل حَكَم به الشرع)، إذا كان هذا عدوان واعتداء وخطر على الآخرين فهو حرام، سواء وجدت نصاً أو ما وجدت نصاً.

لاحظوا اهتمام الإسلام بالعقل، إذن حينما نتحدث عن أصالة

(١) الكافي ١: ١٠ / باب العقل والجهل / ١؛ بحار الأنوار ١: ٩٧.

(٢) أي مما يحكم العقل به من غير اعتماد على حكم شرعي، وهو ما اشتهر بين الفقهاء والأصوليين. راجع: أصول الفقه للمظفر ٢: ٢٦٣.

العقل، فالإسلام يقول بأصالة العقل، بل الإسلام أكثر من هذا، يقول: إن أول ما خلق الله وأعز ما خلق الله وأحب ما خلق الله هو العقل.

إذن، أين الفرق بين الإسلام وبين الليبرالية؟

لماذا أصبح الإسلام يقول إنه إلى جانب العقل لا بد أن يوجد كتاب سماوي؟

الليبرالية تقول: نحن لا نحتاج إلى كتاب وسنة، لا إلى نبي، ولا إلى وصي، عندنا عقول نسير عليها.

ما هو الفرق بين الإسلام وبين الليبرالية التي هي تبشير غربي حديث في هذا الزمان، ويراد بناء العالم على أساسه؟

اليوم هناك نظرية مطروحة، هي عبارة عن إعادة بناء العالم على صياغات جديدة ومقاسات جديدة، يعني اليوم الولايات المتحدة الأمريكية تطرح نظرية أن كل العالم يجب أن يبنى على مقاسات جديدة، هذا ثوب وتفصال أمريكي يجب أن يلبسه كل البشر فكرياً، أخلاقياً، مطعماً ومشرباً، إعادة بناء العالم.

متى بدأت الولايات المتحدة تتحدث بهذه اللغة؟ بعد سقوط نظرية القطبين وهزيمة الاتحاد السوفيتي جاءت نظرية هيمنة القطب الواحد، إذن العالم يجب أن يُدار من قِبل قطب واحد، يعني قبل حوالي عشرين سنة كان هناك قطبان قويان يهيمنان على العالم في الشرق والغرب، أمريكا والاتحاد السوفيتي، ويوزعون العالم إلى نصفين؛ دول تنتمي إلى المعسكر الغربي، ودول تنتمي إلى المعسكر الشرقي، دول صغيرة، هذا يرتمي في حضن المعسكر الشرقي، وذاك يرتمي في حضن المعسكر الغربي، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي طُرحت نظرية جديدة هي

نظرية هيمنة القطب الواحد، ثم إعادة بناء العالم على أساس نظرية القطب الواحد.

نحن الآن نعيش في هذه المرحلة، إعادة ترتيب الهيكل للعالم، والليبرالية هي أحد الملابس التي نسجتها معامل الأنسجة الغربية، الليبرالية هي عبارة عن الرسالة الغربية للعالم، الليبرالية ثم الديمقراطية.

وكما نحن نقول إن الإسلام هو رسالة الله للخلق، اليوم الغرب - الولايات المتحدة - بالخصوص في معامل النسيج الفكري نسجت نظرية اسمها الليبرالية في المجال الفكري، واسمها الديمقراطية في المجال السياسي والاجتماعي، وقالت: أيها الشعوب جميعاً بسوا هذه (الدشداشة) الغربية، فهي رسالة الغرب إليكم.

نحن نقول: لا، لدينا نسيج فكري آخر اسمه النظرية الإسلامية، إذن لنرى أين التقاطع بين الإسلام وبين الليبرالية؟ مع أن الليبرالية تقول: أنا أؤمن بالعقل وبحرية التفكير، الإسلام أيضاً يقول: أنا أؤمن بالعقل وحرية التفكير، بل الإسلام متقدم ألف وأربعمائة سنة في مجال الأصالة الفكرية، في مجال الاستقلال الفكري، في مجال الطعن بالتبعية الفكرية ونقدها ورفضها، حين عاب على المشركين قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ﴾^(١)، واعتبر ذلك هو منطق الكفر والكافرين.

الإسلام جاء لكي يقول للإنسان: أنت حرٌّ فكرياً، لماذا تكون تبعياً؟ إذا أين نقطة الفرق بين الإسلام والليبرالية؟ هذا أيضاً بحثٌ واسعٌ، نحن نوجز القول فيه.

الفرق بين الإسلام والليبرالية:

الإسلام يقول:

أولاً: إن العقل له موقع متميز، لكن هناك مساحات لا يصلها العقل

البشري.

ثانياً: هناك مساحات يختلف فيها أبناء العقل البشري، في تلك المساحات الأولى التي لا يصل إليها العقل البشري، وفي المساحات الثانية التي يختلف فيها العقل البشري ما هو الموقف؟

الإسلام يقول: الموقف هو اعتماد مصدر آخر للمعرفة اسمه الوحي، هذه مساحات غير مرئية للعقل البشري، ولا بد أن نعتمد فيها مصادر أخرى للمعرفة.

مساحات الفضاء الواسعة والمجرات الكونية الواسعة أو الكائنات المجهرية الصغيرة جداً هذه غير مرئية للنظر المجرد، إذاً لا بد أن نستعين بمصادر رؤية أخرى اسمها (تلسكوب)، أو (المجهر) وهو عبارة عن أداة نظر تساعد العين المجردة، إذا كانت العين في بعض المساحات ليست قادرة على أن تصل فأنت تستخدم المجهر، هذا لا يعني أن استخدام المجهر هو تجاوز وإهمال للعين، هذا عنصر مساعد وإسناد لحركة العين، لكن يبقى الأصل هو العين، وأنت من خلال المجهر تنظر بعينك الكائنات البعيدة أو الكائنات الصغيرة.

الإسلام يعتقد أن هناك مساحات لا يصل إليها العقل البشري، ومساحات يختلف فيها العقل البشري، إذن ماذا نصنع؟ لا بد من مجهر، والمجهر هو عبارة عن الوحي الذي يكشف لنا المجهول، لا بد من (مسبار) فضائي يكشف تلك المساحات اسمه الوحي، الروح الأمين،

جبرئيل، آيات الله، الكتاب المبين، إسناداً لحركة العقل، وليس غلقاً للعقل.

الفرق بين الإسلام وبين التبعية الفكرية والتحجر الفكري أن أولئك يغلقون عدسة العقل، الإسلام يقول: لا، افتحوا عدسة العقل، لكن أسندوه بأدوات معروفة أخرى، الإسلام يُسمّيها (الوحي)، وهو إسناد إلهي لحركة العقل الإنساني، هذا ليس تبعية فكرية، بل تماماً هو اعتماد العقل وإسناد حركة العقل، والوحي لا يتنافى مع العقل، إن جميع الروايات والنصوص الدينية يجب أن تُعرض على العقل، فإذا العقل لم يقبلها فإنها تسقط من الاعتبار، أو تنتقل إلى مرحلة التأويل، كل علمائنا يقولون: إن الآية القرآنية التي تقول: ﴿وَجُودُ يُؤْمِزُ نَاصِرَةً﴾ * إلى ربّها نَاطِرَةٌ^(١)، يقولون حيث كان العقل يرى أن رؤية الله مستحيلة، إذن لا بدّ أن نؤوّل الآية القرآنية على أساس الرؤية العقلية.

إذن، هناك مساحات لا يصل إليها العقل، وهناك مساحات يختلف عليها العقلاء.

الدائرة الأولى:

المساحة التي لا يصل إليها العقل هي عالم الغيب، عالم ما وراء الشهادة، ما وراء الدنيا، عالم البرزخ، الملائكة، الجنة، النار، الصراط، الحساب، عالم الغيب، لا يصله العقل البشري. نعم، إذا ارتفعنا من العقل البشري الاعتيادي إلى العقل الكامل لدى الأنبياء فأولئك يكتشفون من خلال النور الإلهي والإسناد الإلهي، لكن العقل البشري لو درس مئات السنين فإنه ليس قادراً على أن يعرف

ماذا يوجد في الجنة، وماذا يوجد في النار، وفي عرصات القيامة كيف تكون، وأين تكون، وكم طولها، وكم عرضها؟ ليس قادراً على معرفة تلك المساحات، هذه قضية لا يختلفون فيها معنا، فإذا لم نكن قادرين إذن اعتمدوا على مجاهر وأدوات معرفية أخرى اسمها الوحي، والوحي يكشف لنا تلك المساحات.

الدائرة الثانية:

هي المساحة التي يختلف فيها العقلاء، العقلاء يختلفون في التشريعات البشرية، في النظام الاقتصادي، في النظام الاجتماعي، لحد الآن البشرية مختلفة في أنظمتها الاقتصادية والاجتماعية، وسوف تبقى مختلفة إلى الأخير، نظريات في القضايا الأخلاقية، في القضايا الأسرية ومجتمع الأمومة، مجتمع الأبوة، مجتمع التحلل، مجتمع التزاوج، مدارس مختلطة، مدارس غير مختلطة، القطاع الخاص، والقطاع العام، والقطاع المشترك، وهكذا هذه قضايا تشريعية، العالم يختلف فيها، علماء اقتصاد، وعلماء سياسة، هؤلاء يعتقدون بهذه النظرية، وأولئك يعتقدون بتلك النظرية.

هنا الإسلام يقول: أيها العباد، أنا أعطيكم نظرية جاهزة في المجال الذي تختلفون فيه، ولا مجال لكم أن تصلوا إلى نتيجة واحدة، لماذا؟ لأن هذه القضايا تتأثر ليس فقط بالمسألة العلمية، بل تتأثر بالمزاج، تتأثر بالمحدوديات الفكرية، الإنسان محدود في فكره، في الوقت الذي نحن بحاجة إلى حلول مطلقة كيف يُبنى مجتمع المساواة؟ كيف تكون العدالة الاجتماعية؟ الإسلام يقول: إن العقل هنا غير قادر على اكتشاف الموقف التشريعي المطلق، ولهذا أنا أسندكم بالوحي، وهذا لا يتنافى مع قدرة الإنسان على التمدن، فهذه قضايا غير مسألة التمدن الحضاري.

لاحظوا مثلاً كتبت إحدى الصحف أن امرأة استرالية في أمريكا

عمرها (٤٤) عاماً اسمها _ ليندا بروس _ مقيمة في أمريكا توفي زوجها، هناك لهم تقليد في بعض المذاهب أن يحرقوا بدن الميت بسعرات حرارية عالية ويحولوه إلى رماد، فيدخلون جثة الميت في أفران ذات ضغط حراري عالي، بحيث ينتهي اللحم والشحم والعظام ويتحول إلى قطعة رماد، ثم يوضع هذا الرماد في زجاجة صغيرة ويُعطى لأهله، هناك في الغرب موجود هذا التقليد وهذه الممارسة، حيث يضعون هذا الرماد في علبة صغيرة ثم يضعونه على رف من الرفوف.

جيد، هذه المرأة اكتشفت كشفاً جديداً، هذه ثرية وكانت تحب زوجها، فعمدت إلى شركة أمريكية حولت خلال عدة شهور وخلال عمليات تصنيع وتجميل وتركيب حولت هذا الرماد خلال ستة أشهر وعبر آلاف الدولارات إلى ألماسة تلبسها هذه المرأة كخاتم في إصبعها.

جيد، هذا في الحقيقة ليس علماً ولا عقلاً، بل هذه قضية ذوقية، الإسلام هنا له رأي آخر، الإسلام يقول: إن تكريم الميت ليس بهذا الشكل، العلاقة مع الميت ليست بهذا الشكل، أساساً كيف تصل إلى الميت؟ عبر قراءة القرآن، عبر الدعاء، الصلاة تصل إليه وتهديه ثوابها وتنفعه، وليس عبر إحراق بدنه في أفران ذات ضغط حراري عالي جداً ثم تحويله إلى خاتم في إصبع زوجته.

هذه المساحات العقل ليس قادراً على أن يكتشفها، إذن كيف نرتبط بها؟ الإسلام ومن خلال الوحي هو الذي يشرح لنا الموقف.

يوجد شيء اسمه تقدّم مدني، نحن نعتقد أن الغرب لديه تقدّم مدني في التصنيع، في الزراعة، في الفضاء، لكن هل الغرب لديه تقدّم

ثقافي وفكري في المجال التشريعي والاجتماعي على الإسلام؟ الجواب: لا، المصنع استطاع أن يحوّل الرماد إلى ألماسة بمبلغ (١٢) ألف دولار، وهذا قد نسميه على مستوى التصنيع تقدماً، لكن هل هذا تقدّم أخلاقي وثقافي وفكري؟ الصحيح أن الغرب _ بخلاف ما يدّعي _ لا يملك هذا التقدّم الفكري بحيث يصل إلى مستوى الهيمنة على العالم فكرياً، وليس فقط الهيمنة سياسياً وعسكرياً.

لاحظوا، يوجد شيء اسمه الهيمنة العسكرية، يقولون نحن متقدمون عليكم عسكرياً، الفضاء بيدنا، كل شيء بيدنا، نحن متقدمون عليكم سياسياً، متقدمون عليكم إعلامياً، نغزوكم سياسياً وإعلامياً وفضائياً، لكن هل الغرب متقدّم فكرياً وثقافياً؟ لا، الآن الغرب يعيش تراجعاً حقيقياً في المجال الفكري والثقافي، هناك اختلال فكري في الغرب.

كنت أقرأ في بعض التقارير أن ثلاثة عشر مليون إنسان سنوياً في فرنسا يراجع المنجمين، الذين هم عبارة عن قراء الكف والفنجان وما شابه ذلك، هذه فرنسا أم الحضارات، لكنهم فقراء في البعد الثقافي، يحاولون أن يكتشفوا ما وراء هذه الحياة، لكن عن طريق الكف والفنجان وليس عن طريق الوحي والنبؤات.

فرعون كانت مشكلته هذه أيضاً، كان يدّعي الهيمنة الفكرية وليس فقط السياسية، حين قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾^(١)، وحينما يقول: ﴿يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ

مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ كَاذِبًا»^(١)، يعني حتّى الهيمنة الفكرية يريد أن يفرضها من خلال أدواته التجريبية دون وحي، من خلال بناء عمارة عليا، ولهذا قال فرعون: ﴿إِنِّي لِرِيِّ صَرَّاحٌ﴾.

الإسلام يقول هناك مساحات لا يمكن للعقل أن يكتشفها، وهي مساحات الغيب، والإنسان يحتاج إلى وحي لاكتشاف تلك المساحات.

وهناك المساحات التي يختلف فيها الإنسان نفسه، وهي المساحات التشريعية، ولهذا يحتاج إلى إسناد بالوحي، وهذا هو جوهر الفرق بين الإسلام والليبرالية.

إن المصدر الأصل للمعرفة هو العقل، ولكن المصدر الإسنادي للعقل هو الوحي، هذا مصدر إسناد وليس مصدر تجميد للعقل.

على هذا الأساس الإسلام يعتقد أن المجتمع يجب أن يُبنى على أساس النتائج العلمية، وعلى أساس معطيات الوحي (الكتاب والسنة)، ولهذا أصبح لدينا في مصدر التشريع عقل وكتاب وسنة، والإجماع هو عبارة عن واسطة لاكتشاف الكتاب والسنة وليس دليلاً رابعاً مستقلاً.

ما هو الوحي؟

الوحي عبارة عن مصدر معرفة من خلال الإيحاء لقلب الإنسان، إما إيحاءً مباشراً، أو غير مباشر.

المباشر حين يشعر النبي في قلبه بحدث، يشعر بنور، يشعر برؤية معينة، وربما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ

يَشَاءُ»^(١)، وكما في قصّة آدم في قوله: «فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ»^(٢)، فقد كان هذا التلقي مباشراً وليس من خلال الملائكة كما يظهر، هذا هو الشكل الأول، أو من خلال الملائكة، الوحي الأمين ينزل عليه ويخبره بالموقف، «أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا»^(٣).

والشكل الثاني: أن يسمع صوتاً، كما سمع موسى ﷺ صوتاً من وراء الشجرة، ولهذا أصبح موسى يُلقَّب بالكليم، «يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»^(٤)، هذا الصوت من الشجرة وما حولها، وهذا ما عبّر عنه القرآن: «مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ»، وهذا هو الشكل الثاني.

وقد أشار القرآن إلى هذه الأشكال الثلاثة بقوله: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا»^(٥).

قُدسية النص الشرعي:

في ضوء هذه النظرية الإسلامية تجاه العلاقة بين الوحي والعقل يكون للنص الشرعي قُدسية خاصة بحيث لا يجوز الخروج عليه؛ لأنه يمثل الوحي. رغم ذلك فقد ظهرت في التاريخ الإسلامي ما يمكن أن نُسَمِّيها بمدرسة (الاجتهاد في مقابل النص)، هذا العمل لا نعتقد بشرعيته.

نعم، هناك شيء هو (الاجتهاد في فقه النص)، بمعنى دراسة النص، وهذا نعتقد بجوازه، كما يجوز الاجتهاد فيما لا نص فيه، بمعنى

(١) غافر: ١٥.

(٢) البقرة: ٣٧.

(٣) الشورى: ٥١.

(٤) القصص: ٣٠.

(٥) الشورى: ٥١.

الرجوع إلى النصوص الشرعية العامة فيما لا يوجد نص خاص فيه. هذا نعتقد بصحته، معنى هذا أن هناك ثلاثة مستويات من الاجتهاد:

١ _ اجتهاد مقابل النص: وهذا هو ما تدعوله الليبرالية بالاصطلاح الحديث، الإسلام يقول مثلاً: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾^(١)، ويأتي بعض رجال القانون الوضعي ويقول: القصاص عمل وحشي نرفضه، هذا هو اجتهاد في مقابل النص.

٢ _ اجتهاد في فهم النص: يعني دراسة النص، حيث إن النصوص يجب أن تخضع للدراسة على طول الزمان، وعمل المجتهدين هو أن يدرسوا النص، وهذا الشيء لا بد منه، وهذا هو أحد امتيازات مذهب الشيعة، أنهم يعتقدون بفتح باب الاجتهاد، بمعنى أنه لا بد من دراسة النص، ومن حق الفقيه العالم أن يدرس النص ويطبّقه على المستجدات الحديثة، وليس بالضرورة أن يرجع الناس إلى أبي حنيفة أو إلى مالك أو إلى أحمد بن حنبل أو الشافعي.

إن سبب (إغلاق باب الاجتهاد) هو مذهب السُّنة، حين أغلقوا باب الاجتهاد من سنة (٦٤٥هـ) على يد المنتصر العباسي الذي سمح فقط للمذاهب الأربعة أن تنتشر في كل العالم الإسلامي، ولم يسمح بظهور مذهب خامس، ولكن علماء السُّنة اليوم يعتزّون بالموقف الشيعي، حيث يرون أن موقف الشيعة أكثر نضجاً منهم، وبدأوا الآن يدعون إلى مواكبة حركة الشيعة، والأزهر الآن يعتبر أن الحوزات الشيعية متقدمة عليه.

نحن نعتقد أن النص الموجود في القرآن والنص الموجود عن

النبي ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام يجب أن يخضع إلى دراسة ونقد ومعرفة ما قبله وما بعده من القرائن المقالية والحالية، وصدر الآية وذيل الآية، وصدر السورة وذيل السورة، ومن خلال ذلك يجب أن تتكون الرؤية، هذا هو معنى فتح باب الاجتهاد.

٣_ وهناك صورة ثالثة للاجتهاد الصحيح، وهو فيما إذا واجهنا مسألة جديدة لم نعر على نص شرعي فيها، فإن الفقهاء هنا يقومون بالرجوع إلى القواعد الفقهية العامة، ومن خلال النصوص العامة يكتشفون الموقف في هذه المسألة الخاصة. هذا الاجتهاد هو أمر صحيح أيضاً.

تقدم الغرب:

الغرب له تقدم علينا بلا شك، لكن هذا تقدم مدني، وليس تقدماً ثقافياً وفكرياً، بالفعل الغرب متقدم علينا مدنياً ومادياً وطبيعياً وكيمياوياً وعسكرياً، لكن ليس متقدماً علينا في عالم الفكر والثقافة. أنا أحدثكم عن صورة من التمدن الحديث، لكنكم تجدون أن هذا التمدن الحديث يبقى غير قادر على حل مشكلات الإنسان.

العالم اليوم يعاني من الإرهاب، يعاني من الدمار، أين العلم الحديث؟ هل هناك تقدم في هذا المجال؟ بينما الإسلام بسط الأرض بالعدالة قبل مئات السنين حيث لا يوجد إرهاب.

العالم اليوم يتحدث ويكتشف موجودات لا يمكن رؤيتها حتى بالمجهر تسمى (دون المجهرية)، ويقوم العلماء بمواجهتها ومكافحتها. يمكن أن نذكر مثلاً لذلك ما انتشر في هذه السنوات الأخرى وعرف بمرض (أنفلونزا الطيور).

اليوم تتحدّث الأخبار _ عالمياً طبعاً _ عن انتشار (أنفلونزا) جديدة يُسمّوها (أنفلونزا الطيور)، وبدأت المراكز الصحيّة تتنبأ أنه ربّما في العام القادم سيصاب مليار إنسان بأنفلونزا الطيور، هذه (الأنفلونزا) تصل إلى مستوى قاتل مثلما صار قبل أكثر من عشر سنوات مرض اسمه (جنون البقر) أصاب اللحوم، وهذه اللحوم إذا أكلها الإنسان يُصاب بجنون البقر أيضاً.

لقد بدأت لجان لمكافحة هذا المرض، وهذا المرض يهدد مليوني إلى سبع ملايين إنسان خلال العام الآتي.
هذه الأنفلونزا هي عبارة عن فيروس يصيب الطيور، ويمكن أن ينتقل من الطيور إلى الإنسان.

لمحة عن الفيروس:

الفيروس ما هو؟

الفيروس عبارة عن جسيمات صغيرة دون المجهرية لا تُرى حتّى بالمجهر، هذه الجسيمات الصغيرة التي هي أصغر من الخلايا يبلغ قطرها واحد من عشرة مليون من المتر.

الكائنات الحيّة، كل الكائنات الحيّة، يعني أنا وأنت والنباتات والحيوانات هذه الكائنات الحيّة تتقوّم بخليّة، وهي أصغر جزء في الكائن الحي، عندما يتجمع مليارات منها يكوّن كائناً حياً، هذا الجزء والوحدة التركيبيّة للكائن الحي يُسمّونه خلية.

الإنسان يتركب من خلايا، الوردة تتركب من خلايا، الورقة تتركب من مليارات الخلايا، هذه الخلية هي الجُسيمة الأولى في الكائن

الحي، حتى البكتريا التي لا ترى بالعين يسمونها كائنات مجهرية، هذه البكتريا أيضاً فيها خلية الكائن الحي.

إن الكائنات الحية جميعاً لها ثمان خصوصيات:
الخصوصية الأولى: التنفس من أجل تكون الطاقة.
الخصوصية الثانية: النمو.

الخصوصية الثالثة: التكيف مع الطبيعة.
الخصوصية الرابعة: النظام المعقد في التركيب الذي يولد الحياة.
الخصوصية الخامسة: الإفراز والفضلات.
الخصوصية السادسة: التوالد والتكاثر.

الخصوصية السابعة: الدفاع عن نفسها من خلال الإحساس.
الخصوصية الثامنة: كل الكائنات الحية تتركب من خلايا.

هذه مجموعة خصوصيات، ولكن العلم الحديث اكتشف شيئاً آخراً هو ليس خلية، بل هو دون الخلية، وأصغر من الخلية، ولا يتمتع بمواصفات الكائن الحي، لكن هذا موجود عجيب، فهو إذا دخل في الكائن الحي يصبح حياً ويقتل الحي واسمه (الفيروس)، إذن الفيروس هو جسيمة صغيرة حجمها حوالي واحد من عشرة آلاف من السنتيمتر، والسنتيمتر هو عبارة عن واحد من مائة من المتر، وعندنا (مانومتر) وهو عبارة عن واحد من عشرة آلاف من المتر، أما هذا الفيروس فهو واحد من عشرة ملايين من المتر، ولهذا فهو لا يرى بالمجهر، وأيضاً هذا الفيروس لا يتمتع بالحياة مثل الكائن الحي، لكن يأتي هذا الفيروس العجيب ويدخل الخلية، وإذا دخل في داخلها يبدأ يتوالد ويتكاثر ويتنفس، ويكون عنده إفراز فيبدأ يقتل الخلايا، ويبدأ الإنسان يشكو من مرض.

إن العلم الحديث مشغول ببحث كيفية مواجهة فيروس أنفلونزا الطيور، وربما يتوصل العلم إلى معالجة هذا الفيروس، وذلك أمر ميسور، ولكن هذا كله تقدّم مدني وليس تقدماً ثقافياً فكرياً.

الإنسان اليوم معاناته الحقيقية والتي تجدون العالم يحترق فيها هي في المجال الروحي والأخلاقي والحروب المدمرة بين الشعوب، والهيمنة العالمية، هذه هي مشاكل حقيقية في الحضارة الحديثة، الحضارة الحديثة غير قادرة على حلّها.

الإسلام هنا يأتي لمعالجة المشكلات الإنسانيّة ببراعة وبقدرة فائقة.

حينئذٍ نعود إلى هذا المقطع: «وَرَأَيْي لَكُمْ تَبَعٌ».

نحن نعتقد بالاستقلال الفكري من ناحية، ولكن نحن نعتقد بالتبعية الفكرية للوحي من ناحية ثانية.

أهل البيت عليه السلام يمثلون الوحي، ولهذا نحن نعتقد بالتبعية الفكرية لهم، كما نعتقد بالتبعية الفكرية للقرآن، «اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ»^(١)، الإنسان مطلوب منه الاتّباع للحق وأهله، صحيح أن لديه استقلالاً فكرياً، لكن في المجالات التي يستطيع أن يتصرّف فيها فكرياً وليس في الدوائر الأخرى التي هو غير قادر على اكتشافها ولا قادر على أن يتناولها، في تلك الدوائر يحتاج الإنسان إلى تبعية فكرية، «وَقَلْبِي لَكُمْ مُسَلِّمٌ، وَرَأْيِي لَكُمْ تَبَعٌ، وَتُصَرِّبِي لَكُمْ مُعَدَّةً».

شهادة الإمام الصادق عليه السلام:

نحن في مثل هذه الأيام نعيش ذكرى شهادة الإمام الصادق عليه السلام.

لقد استشهد الإمام الصادق عليه السلام في الخامس والعشرين من شوال سنة

(١٤٨هـ)، حيث سَمَّه المنصور العباسي، وكان المنصور يجد أمامه جبلاً عملاقاً في الفكر يهيمن على قلوب الناس، كان يحاول أن يحاصر الإمام في المدينة المنورة، ثمّ دعاه إلى الكوفة، ثمّ إلى دمشق، كل ذلك في محاولة محاصرة الإمام، مثل ذلك كان النظام الأموي في أواخره على يد هشام بن عبد الملك، حينما استدعى الإمام إلى دمشق، وهكذا المنصور العباسي حينما استدعى الإمام إلى الكوفة من أجل محاصرة الإمام الصادق عليه السلام، ومع ذلك كان الإمام نجماً لامعاً وشمساً مضيئة انفتح على العالم بألوان العلوم، ونقل عنه المحدثون ما سارت به الركبان وذاع صيته في البلدان.

وخاف المنصور أن الإمام قد يصل به الأمر إلى كسب الناس، فاستدعاه وأغلظ له في القول واتهمه بأنه يجمع الأموال والسلاح، وقد رأى الإمام أن المنصور يتفجّر غضباً وهو مصمم على قتله بقوله: (قتلني الله إن لم أقتلك)، فقال له:

«يا أمير إن سليمان أعطي فشكر، وإن أيوب ابتلي فصبر، ويوسف ظَلِمَ فغفر، وأنت إرث منهم»^(١)، فهذا المنصور كثيراً، فأطلق سراحه.

بشّى الوسائل كان المنصور يريد أن يُطفئ نور الله، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾^(٢)، والإمام الصادق بطرق عديدة يتخلص من ذلك، إلى أن سَمَّه المنصور العباسي في مثل الخامس والعشرين من شوال.

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٥٨.

(٢) التوبة: ٣٢.

١٢
المحاضرة التاسعة والستون:

الدين العالمي

هل هو الإسلام أم دين جديد؟

«حَتَّى يُخَيِّرَ اللَّهُ تَعَالَى دِينَهُ بِكُمْ»

بسم الله الرحمن الرحيم

حديثنا الليلة عن هذا المقطع من الزيارة: «حَتَّى يُخَيِّيَ اللَّهُ تَعَالَى
دِينَهُ بِكُمْ».

لدينا هنا ثلاثة بحوث:

البحث الأول: حياة الدين الإسلامي.

البحث الثاني: النبؤات القرآنية والنبوية بانتصار الدين في آخر
الزمان.

البحث الثالث: انتصار الدين في آخر الزمان، هل هي للإسلام، أم
لدين آخر؟

البحث الأول: حياة الدين الإسلامي:

في هذا البحث: ماذا تقول ثقافتنا الدينية؟ هل أن الإسلام يموت،
أم يبقى حياً؟ هل هناك تراجعات ثم تصاعد؟ ما هي المسيرة، كيف
نقرؤها في ثقافتنا؟ أنا أنقل لكم اليوم مجموعة نقاط في ثقافتنا الدينية
تجاه حياة الإسلام:

النقطة الأولى: إن الإسلام لا يموت، مرّت عليه مئات السنين،
لكنه ثابت، وهذا نقرؤه في أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ يرويها
محدثو السُّنة ويرويها كذلك محدثو الشيعة، تقول الرواية: «لا يزال هذا
الدين عزيزاً منيعاً _ أو قائماً، أو مستقيماً، أو ظاهراً _ إلى اثني عشر

خليفة، كلهم من قريش»^(١)، وما دام هؤلاء غير مكتملين، إذن هذا الدين مستمر، ونحن الآن في غيبة الإمام الثاني عشر، إذن فالدين سيبقى منيعاً عزيزاً.

هناك رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «إن فينا أهل البيت في كل خلف عدولاً، ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»^(٢).

النقطة الثانية: أن هذا الدين سيشهد بعد رسول الله ﷺ خطأ تنازلياً وتراجعياً، لكن بعدئذٍ سيشهد خطأ تصاعدياً، إن هذا الدين لا ينتهي، لكن سيصاب بضربات قوية ويتراجع، ولدينا في هذا الصدد روايات كثيرة أيضاً في صحاح السُّنة وفي كتب الشيعة، مثل تلك الرواية التي تقول:

«بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً»^(٣)، إذن نحن نعتقد أن هناك تراجعاً بدأ من القرون الماضية.

وهكذا عن رسول الله ﷺ قال: «كيف بكم إذا تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟».

قيل: يا رسول الله، إن هذا لكائن!

فقال: «نعم، وأشد منه، كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفاً، والمعروف منكراً؟»^(٤).

(١) راجع: غيبة النعماني: ١٢٠/باب ٦؛ غيبة الطوسي: ٩٦/١٣٣؛ مناقب آل أبي طالب ١:

٢٤٩؛ مسند أحمد ٥: ٨٧؛ صحيح مسلم ٦: ٤؛ سنن أبي داود ٢: ٣٠٩.

(٢) الكافي ١: ٣٢/باب صفة العلم وفضله وفضل العلماء/٢.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢١٨؛ كمال الدين: ٦٦؛ مسند أحمد ٢: ٣٨٩؛ صحيح مسلم

١: ٩٠؛ سنن الترمذي ٤: ١٢٩.

(٤) جامع أحاديث الشيعة ١٤: ٤١٣، مجمع الزوائد ٧: ٢٨٠.

قراءتنا للمسار التاريخي أن المسار التاريخي بعد الرسول ﷺ شهد تراجعاً للدين.

النقطة الثالثة: غلبة مبدأ التوحيد، على طول الخط فإن التوحيد دائماً هو الغالب في الدنيا قبل الآخرة، وهو ما نسّميه غلبة الدين التوحيدي.

يقول القرآن الكريم: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ اذْهَبِي إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾^(١)، الآية تشير إلى قرار إلهي، هذا قرار سماوي، إن الذين اتبعوك وهم أبناء الأديان التوحيدية والمسلمون أيضاً هم يتبعون السيد المسيح ﷺ، حيث نحن نعتقد أن السيد المسيح ﷺ نبي من أنبياء الله، ﴿وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾، يعني المؤمنين بالله دائماً وعلى طول الخط البشري هم فوق الكافرين الملحدين، في زماننا هذا كان الاتحاد السوفيتي مبنياً على أساس الإلحاد والشيوعية، الصين الآن من الناحية الرسمية دولة لا دينية، وهم خمس العالم من حيث التعداد البشري. لكن الغلبة السياسية لمن؟ ليست للإلحاد والكفر بالله، بل هي لاتجاه الإيمان بالله. سواء كان الإيمان بالله متمثلاً بالكنيسة أو المسجد، الإسلام أو المسيحية، الاتجاه الغالب في العالم اليوم هو الدين الإلهي، اليوم حتى رؤساء الدول الكبرى أيضاً يتحدثون باسم السيد المسيح وميلاد السيد المسيح، يتحدثون عن الله، وعن الخالق والرب، ومن غير الممكن أن يحكم هذا العالم الإلحاد إلى يوم القيامة.

النقطة الرابعة: الظهور العالمي للدين، فبعد أن يصاب العالم الإسلامي بالتراجع فإن آخر المطاف هو الظهور العالمي للدين.

وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يخرج رجلاً من ولدي - أو من أهل بيتي -، يواطى اسمه اسمي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً»^(١). نهاية العالم تاريخياً تتم بالظهور العالمي للدين، وذلك في قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَكُورَةُ الْمُشْرِكُونَ»^(٢) هذه واضحة في أن الدين الإسلامي سيظهر على كل الأديان والإسلام هو الغالب، وهذه الآية تكررت ثلاث مرات في القرآن الكريم.

جاءت في سورة التوبة، وفي سورة الصف، وجاءت في سورة الفتح: «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ»^(٣)، وهذه واضحة في أن القرآن الكريم يتنبأ بعالمية الحكم الإسلامي.

هذه أربع مفردات لفهم المسيرة الدينية.

ولعلنا نستطيع وممكن أن نضيف مفردة خامسة، وهي أن الأمة الإسلامية بعد رسول الله ﷺ سوف تختلف وتمزق، حيث قال ﷺ: «لتركن سنن من كان قبلكم حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة، حتّى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»^(٤).

(١) روضة الواعظين: ٢٦١؛ الإرشاد ٢: ٢٤٠.

(٢) التوبة: ٣٣؛ الصف: ٩.

(٣) التوبة: ٣٣؛ الفتح: ٢٨؛ الصف: ٩.

(٤) بحار الأنوار ٥١: ١٢٨.

وقال ﷺ: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة»^(١)، إن الأمة الإسلامية بعد رسول الله ﷺ سوف تختلف وتشهد تمزقات ومعارك داخلية، وهذه أيضاً نبوءة رسول الله ﷺ.

البحث الثاني: عقيدتنا في النبوءات القرآنية:

ما هي عقيدتنا في النبوءات القرآنية والنبوية؟ يعني حين يتحدث القرآن في أكثر من موضع عن تنبؤات لمستقبل البشرية، مثلاً يقول: ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾^(٢)، حيث كانت هناك معارك بين الروم وبين الفرس، والفرس غلبوا الروم، وبعدئذٍ كما قال القرآن غلب الروم الفرس. وكذلك قوله: ﴿يُظْهِرُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، حيث تنبأ القرآن بأن هذا الدين سيظهر على كل الأديان، هذا هو ما نسميه نبوءة قرآنية.

وهناك نبوءات نبوية، بمعنى أن رسول الله يتنبأ.

مثلاً تنبأ رسول الله ﷺ وقال: «ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة...»، هذه نسميها نبوءة نبوية.

ومنها روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: أن رسول الله ﷺ في صلح الحديبية حينما أرادوا أن يكتبوا صلحاً بين رسول الله ﷺ وبين قريش قال له رسول الله ﷺ: «اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله سهل بن عمرو. فقال له سهل: امح رسول الله، فإننا لا نقر لك بذلك، ولا نشهد لك به، أكتب اسمك واسم أبيك، فامتنعت من محوه فقال النبي ﷺ: امحه يا علي، وستدعى إلى مثلها

(١) رواه العامة والخاصة بألفاظ متفاوتة والمعنى واحد، راجع: الكافي ٨: ٢٢٤ / ٢٨٣؛ مسند

أحمد ٣: ١٢٠.

(٢) الروم: ٢ و٣.

فتجيب وأنت على مضض^(١)، فكان رسول الله قد تنبأ بمعركة صفين، وحينما كتبوا كتاب الصلح، وكان كاتب علي عليه السلام عبيد الله بن أبي رافع، وكاتب معاوية عمير بن عبّاد الكلبي، فكتب عبيد الله: هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان. فقال عمرو: أكتبوا اسمه واسم أبيه هو أميركم، فأما أميرنا فلا...، فقال علي عليه السلام: «الله أكبر سنة بسنة، ومثل بمثل، وإنني لكاتب يوم الحديبية»^(٢).

وكذلك رسول الله ﷺ عندما دنت منه الوفاة وأقبلت إليه الزهراء عليها السلام، فهمس في أذنها وقال: «أنت أول أهل بيتي لحوقاً بي»^(٣)، هذه نبوءة نبوية. ومثال آخر: قال رسول الله ﷺ: «ستكثر عليّ الكذابة من بعدي»^(٤).

السؤال: ما هي عقيدتنا في النبوءات القرآنية والنبوية؟

الجواب: نحن نعتقد أن النبوءات القرآنية صادقة، والنبوءات النبوية صادقة يقينية لا تتخلف، وأنها من عند الله تبارك وتعالى.

رسول الله ﷺ لم يكن منجماً، ولكن كان له ارتباط بعالم الغيب ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(٥)، وليس هي كتبئات (مستر داموس) وله كتاب مطبوع في ذلك، حيث كتب تنبؤاته عن انتصار الإسلام في الشرق وغير ذلك، لكن هذا الرجل لا يمكن الثقة بنبوءته. أما رسول الله ﷺ فقد كُشف عنه الغيب. فعقيدتنا في التنبؤات القرآنية والتنبؤات النبوية أنها صادقة لا تختلف.

(١) أمالي الطوسي: ١٨٧ / ٣١٥ / ١٧.

(٢) راجع: مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٦٥.

(٣) راجع: ذخائر العقبى: ٤٠.

(٤) رسائل المرتضى ٢: ٥٦.

(٥) النجم: ٣ و ٤.

البحث الثالث: الدين العالمي ما هو؟

لقد أخبر رسول الله أن الدين سيعود (الظهور العالمي للدين)، لكن نحن نطرح السؤال:

هل الدين الذي سينتصر في نهاية مسيرة البشرية هو الدين الإسلامي، أم هو دين جديد؟

قد يقول البعض إن صاحب الزمان يأتي بدين جديد، حسب مفاد الروايات، وإذا كان ديناً جديداً فهو إذن غير الإسلام، لكن هناك روايات أخرى تؤكد أن صاحب العصر والزمان سيأتي بنفس دين الإسلام لا غيره. لكنه يبدو جديداً على الناس لأن الناس ابتعدوا عنه.

لدينا هنا مجموعة روايات، نذكر منها:

الرواية الأولى: عن عبد الله بن عطاء قال: سألت أبا جعفر - يعني الإمام الباقر عليه السلام - قلت: إذا قام القائم بأي سيرة يسير؟

فقال عليه السلام: «يهدم ما قبله، كما صنع رسول الله ﷺ، ويستأنف الإسلام جديداً»^(١)، إذن الإسلام سينتصر في آخر المطاف.

الرواية الثانية: عن الإمام الباقر عليه السلام: «إن قائمنا إذا قام دعا الناس إلى أمر جديد، كما دعا إليه رسول الله ﷺ، وأن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»^(٢).

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) غيبة النعماني: ٢٣٨/باب ١٣/١٧.

(٢) غيبة النعماني: ٣٣٦/باب ٢٢/١.

المحاضرة السبعون:

ما هو الهدف الأسمى للنظام السياسي؟

وَيُظْهِرُكُمْ لِعَدْلِهِ،

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث هذا اليوم عن قوله: «وَيُظْهِرْكُمْ لِعَدْلِهِ»، والمعنى اللفظي أن الله تبارك وتعالى في ختام المسيرة البشرية يظهر حاكمية أهل البيت عليهم السلام، ويمكنهم في الأرض، بما يعني أن هناك ظهوراً لعدالة الإسلام، وهناك عودة للإسلام وحاكمية الإسلام.

«وَيُظْهِرْكُمْ لِعَدْلِهِ»:

لاحظوا النُظْم الاجتماعية في العالم، تجدون أن كل نظام له هدف أسمى، ونستطيع أن نقول إن لدينا ثلاثة نظم في العالم: (نظام ليبرالي)، و(نظام اشتراكي)، و(نظام إسلامي)، وكل واحد من هذه النُظْم الثلاثة له هدف أسمى وله شعار، هذا الهدف الأسمى جعله شعاره.

مثلاً ما هو شعار النظام الليبرالي وهدفه الأسمى؟ الحرية هي الهدف الأسمى للنظام الليبرالي، حرية الأفكار وحرية الأديان بشكل مطلق، اليوم النظام الليبرالي في العالم يطرح شعار الحرية وليس الرفاه والغنى وما شاكل، هذا هو شعار النظام الليبرالي. في الولايات المتحدة اليوم يوجد تمثال (الحرية)، وليس تمثال المساواة، ولا تمثال الغنى، ولا تمثال الطبقة العمالية، وإنما تمثال الحرية، يعني أن الشعار والهدف المقدس الأسمى للنظام الليبرالي هو الحرية.

لدينا نظام ثانٍ في العالم، وما يزال هذا النظام له رواده، وهو النظام

الاشتراكي، النظم الاشتراكية في العالم تطرح هدفاً أسمى وتعتبره شعاراً لها، ما هو الهدف الأسمى؟ الجواب: هو المساواة، تقول: إن الهدف الأسمى عندي أن الناس يعيشون سواسية، ولا يوجد فقير وغني، المهم أن يعيشوا في طبقة واحدة من حيث الرفاه الاقتصادي، هذا هو الهدف المقدس للاشتراكية، هذا هو هدف النُظم الاشتراكية في العالم بحسب ما تطرحه النظرية، ولا أتحدث عن التطبيقات.

أين موقع الإسلام من هذه النظريات وهذه النُظم؟
ما هو الهدف الأسمى؟

قد تقولون: هذا كلام جديد. لكن اليوم حينما نقرأ الإسلام قراءة جديدة معاصرة قياساً للمدارس الأخرى يجب أن نستكشف النظرية. أصول الدين هي: التوحيد، والعدل، والنبوة والإمامة، والمعاد. لكن فروع الدين هي: الصلاة، والصوم، والخمس، وغيرها، لكن إن سأل أحدكم: ما هو الهدف الأسمى للشريعة الإسلامية؟ وما هو شعار النظام الاجتماعي في الإسلام؟ لو قالوا لكم: جسدوا لنا هدفكم الأسمى بتمثال، فأَيُّ تمثال تضعوه؟ تمثال الحرية، أم تمثال المساواة؟ شعار (يا عمّال العالم اتحدوا)، والمنجل والمول؟ ما هو التمثال الذي أنتم تضعونه؟

العدالة هي الهدف الأسمى:

هنا يأتي الإسلام ليقول: الهدف الأسمى عندي في المجتمع الإنساني هو العدالة، فهي الإطار الذي يجب أن تتحرك الحرية في داخله، ويجب أن تتحرك المساواة في داخله، الإسلام يقول: أنا أؤمن بالحرية، لكن داخل إطار العدالة، وكذلك المساواة، نستطيع أن نقول: إن

الهدف الأسمى للإسلام أو للنظام الاجتماعي في الإسلام هو العدالة، ولهذا تجدون القرآن الكريم حينما يتحدث عن القانون الإسلامي والنظام الإسلامي دائماً يتحدث عن العدالة، يقول: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾^(١)، ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾^(٢)، والقسط يعني العدالة، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(٣)، ولهذا فإن أحد أصول الدين المهمة التي يركز عليها شيعَة أهل البيت عليه السلام هو (العدل) كأصل من أصول الدين، يعني أن لدينا توحيداً، لكن توحيد بلا عدالة غير مقبول، لدينا نبوة، لكن نبوة بغير عدالة غير مقبولة، المعاد كذلك، ولهذا فإن شيعَة أهل البيت عليه السلام أضافوا أصلاً من أصول الدين واعتبروه صفة من صفات الله، وهي (العدل)، القرآن الكريم حينما يتحدث عن الأنبياء يقول إن دعوتهم كانت نحو إقامة العدالة.

الإسلام هدفه الأسمى هو العدالة. والحرية، والمساواة أيضاً أهداف مقدّسة، ولطالما أكد الإسلام على حرية الناس، وأن الناس سواسية كأسنان المشط^(٤)، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(٥)، الحرية هدف إسلامي كبير، ولهذا فإن الأنبياء قد جاءوا ليس فقط لتغيير عقائد الناس، وإنما جاءوا لتغيير النُظُم ولتحرير الناس، والإسلام جاء لكي يحرر الناس من العبودية، الناس

(١) النساء: ٥٨.

(٢) الأعراف: ٢٩.

(٣) النحل: ٩٠.

(٤) قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون كأسنان المشط، يتساوون في الحقوق بينهم...».

(مستدرك الوسائل ٨: ٣٢٧/٩٥٦٨، ٢).

(٥) التوبة: ٧١.

كانوا عبيداً للأغنياء وأهل السلطة، والإسلام هو الذي جعل صهييب الرومي، وبلال الحبشي، وسلمان الفارسي سادةً، وأعطى الطبقة الضعيفة الحرية، حررهم من عبودية طبقة النبلاء، ولهذا دائماً كانت الطبقة المتسلطة تشكو من حركة الأنبياء، ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا﴾^(١).

جاء الإسلام فقال: لا، هؤلاء ليسوا أراذل، بل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٢).

الحرية هدف عظيم، المساواة أيضاً كذلك ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾^(٣)، لكن الإطار الذي تتحرك فيه الحرية والمساواة هو العدالة، هناك سياج يحيط بالحرية والمساواة يسميه الإسلام العدالة.

قصة سمرة بن جندب:

مثلاً قصة سمرة بن جندب، هذا رجل معاند أناني انتهازي في زمن النبي ﷺ، وبقي معانداً لأهل البيت عليه السلام بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام، وحينما جعل معاوية زياد بن أبيه والياً على العراق، والعراق كان نصفين: البصرة والكوفة، وكان يُسمى العراقيين، زياد بن أبيه عيّن سمرة والياً على البصرة بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام، وكانت مهمته قمع الشيعة، فقتل في البصرة _ بحسب رواية الطبري _ ثمانية آلاف شخصاً من شيعة علي عليه السلام، واستدعاه زياد بن أبيه _ الذي قتل ثلاثين ألفاً من الشيعة في الكوفة _ فقال له: أما خشيت أن تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟

(١) هود: ٢٧.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) آل عمران: ١٩٥.

فقال: لو قتلت معهم مثلهم ما خشيت^(١)!

ثم يقول سمرة: لعن الله معاوية، لو أطعت الله كما أطعت معاوية ما عذبنى أبداً^(٢).

سمرة هذا دعاه باعتباره شخصية إسلامية، وقال له: أعطيك مئة ألف درهم على أن تضع لي رواية في التأريخ، فقال: ما هي هذه الرواية؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾^(٣)، وأنت صاحب النبي، قل إن هذه الآية نزلت في علي!

والآية التي بعدها ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٤)، قل إن هذه الآية نزلت في ابن ملجم، فرفض سمرة بن جندب ذلك، لكن رفضه لم يكن خوفاً من الله، بل يريد مالا أكثر.

فقال معاوية: أعطيك مائتي ألف، فرفض.

فقال: أعطيك أربعمائة ألف درهم، فقبل.

فروى أن قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ نزلت في علي، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ نزلت في ابن ملجم^(٥).

(١) تاريخ الطبري ٤: ١٧٦.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٢١٧.

(٣) البقرة: ٢٠٤.

(٤) البقرة: ٢٠٧.

(٥) راجع: شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد) ٤: ٧٣.

لقد دخل الإسلام دخولاً انتهازياً، كانت عنده مشكلة بسيطة، كان لسمرة بن جندب نخلاً في بستان رجل من الأنصار، فكان يؤذيه، فشكا الأنصاري ذلك إلى رسول الله ﷺ، فبعث إلى سمرة، فدعاه فقال له: «بع نخلك من هذا، وخذ ثمنه»، قال: لا أفعل، قال: «فخذ نخلًا مكان نخلك»، قال: لا أفعل، قال: «فاشتر منه بستانه»، قال: لا أفعل، قال: «فاترك لي هذا النخل ولك الجنة»، قال: لا أفعل، فقال ﷺ للأنصاري: «اذهب فاقطع نخله، فإنه لا حق له فيه»^(١).

وبهذا فقد أسس رسول الله ﷺ قاعدة شرعية عامة، فكل قضية نواجه بها حالة ضرر على الناس نقول: هذا حرام، حتى لو لم تكن هناك آية أو رواية، مبدأ الإسلام لا يقبل الضرر على الناس وهذا هو معنى أن العدالة هي الأصل الأول في أهداف الإسلام. فالحرية يجب أن تكون في إطار العدالة، وهكذا المساواة.

الإسلام أعطى الحرية التجارية والحرية الصناعية، لكن في ضمن إطار العدالة، أما إذا أردت استيراد المنتجات على حساب الإنتاج الوطني فإن النظرية الإسلامية تقول: إن من حق الدولة أن تمنع ذلك وتضع عليه ضرائب كبيرة.

الإسلام ليس اشتراكياً، وهو يدعو إلى المساواة، لكن في إطار العدالة، الإسلام أيضاً يريد المساواة وهي هدف كبير من أهدافه، فمن حق المؤمن على المؤمن أن لا يبيت شعباناً وجاره جائع، ولكن الإسلام يريد أن يحقق هذه المساواة من خلال العدالة، لا من خلال الغصب والقوة.

(١) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد) ٤: ٧٨.

«وَيُظْهِرُكُمْ لِعَدْلِهِ»، لنعرف أن العدالة المطلقة في الدنيا مستحيلة؛ لأن الدنيا مبنية على مريض ومعافى، وفقير وغني، كسول ونشيط، الدنيا قائمة على التفاوت، الدار الآخرة هي دار العدالة المطلقة، في الدنيا يعمل الأنبياء على أن يحفظوا القسط الأكبر والأوفى من العدالة؛ لأن الدنيا تبقى إلى الأخير فيها ظالم ومظلوم، حتى وإن حكم المعصوم، فلا تكون هناك عدالة مطلقة، إلا في الدار الآخرة.

الرواية عن رسول الله ﷺ تقول: «لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء تنطحها»^(١)، يعني في يوم القيامة وحدها تتحقق العدالة المطلقة.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة الحادية والسبعون:

نظرية الرجعة

ومستقبل الجنس البشري

«وَجَعَلَنِي مِمَّنْ يَفْتَحُ آثَارَكُمْ وَيَسْأَلُكُمْ
سَبِيلَكُمْ وَيَهْتَدِي بِهَذَاكُمْ وَيُخْشَرُ فِي
زُمرَتِكُمْ وَيَكُرُّ فِي رَجَعَتِكُمْ».

بسم الله الرحمن الرحيم

حديثنا الليلة عن هذا المقطع من الزيارة، وهو قوله: «وَيَكْرِفِي رَجَعَتَكُمْ»، الذي يتحدث عن مفهوم جديد من المفاهيم التي اعتُبرت من اختصاصات الشيعة.

لاحظوا أن هناك مفاهيم ومعتقدات مشتركة بين الشيعة وأبناء السُّنة، مثل (التوحيد، النبوة، المعاد)، وهناك مفاهيم من معتقدات الشيعة خاصة، من جملتها: (الغيبة والظهور)، غيبة إمامنا صاحب العصر والزمان عليه السلام، ثم ظهوره، فهو من المعتقدات التي اختصَّ بها الشيعة، أما باقي المسلمين فهم يعتقدون بأن هناك دولة إسلامية عالمية ستكون آخر العصر على يد المهدي، وهو من آل محمد عليه السلام، هذا المفهوم يعتقد به أبناء السُّنة، لكن هناك فرق بيننا وبينهم، نحن نعتقد أن المهدي عليه السلام هو حيٌّ مولود، وهو ابن الإمام الحسن العسكري عليه السلام، وهو غائب عن الأنظار، وهو الذي سيؤسس تلك الدولة الإسلامية العالمية، هذا هو مفهوم الغيبة ثم الظهور.

ومن جملة المفاهيم التي اعتُبرت من اختصاصات الشيعة هو مفهوم (الرجعة).

الحديث هذه الليلة عن مفهوم الرجعة، ماذا تعني؟ وما هي فلسفتها؟ وما هو دليلها؟ وهل نعتقد بها، أم لا نعتقد بها؟

هذا المقطع من الزيارة الجامعة الكبيرة يقول: «وَيَكْرُ فِي رَجَعَتِكُمْ»، بما يعني: أسأل الله تعالى أن يجعلني ممن يعود إذا عدتم، وَيَمْلِكُ فِي دَوْلَتِكُمْ وَيُشْرِفُ فِي عَاقِبَتِكُمْ وَيَمَكِّنُ فِي أَيَّامِكُمْ وَتَقَرُّ عَيْنُهُ غَدَا بِرُؤْيَتِكُمْ»، هذا المقطع يتحدث عن مفهوم الرجعة، ومثل هذا النص لدينا نصوص كثيرة في الروايات والأدعية والزيارات تتحدث عن مفهوم الرجعة.

نصوص حول الرجعة:

أذكر لكم على سبيل المثال ما جاء في زيارة الإمام الحسين عليه السلام، حيث نقرأ: «وَأَشْهَدُ أَنِّي بِكُمْ مُؤْمِنٌ وَيَا أَيُّهَا الْيَوْمُ»، أي بعودتكم.

ومثلاً نقرأ في دعاء شهر رجب المروي عن الحسين بن روح، وهو من نواب صاحب الزمان عليه السلام، وهو من الأدعية المهمة والعظيمة: «حَتَّى الْعُودِ إِلَى حَضْرَتِكُمْ وَالْفَوْزِ فِي كَرِّتِكُمْ»^(١)، أي حينما تعودون أعود وأفوز في تلك العودة.

وهكذا نقرأ في زيارة الإمام المنتظر عليه السلام: «فإن توفيتني اللهم قبل ظهوره، فاجعلني يا ربي ممن يكرّ في رجعتي، ويملك في دولته، ويمتّع في أيامه، ويستظل تحت أعلامه»^(٢).

وهكذا نقرأ في دعاء العهد الذي يُستحب قراءته في كل صباح: «اللَّهُمَّ إِنْ

(١) مصباح المتعبد: ٧٢١.

(٢) إقبال الأعمال ٣: ١٨٥ / ٩.

(٣) بحار الأنوار ٥٣: ٩٥ / عن: مصباح الزائر.

حَالِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ الْمَوْتَ الَّذِي جَعَلْتَهُ عَلَى عِبَادِكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا فَأَخْرِجْنِي مِنْ قَبْرِي مُؤْتَرِّزًا كَفَّنِي شَاهِرًا سَيِّفِي مُجَرَّدًا قَنَاتِي مُلَبِّيًا دَعْوَةَ الدَّاعِي فِي الْحَاضِرِ وَالْبَادِي اللَّهُمَّ أَرِنِي الطَّلَعَ الرَّشِيدَ وَالْفَرَّةَ الْحَمِيدَةَ^(١)، عن الإمام الصادق عليه السلام: «من دعا الله أربعين صباحاً بدعاء العهد كان من أنصار قائمنا، فإن مات قبله أخرجه الله تعالى من قبره، وأعطاه بكل كلمة حسنة، ومحا ألف سيئة»^(٢).
فنحن أمام مجموعة من النصوص تؤكد مفهوم الرجعة.

آيات قرآنية حول الرجعة:

وهناك العديد من الآيات القرآنية يُمكن أن تؤوّل وتُحمل على مفهوم الرجعة، ويمكن أن تُحمل على مفهوم آخر. علماؤنا ذكروا عدة آيات جاء في تفسيرها عن أئمتنا عليهم السلام أن المقصود من هذه الآيات هو الرجعة، سوف أسرد لكم بعض هذه الآيات سرداً سريعاً.
قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا﴾^(٣)، يوم القيامة كل الناس يُحْشَرُونَ، لكن هذه الآية تقول: إن هناك عملية انتقاء خاص، وحشر قبل عالم الحشر، ﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾، أي ننتخب مجموعة ونحشرهم، فأين مكان وزمان هذا الحشر؟ بعض الروايات تفسّر هذه الآية بأنها تشير إلى عالم الرجعة^(٤).

(١) مصباح الكفعمي: ٥٥١.

(٢) بحار الأنوار ٥٣: ٣٢٧.

(٣) النمل: ٨٣.

(٤) في الرواية عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا﴾ فقال: «ليس أحد من المؤمنين قتل إلا سيرجع حتى يموت، ولا أحد من المؤمنين مات إلا سيرجع حتى يقتل».

آية أخرى تقول: ﴿وَلَذِيقَتُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾^(١)، هناك عذاب أكبر يوم القيامة، وهناك عذاب أدنى، القرآن الكريم يقول: إن هؤلاء الظلمة سنذيقهم عذاباً أدنى دون العذاب الأكبر، فأين يكون مكان وزمان هذا العذاب الأدنى؟ بعض الروايات تقول: إن هذه الآية تتحدث عن عالم الرجعة. هؤلاء يعذبون في عالم الرجعة^(٢).

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(٣)، قد يقول قائل: أين النصر للأنبياء؟ فالأنبياء لم يشهدوا نصراً في الحياة الدنيا باستثناء داود وسليمان عليهما السلام، تفسير ذلك على ما تقوله بعض الروايات هو عالم الرجعة، حيث إنهم سينتصرون بعد عودتهم إلى عالم الدنيا^(٤).

لكن جميع هذه الآيات كما نلاحظ ليست صريحة إلى عالم الرجعة، وهي تحتمل أكثر من تفسير، فنحن إذن لا نستطيع أن نعتبر هذه

→ وروى أبو بصير قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «ينكر أهل العراق الرجعة؟»، قلت: نعم، قال: «أما يقرأون القرآن: ﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا...﴾ الآية. راجع: مختصر بصائر الدرجات : ٢٥، عنه بحار الأنوار ٥٣ : ٤٠.

(١) السجدة: ٢١.

(٢) في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «العذاب الأدنى عذاب الرجعة، والعذاب الأكبر عذاب يوم القيامة. راجع: بحار الأنوار ٥٣ : ٢٤.

(٣) غافر: ٥١.

(٤) عن جميل بن دراج، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت: قول الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾؟ قال: «ذلك والله في الرجعة، أما علمت أن أنبياء كثيرة لم ينصروا في الدنيا وقتلوا، والأئمة بعدهم قتلوا ولم ينصروا، ذلك في الرجعة. راجع: تفسير القمي ٢ : ٢٥٩.

الآيات دليلاً نحتج بها على النظرية، أما ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام في تفسير هذه الآيات فهي روايات يرى بعض الفقهاء أنها غير كافية في الدلالة على نظرية الرجعة.

وعلى كل حال، فإن موضوع الرجعة يدخل تحت موضوع مستقبل الجنس البشري.

ما هو مستقبل البشرية في النظرية الدينية؟

الفكر الديني يذكر ثلاث حقائق حول مستقبل البشرية:

الحقيقة الأولى: قيام الحكومة الإسلامية العالمية.

الحقيقة الثانية: حدوث التحولات الكبرى في الطبيعة.

الحقيقة الثالثة: رجعة مجموعة من الناس إلى عالم الدنيا بعد موتهم.

هذه الحقائق بعضها ثابتة يقيناً، وبعضها الآخر قابل للبحث والاجتهاد.

تشكيل حكومة الإسلام العالمية:

الحقيقة الأولى: أن مفهوم ظهور صاحب الزمان عليه السلام وتشكيل الحكومة الإسلامية العالمية العادلة هو مفهوم ثابت عندنا، أنه في آخر البشرية سوف تقوم حكومة إسلامية تملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، هذا المفهوم يتفق عليه الشيعة والسنة.

أهل الكتاب يعتقدون أيضاً أنه في آخر عصور البشرية سيظهر عيسى المسيح عليه السلام ويقيم حكومة عادلة. إذن لاحظوا أن هذه الفكرة، فكرة الحكومة

العالمية التي تسود العالم عدالة هي فكرة تتقارب فيها البشرية، لكن الإسلام يؤمن بها كحقيقة، يتحدث بها الغيب أنها قائمة لا محالة، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾^(١)، فهذه النظرية تتحدث عن إرادة إلهية حاسمة، أن الله تعالى يريد ظهور هذا الدين على كل الأديان والحضارات، طبعاً هذا المعنى جاء في ثلاث آيات:

- ١ - ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، كما في سورة (التوبة: ٣٣).
 - ٢ - ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَلَّمَ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾، كما في سورة (الفتح: ٢٨).
 - ٣ - ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، كما في سورة (الصف: ٩).
- هذه هي الحقيقة الأولى، وهي قيام الحكومة الإسلامية العالمية في مستقبل البشرية، ونسميها حكومة العدل العالمية.

نحن نعتقد أن هذه الحكومة العادلة لا تنطلق من الإتحاد السوفيتي السابق، ولا من واشنطن، وإنما تنطلق من مكة المكرمة والمدينة المنورة والنجف وكربلاء، هكذا في رواياتنا.

تحويلات في عالم الطبيعة:

الحقيقة الثانية: تحولات في عالم الطبيعة، الفكر الإسلامي قبل (١٤٠٠) عام يؤكد هذا المفهوم، إن هذه الطبيعة التي نعيشها ستشهد تحولاً لا يمكن لكم أن تصدقوا هذا التحول، لكن الدين من قبل قرون يقول: إن الطبيعة سوف تشهد تحولاً، وقد أصبحنا الآن نشهد نماذج من هذا التحول، لدينا في بعض الروايات أن الإمام صاحب العصر والزمان

عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا ظهر يكَلِّم الناس فيسمعه كلّ الناس في وقت واحد^(١)، هذا المفهوم قبل ألف سنة كيف يُصدّق به، حيث كيف يكون لشخص أن يتحدث في مكّة ويسمعه ما وراء البحار والمحيطات، لكن الآن هذا المفهوم أصبح حقيقة نعيشها عبر التلفزيون والفضائيات.

في روايتنا أن الإمام صاحب العصر والزمان عَلَيْهِ السَّلَامُ حين يبعث وكيلاً عنه إلى الغرب أو الشرق يقول له: «عهدك في كفك، فإذا ورد عليك أمر لا تفهمه ولا تعرف القضاء فيه فانظر إلى كفك واعمل بما فيها»^(٢)، فهذا الشيء من كان يصدّق به؟ لكنه الآن أصبح حقيقة عبر الهواتف الجوالّة، والتلفزيونات المرئية واللاسلكيّة أيضاً. والروايات التي عندنا كانت أقرب إلى اللامعقول، لكنها اليوم أصبحت معقولة ومعاشة معنا.

أقرأ لكم بعض الإشارات لهذه التحولات التي ستحدث:

الرواية عن الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه في مستقبل البشرية حينما تقوم حكومة إسلاميّة عالميّة يقول: «لو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها، ولأخرجت الأرض نباتها، ولذهبت الشحناء من قلوب البشر، واصطلحت السباع والبهائم»، أي إن هناك صلحٌ عالمي وثراء عالمي «حتى تمشي المرأة بين العراق والشام لا تضع قدميها إلا على نبات»^(٣).

(١) في الرواية عن الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «... بأبي وأمي سمي جدّي، وشبيهي وشبيه موسى ابن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ عليه جلايب النور، وتتوقد من شعاع ضياء القدس، كأنني بهم آيس ما كانوا، قد نودوا نداء يسمعه من بالبعد كما يسمعه من بالقرب، يكون رحمة على المؤمنين وعذاباً على الكافرين». غيبة الطوسي ٤٣٩ / ٤٣١.

(٢) غيبة الطوسي: ٣٣٤ / باب ٢١ / ٨.

(٣) تحف العقول: ١١٥.

وفي الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام يقول: «من أدرك قائم آل بيتي من ذي عاهة براء، ومن ذي ضعف قوي»^(١).

هذه هي التحولات التي ستحدث في المستقبل البشري.
عن الإمام السجاد عليه السلام: «إذا قام قائمنا أذهب الله ﷻ عن شيعتنا العاهة، وجعل قلوبهم كزبر الحديد»^(٢).

رجوع الصالحين:

الحقيقة الثالثة: هي حقيقة الرجعة، الرجعة هي رجوع الأنبياء إلى عالم الدنيا، ورجوع الأئمة عليهم السلام إلى عالم الدنيا، والمؤمنون كذلك.

هل هي رجعة مطلقة للجميع، أم هي مخصوصة؟
الرواية تقول إنها ليست رجعة لكل البشر^(٣)، وإنما الأنبياء والأئمة والمؤمنون المخلصون في إيمانهم، وكذلك المعاندون في كفرهم، وهناك ينتقم الله من الكافرين للمؤمنين، هذا هو مفهوم حقيقة الرجعة.

هناك ثلاثة أبحاث في حقيقة الرجعة:

البحث الأول: في الإمكانية العلمية والعقلية والشرعية لهذه الحقيقة، أي إن هذه الحقيقة عقلياً وشرعياً هل هي ممكنة، أم غير ممكنة؟

(١) بحار الأنوار ٥٢: ٣٣٥.

(٢) الخصال: ٥٤١؛ روضة الواعظين: ٢٩٥.

(٣) في الرواية عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «أول من تنشق الأرض عنه ويرجع إلى الدنيا الحسين بن علي عليه السلام، وإن الرجعة ليست بعامّة، وهي خاصة، لا يرجع إلا من محض الإيمان محضاً، أو محض الشرك محضاً». (بحار الأنوار ٥٣: ٣٩).

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله ﷻ: «وَيَوْمَ نَخْشِرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا»، قال: «ليس أحد من المؤمنين قُتل إلا يرجع حتى يموت، ولا يرجع إلا من محض الإيمان محضاً، أو محض الكفر محضاً». (بحار الأنوار ٥٣: ٥٣).

البحث الثاني: في أدلة هذا المفهوم.

البحث الثالث: ما هي فلسفة الرجعة؟

البحث الأول: الإمكان العقلي للرجعة:

هذه القضية لا توجد فيها مشكلة، فالعلم اليوم يبحث عن عملية إعادة الحياة، العلم مشغول بأخطر وأعظم مسألة، وهي محاولة اكتشاف سر الحياة، فهو يعرف أن هذه النبتة حينما توضع في التراب وتُسقى بالماء تنطلق منها الحياة، وأن هذا الجنين في الشهر الأول والثاني والثالث في بطن الأم عديم الحياة، وفي الشهر الرابع تندفق فيه الحياة، هناك عمليات تجسيد الإنسان تقوم بها شركات ضخمة في أوروبا يتعامل معها الأثرياء ولم تثبت نجاحها لحد الآن، فهذا الإنسان الذي توفي الآن يأخذونه ويجمدونه بدرجة حرارة تحت الصفر، ويتعاقدون أنه بعد مئة سنة يرجعون له درجة الحرارة الطبيعية، بأمل أن تعود الحياة له، الآن يوجد مئة شخص في أوروبا جمّدوا أنفسهم، طبعاً هذه مجرد محاولة، وسوف لن تشهد نجاحاً، لكن الفكرة التي نريد تأكيدها هي أنه لا مشكلة اليوم في أصل الفرضية.

قبل أيام كنت أقرأ في بعض الصحف أن جثمان لينين مؤسس الاتحاد السوفيتي والذي مضى على وفاته (٨٠) سنة (١٩٢٤م)، ومنذ أن توفى حنطوه ولحد الآن جثته موجودة في ثلاجة ويزورها الناس ليروا هذا الذي أسّس الاتحاد السوفيتي، وكل أسبوعين يقومون بعملية إعادة تنشيط للمواد التحنيطية، ثم كل يومين تذهب لجنة وتشرف على هذا البدن، وهكذا في مصر صوروا وجه فرعون توت عنخ آمون وعمره أربعة آلاف سنة، وما يزال جسماً محنطاً.

ما هي المشكلة العقلية والعلمية إذا اكتشف الإنسان سر الحياة أن تعود الحياة لهذه الأجسام المحنطة؟ أنا لا أتحدث عن فكر ديني، لكن أتحدث علمياً، حيث لا توجد مشكلة في ذلك، سواء على أساس التطور العلمي، أو على أساس التصرف الغيبي، الفكر الديني يؤمن بإمكانية إعادة الحياة، عيسى عليه السلام كان يُبرئ الأكمه والأبرص، ليس بتصريف علمي، وإنما بإذن الله، ويحيي الموتى بإذن الله تعالى، ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾^(١)، هذه حقيقة قرآنية لا يمكن لمسلم أن يكذبها، الله تعالى قادر على أن يحيي الموتى، القرآن الكريم يحدثنا عن عدة نماذج لإعادة الحياة جرت في البشرية، ونحن نقرأها في القرآن ولا نستغرب منها كثيراً، بل ننظر إليها كمسلّمات طبيعية. يتحدث القرآن عن قرية من قرى بني إسرائيل قد أماتهم الله جميعاً ثم أحياهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾^(٢)، الرواية تقول: إن هؤلاء لما ماتوا بعث الله نبياً اسمه حزقيل مرّ على هذه القرية فتعجب من هذه العظام البالية، ولاحظ أن هؤلاء ماتوا مرة واحدة، قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِتَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نَشَرُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ

(١) المائدة: ١١٠.

(٢) البقرة: ٢٤٣.

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(١)، فدعا الله تبارك وتعالى أن يحييهم حتى يكلمهم فأحياهم الله^(٢).

إذن، هذه القضية في الفكر الديني تكررت في أكثر من مشهد وحالة، «وإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تُنظَرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ...»^(٣).

ومعنى كل هذه القصص التاريخية الواقعية أن عودة الحياة بعد الموت وبطريق إعجازي ومن خلال الإرادة الإلهية هو أمر ممكن ووارد في القرآن الكريم.

مفهوم الرجعة يتحدث عن عودة الأنبياء ﷺ، ونحن نعتقد أن الأنبياء ﷺ عادوا من السماء في ليلة المعراج إلى المسجد الأقصى، وصلّوا جميعاً خلف رسول الله ﷺ، هذه رجعة، فنحن نؤمن بهذه المفاهيم، عيسى عليه السلام هو حيّ عند الله تبارك وتعالى، «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ»^(٤)، «بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ»^(٥)، وسيرجع، النصاري يقولون: إن حكومة العدل ستكون على يده، ونحن نقول إنه سيصلي خلف إمامنا^(٦)، ويشارك مع إمامنا في تأسيس حكومة العدل الإلهي، إذن هناك نظائر تحققت في التاريخ تقرّبنا من فكرة الرجعة، هذا هو

(١) البقرة: ٢٥٩.

(٢) راجع: الكافي ٨: ٢٣٧/١٩٨.

(٣) البقرة: ٥٥ و ٥٦.

(٤) النساء: ١٥٧.

(٥) النساء: ١٥٨.

(٦) راجع: دلائل الإمامة: ٤٤٣/٤١٦، غيبة الطوسي: ١٩١/١٥٤؛ ينابيع المودة ٢: ٨١.

البحث الأول، إذن لا مشكلة أن يقول قائل: إن عيسى عليه السلام سيرجع، أو أن رسول الله ﷺ سيرجع، أو أن الحسين عليه السلام سيرجع، ولهذا فإن رواياتنا تقول: إن أول من سيرجع مع صاحب العصر عليه السلام هو الإمام الحسين، وسيعيش أربعين عاماً^(١).

البحث الثاني: فلسفة الرجعة:

لماذا يعود الحسين عليه السلام والنبي ﷺ؟ لماذا يعود مجموعة من الصالحين ومجموعة من الفاسقين.

الروايات تذكر في فلسفة الرجعة تحليلين:

التحليل الأول: استكمال استحقاقات العمر الدنيوي، فإن الله سبحانه وتعالى جعل للإنسان عمراً دنيوياً، والدنيا مزرعة الآخرة.

وهؤلاء الذين قتلوا قبل أن يستكملوا عمرهم الطبيعي. يرجعهم الله تعالى إلى الدنيا حتى يستكملوا عمرهم الطبيعي، ولهذا تقول الرواية: «ليس أحد من المؤمنين قُتل إلا يرجع حتى يموت...»^(٢).

التحليل الثاني: كما تشير بعض الروايات إلى استكمال النعمة الإلهية على المؤمنين بنيل درجة الشهادة.

الإمام الباقر عليه السلام يقول: «من قتل من المؤمنين ردّ حتى يموت ومن مات ردّ حتى يقتل»^(٣). أيضاً الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام: «ليس

(١) في الرواية عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «أول من يكر في الرجعة الحسين بن علي عليه السلام، ويمكث في الأرض أربعين سنة...» (بحار الأنوار ٥٣: ٦٤).

(٢) بحار الأنوار ٥٣: ٥٣.

(٣) مختصر بصائر الدرجات: ٢٣.

من مؤمن إلا وله قتلة وموتة، أنه من قتل نشر حتى يموت، ومن مات نشر حتى يقتل»^(١)، استكمال العمر ورزق درجة الشهادة.

البحث الثالث: الدليل على الرجعة:

أما الدليل على الرجعة، فما مرّ من الروايات، وبعضهم اعتبر أن المسألة إجماعية، وبعض العلماء اعتبر أن المسألة قابلة للاجتهاد. لدينا في الحقيقة رجعتان: رجعة بالمعنى العام، ورجعة بالمعنى الخاص.

الرجعة بالمعنى العام: يعني عودة الإسلام والقرآن وشريعة الرسول محمد ﷺ وحاكمية الدين الإسلامي. الرجعة بالمعنى العام هي بديهة من البديهيات، وكثير من الروايات الواردة في الرجعة يمكن أن نحملها على هذا المعنى.

الرجعة بالمعنى الخاص: وهي تعني عودة الأشخاص أنفسهم، الأنبياء ﷺ، الرسول ﷺ، الأئمة ﷺ، الإمام الحسين ﷺ يرجع، ونفس رسول الله ﷺ يرجع، وهناك عشرات الروايات بهذا الاتجاه، كما يشهد له الدعاء المعروف: «فَأَخْرِجْنِي مِنْ قَبْرِي مُؤْتَزراً كَفَّنِي شَاهِراً سَيِّفِي مُجَرِّداً قَنَاتِي»^(٢)، حيث يطلب الداعي في هذا الدعاء أن يعود شخصياً مع صاحب الزمان ﷺ، فهذه رجعة بالمعنى الخاص، وهو مفهوم ثابت لدى الاتجاه السائد عند علماء الشيعة، وربما يناقش به بعضهم.

(١) مختصر بصائر الدرجات: ١٧.

(٢) مصباح الكفعمي: ٥٥١.

طبعاً هناك مقارنة فكرية تقرب الفكرة جداً، فإن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(١)، وإذا كان هؤلاء الذين قتلوا أحياء، فإن أرواحهم ما تزال موجودة، وحيتهم من القريب جداً للذهن أن يأذن الله تعالى لهذه الروح أن تعود إلى عالم الدنيا لتمارس دوراً مرسوماً لها في الحكمة الإلهية، ولما كان الشهداء أحياء عند ربهم، إذن هؤلاء الأحياء يمكن أن يرجعوا، ومعنى ذلك أننا سنشهد في المستقبل النهائي ملحمة رائعة للبشرية تتمثل بما يلي:

أولاً: هناك حكم عادل، «يملاً الأرض قسطاً وعدلاً».

ثانياً: هناك تحولات رائعة في الطبيعة.

ثالثاً: هناك الملحمة التي ستحدث بين رموز الإيمان وبين رموز الكفر، حيث يعود الطرفان إلى عالم الدنيا لأسباب وأسرار إلهية قد نبهنا وتناولها في مجال آخر.

وهناك نتمنى أن يردنا الله تبارك وتعالى فنكون من جنود المهدي عليه السلام، «إِنْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ الْمَوْتُ الَّذِي جَعَلْتَهُ عَلَى عِبَادِكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا فَأَخْرِجْنِي مِنْ قَبْرِي مُؤْتَزَرًا كَفَنِي شَاهِرًا سَيَفِي مُجَرِّدًا قَنَاتِي».

والحمد لله رب العالمين

* * *

١٩
المحاضرة الثانية والسبعون:

مظاهر العالم قبل دولة المهدي عليه السلام

وَيَكْرِهُ فِي رَجْعَتِكُمْ وَيَمْلِكُ فِي دَوْلَتِكُمْ،

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث اليوم عن قوله في الزيارة: «وَيَمْلِكُ فِي دَوْلَتِكُمْ».

في هذا المقطع يوجد لدينا ثلاثة بحوث:

البحث الأول: ظاهرة الدولة، ما هي رؤية الإسلام السياسية والتاريخية بشأن الدولة وتفسيرها من وجهة نظر إسلامية.

البحث الثاني: ما هو المطلوب تجاه دولة أهل البيت عليه السلام؟ ماذا

يجب علينا؟

البحث الثالث: العالم والمجتمع الدولي قبل ظهور الإمام المهدي

عليه السلام، فنحن في البحوث الماضية شرحنا معالم دولة الإمام المهدي

عليه السلام العالمية. الثراء الاقتصادي، الأمن، سقوط القوميات، حاكمية

الإسلام، العدالة المطلقة، هذه مجموعة من المعالم لدولة الإمام المهدي

عليه السلام، لكن اليوم نريد أن نتحدث عما قبل دولة الإمام المهدي عليه السلام، ما

هو حال العالم وفق رواياتنا التاريخية؟

البحث الأول: الرؤية الإسلامية لظاهرة الدولة:

الدولة ظاهرة اجتماعية لم تكن، وإنما ظهرت في مراحل متأخرة

من حياة البشرية، لقرون عديدة لم تكن هناك دولة، كان هناك

أقطاعيون، كانت هناك عشائر، كانت هناك حياة اجتماعية ما دون

الدولة، فالدولة عبارة عن ظاهرة اجتماعية مؤسسية شهدتها البشرية في

مراحل متأخرة، توزيع المسؤوليات، بناء المؤسسات، إدارة البلاد عبر نظام مؤسساتي، هذه هي ظاهرة الدولة.

الإسلام ما هو رأيه في الدولة؟ الدولة ظاهرة صحيّة أم ظاهرة سلبية؟ هل المطلوب أن يكون لنا دولة؟ أم المطلوب أن لا يكون لنا دولة؟ هذا بحث سياسي واجتماعي. وفي فلسفة التاريخ أيضاً هناك نظرية تقول: إن الدولة ظاهرة عارضة يجب أن تزول، ويجب أن تنتمي البشرية يوماً ما إلى مجتمع بدون دولة، الفلسفة الماركسية هو رأيها الفلسفي والسياسي أن الدولة ظاهرة أنشأتها الطبقة الرأسمالية البرجوازية، الأثرياء أنشأوها لاستعباد الضعفاء والسيطرة عليهم، باسم مؤسسات، وزارات، وما شاكل ذلك.

هذه الظاهرة الاجتماعية يجب أن تزول وتصبح البشرية مجتمعاً يدير نفسه عبر نظام الإدارة الذاتية، فلا يوجد حينئذٍ دولة، لا رئيس، ولا وزراء، ولا شرطة، ولا جيش، وإنما يوجد إدارة ذاتية، كأبناء العشيرة الذين يديرون أنفسهم، وأبناء البيت الواحد، وأبناء المحلة والقرية الذين يديرون أنفسهم على أساس المحبة وبعض الأصول والأعراف الاجتماعية، فلا حاجة للدولة.

النظرية الماركسية هكذا تقول: إن الدولة ستلاشى فيما يأتي من الزمان. كما تقول أيضاً في نقطة ثانية في النظرية الماركسية أن الدولة البرجوازية سوف تسقط وتقوم مكانها دولة عالمية، هذه الدولة العالمية تقوم على أساس طبقة العمال، العمال فقط يحكمون، وهكذا تنشأ هذه الدولة عبر ثورة دموية، ولا يمكن أن تكون دولة بدون ثورة دموية، هذا كله في الفلسفة الماركسية.

الدين ماذا يقول؟ الدين على مستوى مذهب الشيعة، أو حتى على مستوى المذاهب الأخرى؛ لأن كل المذاهب الإسلامية تقول بأن هناك دولة عالمية ستحدث، يحكمها المهدي من آل محمد ﷺ، إذن الرؤية الإسلامية تتحدث عن دولة عالمية، ونحن نقرأ ذلك في نصوص أهل البيت ﷺ، كما في الزيارة الجامعة عن الإمام الهادي ﷺ: «وَيَمْلِكُ فِي دَوْلَتِكُمْ»، إذن ما هي الرؤية الإسلامية تجاه الدولة؟

أولاً: الدولة في الرؤية الإسلامية ظاهرة صحيّة، وليست ظاهرة مَرَضِيَّة، فليست الدولة من صنع البرجوازيين الرأسماليين، أو من صنع الطغاة والفرعنة، وإنما الأنبياء هم أول من ساهموا على تأسيس الدولة المؤسساتية، وهذه نظرية يذكرها أستاذنا السيد الشهيد الصدر رحمه الله في سلسلة (الإسلام يقود الحياة): أن الأنبياء دعوا ومارسوا عملية تأسيس الدولة. فالدولة ليست ظاهرة برجوازية، وإنما الأنبياء وهم الناس الصالحاء عملوا على تأسيس وإدارة الدولة، ولدينا في تاريخ الأنبياء دولتان إسلاميتان في الماضي أسسها أنبياء هما دولة داود، ودولة سليمان عليه السلام، وهذه دولة لم يقدها برجوازيون، وإنما قادها أنبياء، وهكذا نعتقد أن في آخر الزمان الإمام المهدي ﷺ وبعده أحد عشر مهدياً، مهديٌ بعد مهدي^(١) - كما تحدثنا في محاضرات سابقة - يحكمون دولة عالمية صالحة، ليس هي دولة العمال فقط، وإنما هي دولة الصالحين، عمّال، وفلاحون، وموظفون، وكسبة، وتجار، وفقراء، وأغنياء، وما شاكل ذلك، الإسلام لا يعتقد بأن دولة صاحب الزمان أو الدولة الصالحة هي دولة طبقية، إنما هي دولة

(١) عن أبي حمزة، عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل أنه قال: «يا أبا حمزة، إن منّا بعد القائم أحد عشر مهدياً من ولد الحسين عليه السلام». أنظر: غيبة الطوسي: ٥٠٤ / ٤٧٨.

الصالحين، من هذه الطبقة، أو من تلك الطبقة، هي دولة الصلاح. هذه صورة عن الرؤية الإسلامية تجاه الدولة، وقد تحدثنا عن دولة داود ودولة سليمان عليهما السلام فيما سبق.

أسطورة بساط الريح:

هذا اليوم أذكر لكم أسطورتين عن حكومة سليمان عليه السلام، تعرفون أن القرآن الكريم يحدثنا عن حكومة داود وحكومة سليمان عليهما السلام، وما في هاتين الحكومتين من عجائب، الله تبارك وتعالى حيث سخرَ لهما الرياح، وسخر لهما الجبال، وسخر لهما الطير، وسخر لهما الجن، كل ذلك سخرَ لدولة داود وسليمان عليهما السلام، وحتى الشياطين كانوا يعملون لدى حكومة داود وسليمان عليهما السلام، إذن هي دولة المعجزة، وقد شرحنا في ما مضى من البحوث فلسفة هذه الدولة الإعجازية، ربما للبرهنة على أن الدين قادر على أن يدير أقوى سلطة وأكبر دولة، وحيث كانت دولة داود وسليمان عليهما السلام هي دولة معجزة، فقد نسجت حولها الكثير من الأساطير الكاذبة، نحن نذكرها في الحقيقة لتلطيف الأجواء وتنويع البحث.

يذكر التاريخ الأسطوري أن سليمان عليه السلام كان لديه بساط الريح، وفكرة بساط الريح هي أسطورة تُسبب إلى سليمان عليه السلام، بساط يطير فوق الرياح، وهذا البساط له ألف ركن، وعلى كل ركن يوجد ألف بيت لجنود سليمان عليه السلام، فهو معسكر ضخم جداً، يقدر بعشرات الكيلو مترات المربعة حسب هذا الوصف التي تقوله الأسطورة، أن ألف ركن لهذا البساط، وفي كل ركن ألف بيت للجنود، وتحت كل بيت جنٌّ يحمل ذلك البيت!!، إن الأرقام المذكورة في هذه الأسطورة تعني أن

على هذا البساط مليوني جندي، ألف ركن، وفي كل ركن ألف بيت، يعني ألف × ألف = مليون بيت، والبيت يعني غرفة، وكل غرفة يجلس فيها اثنان من الجنود على الأقل، يطيطون على هذا البساط.

الباحث الدكتور النجار في كتابه (قصص الأنبياء) يقوم بسرد لطيف، يقول: إن هناك _ وفق الروايات _ مليوناً جندي آخر، وينبغي أن يكون عدد السكان في المدينة التي يسكنها سليمان عشرة أضعاف هذا العدد، ومعناه أن مجموع سكان دولة سليمان وهي فلسطين على أقل تقدير أربعون مليون نسمة... ولا يمكن لفلسطين هذه المدينة الصغيرة أن تتسع لأربعين مليون، حكومة سليمان ﷺ كانت في فلسطين، مما يؤكد أن هذه القضية هي أسطورة كاذبة، ثم يأتي هذا الباحث ويناقش هذه الأسطورة ويقول: إن هذا شيء عجيب، فكيف سيكون حجم هذا البساط؟ سيكون (١٠٠) كيلو متر مربع على أقل تقدير، وهو يطير بهذا الحجم! ثم يقول: في أي أرض يحط هذا البساط؟ الأسطورة تقول: إن سليمان ﷺ يخرج صباحاً على هذا البساط ويحط في خراسان، ويكون مبيته هناك، ماذا يفعل في خراسان؟ وخراسان لم تكن تابعة لسليمان ﷺ، إذا كان وفداً رئاسياً مع مليوني جندي، فأية دولة قادرة على أن تستضيف هذا العدد؟ وماذا يفعل في خراسان؟ لماذا لا يذهب إلى مصر، إلى ليبيا، أو أية دولة مجاورة؟ هذه أساطير تُسجلها أيدي القصاصين.

أسطورة خاتم سليمان ﷺ:

وهكذا جاءت أسطورة ثانية، أسطورة خاتم سليمان. ما هو خاتم سليمان؟ الأسطورة تقول: إن سليمان كان له رمز سحري لهذا الملك

العظيم، هذا الرمز السحري موجود في الخاتم، والخاتم يلبسه بيده، وإذا حرّك الخاتم حضر الجيش العملاق العظيم من الجن والطيور والوحوش.

تقول الأسطورة: إن سليمان كان إذا أراد الضوء يعطي خاتمه إلى زوجته، واسمها أمينة، ويوماً ما أعطى الخاتم إلى أمينة وذهب إلى الضوء، فجاءها إبليس وصوّر نفسه على شكل سليمان، وقال لها: يا أمينة اعطني الخاتم، فأعطته الخاتم، وبذلك أصبح رمز الحكم والقوة بيد إبليس، فجلس إبليس على عرش سليمان، وأصبحت القوات المسلحة كلها بقيادة إبليس، فجاء سليمان بعد ضوءه فطرده الجنود، فذهب إلى نسائه وهو يقول: أنا سليمان، فطرده النساء؛ لأن إبليس - على شكل سليمان - جالس على العرش، ويده خاتم الملك، وبذلك أصبح سليمان طريداً وفق هذه الأسطورة، لا أحد يقبله، وأدار إبليس هذا الملك مدة أربعين يوماً، وهذا هو ما يفسّره البعض لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾^(١)، أن الجسد هو إبليس، فاضطر سليمان أن يعمل في صيد السمك على ساحل البحر، وذات يوم طار إبليس إلى السماء وألقى الخاتم في البحر، فاصطاد سليمان سمكة، وفتح السمكة فوجد فيها الخاتم، وجاء إلى القصر واعتقل إبليس ووضعه في صخرة وأغلق الصخرة عليه ثم ألقاه في البحر^(٢).

هذه هي قصة خاتم سليمان، وهي أسطورة واضحة غير قابلة للتصديق.

(١) ص: ٣٤.

(٢) راجع: تفسير البغوي ٤: ٦٢؛ تفسير الرازي ٢٦: ٢٠٧.

البحث الثاني: ما هو الموقف المطلوب تجاه دولة أهل البيت ﷺ؟

نحن نعتقد أن هناك دولة لأهل البيت ﷺ، وتكون في آخر الزمان، ما هو الموقف تجاه تلك الدولة؟ نحن في ضمن الثقافة الدينية نفهم أن المطلوب منا تجاه تلك الدولة أمور ثلاثة:

الأمر الأول: انتظار تلك الدولة والتطلع إليها، «مُرْتَقِبٌ لِدَوْلَتِكُمْ».

الأمر الثاني: المشاركة في بناء تلك الدولة ومؤسساتها، «وَيُمَلِّكُ فِي دَوْلَتِكُمْ».

الأمر الثالث: الانتصار لقيام تلك الدولة وتأسيسها، «وَتُصَرِّبِي لَكُمْ مُعَدَّةً».

الموقف الأول: «مُرْتَقِبٌ لِدَوْلَتِكُمْ»، ماذا تعني؟ يعني متطلع متأمل، منتظر، متشوق إلى تلك والدولة، وهذا معنى: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَرْغِبُ إِلَيْكَ فِي دَوْلَةِ كَرِيمَةٍ»^(١)، هناك من ليس لديه اهتمام بقيام دولتهم، صارت لهم دولة أم لا، ظهر صاحب الزمان أم لا، ينتصر المسلمون أم لا، يكون الحق هو الغالب أم لا. لكن الإنسان المؤمن يهتم انتصار دولة الحق، هذه هي أخلاقية الإنسان المؤمن، أنا أنتظرها وأتطلع إليها، هذا معنى: «مُرْتَقِبٌ لِدَوْلَتِكُمْ»، وهكذا دائماً يعمل الإنسان المؤمن باتجاه التصحيح والتغيير، نحن دائماً وفي جميع الحالات يجب أن نتطلع إلى قيام الدولة العالمية على يد الإمام المهدي ﷺ، نحن نتطلع إلى دولة العدالة المطلقة، هذا هو الموقف الأول.

الموقف الثاني: الإعداد لتلك الدولة، «وَتُصَرِّبِي لَكُمْ مُعَدَّةً»، أنا

(١) من دعاء كل ليلة من شهر رمضان، (مصباح المتهجد: ٥٧٧).

مستعد، ونصرتي جاهزة، أنا جزء من القوات المعدّة لتلك الدولة، ولهذا تقرأ في أدعية شهر رمضان: «وَتَجْعَلَنِي مِمَّنْ تَنْتَصِرُهُ لِدِينِكَ وَلَا تَسْتَبْدِلْ بِي غَيْرِي».

الموقف الثالث: هو المشاركة الفاعلة، حينما تُؤسّس دولة الإسلام العالميّة، أو في عمليات التمهيد لدولة العدالة، دورنا ليس دور المتفرج، دورنا دور المشاركة الفاعلة، فإذا كان المطلوب الانتخابات، وإذا كان المطلوب قوات عسكرية، وإذا كان المطلوب عملاً في وظيفة معينة، موقفنا هو المشاركة الفعّالة لدولة الحق. وهذا نقرؤه في هذه العبارة: «وَيَمْلِكُ فِي دَوْلَتِكُمْ»، يعني لا يعيش على الهامش، وإنما يعيش في متن الدولة التي يقودها أهل البيت عليه السلام، «وَيَمْلِكُ فِي دَوْلَتِكُمْ» يعني أنا وأنت في دولة صاحب الزمان عليه السلام يجب أن يكون لنا موقع في الحكم. كي لا نصبح كميّة مهملة. أو نعيش في الهامش، وليس دورنا دور المتفرج، وإنما دور صاحب الموقع الإداري السياسي في تلك الدولة، والحمد لله فإن شيعة أهل البيت عليه السلام أدّوا هذه الممارسة الرائعة والمشاركة الفعّالة، ليس لدولة الإمام المهدي عليه السلام، ولكن على مستوى الإعداد والتهيؤ لدولة العدالة. ولهذا رأينا بعد سقوط الطاغية صدام، يتعين علينا أن لا ندع فراغاً في مؤسسة الدولة إلّا ونملؤه، يجب أن نملأ الفراغات بدل أن تكون المواقع لأعدائنا، بدل أن تكون لأعداء العراق، بدل أن تكون لعصابات حاكمة، يجب أن نزحف لأخذ مواقع في تلك الدولة، هذه هي نظريتنا في الحقيقة، ولهذا شارك المؤمنون في مجلس النواب وفي الوزارات. وهذا هو معنى: «وَيَمْلِكُ فِي دَوْلَتِكُمْ»، أن لا نكون معزولين، أن لا نكون على الهامش.

البحث الثالث: ما هو حال العالم قبل المهدي ﷺ؟

كان هناك ثمانية معالم لدولة الإمام المهدي ﷺ، لكن فلننظر العالم قبل حكومة الإمام ﷺ ما هي أوصافه؟

هناك أربعة مظاهر للعالم قبل حكومة الإمام المهدي ﷺ:

المظهر الأول: سيطرة الظلم على الأرض:

«بعدما ملئت ظلماً وجوراً»، عن رسول الله ﷺ: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يخرج رجلاً من ولدي - أو من أهل بيتي -، يواطئ اسمه اسمي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً»^(١).

إذن، نفهم من هذا أنه قبل قيام حكومة الإمام المهدي ﷺ فإن الظلم يُسيطر على العالم، يعني ليس بمعنى أنه لا يبقى هناك مجال تحرك، وإنما المقصود أن الهيمنة العالمية للظلم، وليس للحق، وليس للإسلام. وهكذا على مدى العصور السابقة، يوم كانت الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي يوزعون العالم إلى القطبين: القطب الشرقي، والقطب الغربي. والدول الضعيفة إما أن تلتحق بالركب الشرقي، وإما تلتحق بالركب الغربي، وجاءت عدّة دول شكلت مجموعة عدم الانحياز، باعتبارهم لا ينحازون لا للشرق ولا للغرب، لكنهم في الحقيقة تحت الهيمنة العالمية، الآن العالم محكوم بنظرية القطب الواحد، الهيمنة الأمريكية على العالم، والمقصود بالسيطرة على العالم ليس السيطرة الكاملة بحيث لا يوجد عدالة ولا نور ولا حق، هذا لا يمكن، لا بدّ أن يكون هناك للحق وجود بمستوى من المستويات.

إذن، المقصود بالسيطرة يعني الهيمنة، ونحن اليوم شهدنا الهيمنة، هيمنة الظلم، وسيطرة الظلم، إذا كنا في العراق، إذا كنا في دولة عربية أو غير الدول العربية، العالم اليوم تؤثر عليه الدول الكبرى بدرجة كبيرة.

المظهر الثاني: أقول الإسلام:

الروايات تقول: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً ما بدأ، فطوبى للغرباء»^(١)، سيأفل نور الإسلام. ولهذا فإن الإمام المهدي عليه السلام في حكومته ماذا سيفعل؟ سيقوم بعملية تجديد الإسلام، حتى يقول الناس هذا دين جديد، وهو ليس ديناً جديداً، بل هو الإسلام نفسه، هذا هو معنى ما تقوله هذه الروايات الصحيحة، أقول الإسلام يعني أن هناك تراجع في الثقافة الدينية لدى الشعوب، وفي الشعارات والمفاهيم الإسلامية لدى الشعوب، لقد شهدنا ذلك في الحقيقة إلى مطلع القرن الخامس عشر، نحن كنا نعيش ظاهرة أقول الإسلام، ومنذ مطلع القرن الخامس عشر الذي نحن فيه بدأ يسطع نجم الإسلام، من بداية هذا القرن، حيث مضى أربعة عشر قرناً كان الإسلام في أقول، ونوره في تراجع، كان الحديث العالمي حديث اشتراكية، وديمقراطية، وشيوعية، والدين لم يكن له ذكر، ولكن اليوم في الحقيقة فإن عملاق الدين تقدم عالمياً، اليوم الدين يتحرك في العالم، اليوم أصبح الإسلام قطباً عالمياً.

مثلاً فاروق الحسني وزير الثقافة في مصر أعطى تصريحاً قال فيه: إن الحجاب مظهر من مظاهر الرجعية. هذا الحديث كانت شوارعنا

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢١٨؛ كمال الدين: ٦٦؛ مسند أحمد ٢: ٣٨٩؛ صحيح مسلم

تجأهر فيه سابقاً دون ردة فعل ساخطة، ويستطيع أي أحد كان أن يتحدث بذلك، لكن الآن وبمجرد أن تحدث فاروق الحسني وقال: إن الحجاب مظهر من مظاهر الرجعية، احتجوا عليه في البرلمان المصري، الإسلاميون والوطنيون، واضطر الحسني أن يعتزل في بيته؛ لأنه أعطى كلمة تعتبر إساءة للثقافة الدينية، هذا قارنوه مع ما كان عليه الحال قبل ربع قرن، قبل ربع قرن كان الإسلام قد أفل نجمه، ولا أحد يتحدث عن تيار إسلامي، وإنما كانت القومية العربية، والناصرية، والديمقراطية، والاشتراكية، واليسارية، واليمين، واليسار، وحزب البعث، وحزب النهضة، وحزب التقدم، وحزب الإصلاح، كانت تملأ الشارع، وجيلنا جيل ما قبل ربع قرن لم يكن يسمع شيئاً اسمه التيار الإسلامي، أما اليوم فالعالم يهتز بالتيار الإسلامي، في الحقيقة أقول الإسلام نحن شهدناه.

المظهر الثالث: انتشار الفساد:

انتشار الفساد، وانتشار الشذوذ، بحيث يصبح الحق باطلاً والباطل حقاً، والجميل قبيحاً والقبيح جميلاً، الروايات مليئة بالحديث عن مظاهر انتشار الفساد والشذوذ الأخلاقي والجنسي، كما سأقرأ لكم في بعض هذه الروايات:

الرواية تقول: عن النزال بن سبرة قال: خطبنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، فحمد الله ﷻ وأثنى عليه، وصلى على محمد وآله، ثم قال: «سلوني أيها الناس قبل أن تفقدوني» - ثلاثاً -، فقام إليه صعصعة بن صوحان، فقال: يا أمير المؤمنين متى يخرج الدجال؟ فقال له علي ﷺ: «اقعد، فقد سمع الله كلامك وعلم ما أردت، والله ما المسؤول عنه بأعلم من السائل، ولكن لذلك علامات وهيئات يتبع بعضها بعضاً كحذو النعل بالنعل، وإن شئت أنبأتك بها؟»، قال: نعم، يا أمير المؤمنين.

فقال ﷺ: «احفظ، فإن علامة ذلك: إذا أمت الناس الصلاة، وأضاعوا الأمانة، واستحلوا الكذب، وأكلوا الربا، وأخذوا الرشاً، وشيدوا البنيان، وباعوا الدين بالدنيا، واستعملوا السفهاء، وشاوروا النساء، وقطعوا الأرحام، واتبعوا الأهواء، واستخفوا بالدماء، وكان الحلم ضعفاً، والظلم فخراً، وكانت الأمراء فجرة، والوزراء ظلمة، والعرفاء خونة، والقرءاء فسقة، وظهرت شهادات الزور، واستعلن الفجور، وقول البهتان، والإثم والطغيان، وحُلّيت المصاحف، وزخرفت المساجد، وطولت المنارات، وأكرمت الأشرار، وازدحمت الصفوف، واختلفت القلوب، ونقضت العهود، واقترب الموعد، وشارك النساء أزواجهنّ في التجارة حرصاً على الدنيا، وعلت أصوات الفساق واستمع منهم، وكان زعيم القوم أرذلهم، وأتقى الفاجر مخافة شره، وصُدّق الكاذب، واثمن الخائن، واتخذت القيان والمعازف، ولعن آخر هذه الأمة أولها، وركب ذوات الفروج السروج، وتشبه النساء بالرجال، والرجال بالنساء، وشهد الشاهد من غير أن يستشهد، وشهد الآخر قضاء لذمام بغير حق عرفه، وتفقه لغير الدين، وآثروا عمل الدنيا على الآخرة...»^(١).

هذه نماذج من انتشار الفساد.

أيضاً أقرأ لكم رواية ثانية بهذا الصدد.

قيل للإمام الباقر ﷺ: يا ابن رسول الله متى يخرج قائمكم؟

قال ﷺ: «إذا تشبَّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال واكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء، وقبلت شهادات الزور، وردت شهادات العدل واستخف الناس بالدماء، وارتكاب الزنا وأكل الربا وأتقى الأشرار...»^(٢).

(١) كمال الدين: ٥٢٥/ باب ٤٧ / ١.

(٢) بحار الأنوار ٥٢: ١٩١.

هذا إشارة إلى انتشار ظاهرة الفساد.

هذه ثلاثة مظاهر للعالم قبل الإمام المهدي عليه السلام، هذه المظاهر لحد الآن قد أُنجِزت، نحن شهدنا مرحلة أفول الإسلام، ومرحلة هيمنة الظلم، ومرحلة انتشار الفساد.

المظهر الرابع: قيام الدولة الممهدة لدولة الإمام المهدي عليه السلام:

دولة ممهدة له تُسمى في الروايات (الموطئة) يعني الممهدة.

لدينا روايات تؤكد أن دولة الإمام المهدي عليه السلام لا تحدث عبر ثورة عالمية وعبر قفزة وعبر مخاضات دموية، وإنما عبر مراحل تدريجية، إنها تحدث عبر عملية تدريجية، إن هناك مجموعة تنهض وتؤسس دولة ممهدة، ثم تستمر الخطوات وانتشار الإسلام تدريجياً، بحيث يكون مهياً لظهور صاحب العصر والزمان عليه السلام، هذه الروايات هي في مصادر السنة، وفي مصادر الشيعة، كما في كتاب (بحار الأنوار ج ٥١ و ٥٢ و ٥٣) عن مصادره.

وبعض مصادر السنة تقول:

قال رسول الله ﷺ: «يخرج أناس من المشرق...»، يعني: مشرق الحجاز. ثم يقول الشارح - وهو شافعي -: هذا الحديث حسن صحيح روته الثقة والأثبات، وأخرجه الحافظ أبو عبد الله بن ماجة القزويني في سننه كما أخرجه^(١).

ثم تأتي الرواية الثانية، يرويها أيضاً صاحب كتاب (البيان) الشافعي بسنده عن عبد الله بن مسعود يقول: بينما نحن عند رسول الله ﷺ، إذ أقبل فتية من بني هاشم، فلما رأهم النبي اغرورقت عيناه وتغير لونه، فقلنا: ما نزال نرى في وجهك

(١) البيان في أخبار صاحب الزمان: ٤٩٠/ باب ٥.

شيئاً نكرهه؟ فقال: «إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريداً وتطريداً، حتى يأتي قوم من قِبل المشرق ومعهم رايات سود، فيسألون الخَيْر ولا يُعْطَوْنَ، فيقاتلون فينصرون، فيعطون ما سألوا ولا يقبلونه، حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي، فيملؤها قسطاً وعدلاً كما ملؤها ظلماً وجوراً، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج»^(١).

هذه الرواية يمكن لها أن تفتح لنا أفقاً في أنه ما المقصود بهذه الدولة الممهدة الآتية من المشرق؟ لا نستطيع طبعاً أن نتنبأ بقضايا غيبية، ولكن قد يمكن أن نقول: إنه بحمد الله تعالى قد تأسست عندنا دولة إسلامية في المشرق _ قياساً للحجاز _ وهي الدولة الإسلامية في إيران، وهي بيد شيعة أهل البيت عليهم السلام، وقد يقول قائل: إن هذه الرواية فيها قرينة لفظية بهذا المدلول، وهي أنه في الحجاز ليس لدينا ثلج، وفي العراق ليس لدينا ثلج، الرواية تقول: «حبواً على الثلج»، ظاهرة الثلج أين موجودة؟ أين يوجد هذا الثلج، الرواية تقول: «حبواً على إشارة إلى إيران، حيث الثلوج الشتوية التي تغطي المدن. وعلى كل الأحوال فإن الرواية تقول: هناك مجموعات سيمهدون لدولة الإمام المهدي عليه السلام.

نحن بحمد الله نشهد اليوم عصر النهوض الإسلامي، ونحن قبل ربع قرن كنا شهدنا عصر التراجع الإسلامي، واليوم عصر النهوض في العالم العربي والعالم غير العربي...

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة الثالثة والسبعون:

إشكالات على الدولة الدينية

«وَيَكْرِ فِي رَجَعَتِكُمْ وَيَمْلِكُ فِي دَوْلَتِكُمْ،

بسم الله الرحمن الرحيم

ما زال الحديث عن مقاطع هذه الزيارة، واليوم نقرأ هذا المقطع: «فَبَيَّنِّي اللَّهَ أَبَدًا مَا حَيَّتُ عَلَى مَوَالِيكُمْ»، هذه مجموعة مقاصد يطلبها الإنسان ويرجوها من الله تبارك وتعالى وهو يقرأ هذه الزيارة.

أهدافنا ومقاصدنا:

نحن في هذه الزيارة لدينا مقاصد، لدينا أهداف تأتي بصيغة الدعاء، يتمناها الإنسان لنفسه من الله تبارك وتعالى ويرجوها.

أولاً: الثبات على المبدأ: «فَبَيَّنِّي اللَّهَ أَبَدًا مَا حَيَّتُ»، يعني ما دمت حياً طول عمري، أسأل الله أن يثبتني على محبتكم ومودتكم وولايتكم.

ثانياً: «وَوَقَّعَنِي لِبَطَاعَتِكُمْ».

ثالثاً: «وَرَزَقَنِي شِفَاعَتَكُمْ».

رابعاً: «وَجَعَلَنِي مِنْ خِيَارِ مَوَالِيكُمْ».

لأن الناس اثنان: واحد من خيرة الأصحاب، وواحد من شرار الأصحاب. لكن هناك من هو من خيار المسلمين، والآخر هو من شرار المسلمين، نحن نقول: «وَجَعَلَنِي مِنْ خِيَارِ مَوَالِيكُمْ»، من الصالحين، وليس من الموالين غير الصالحين، وعلامة هؤلاء الموالين الصالحين هو الاتباع: «التَّابِعِينَ لِمَا دَعَوْتُمْ إِلَيْهِ»، علامة ذلك الموالي الصالح أنه سلوكياً وعملياً يتبع أهل البيت عليهم السلام، وليس مجرد أن يحبهم، «وَجَعَلَنِي مِنْ خِيَارِ مَوَالِيكُمْ».

خامساً: «وَجَعَلَنِي مِمَّنْ يَفْتَصُّ آثَارَكُمْ وَيَسْلُكُ سَبِيلَكُمْ وَيَهْتَدِي بِهَذَاكُمْ»، نحن في الوقت الذي نحَبِّهم، أيضاً نفتصُّ آثارهم، وتَبَّع خطواتهم، في أيِّ خطوة سلكوا نسلك، وأيِّ خلق مارسوا نمارس.

في قصة موسى والخضر المعروفة عندكم، رغم أن موسى كان نبياً، إلا أن الخضر كان أعلم من موسى، موسى قال له: ﴿هَلْ أَتَبُكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ مِنِّي مَا عُلِّمْتُ رُشْدًا﴾^(١)، أنا أمشي معك وأقتصُّ آثارك وأتعلّم منك، لا أن أسير معك كرفيق سفر. هناك رفيق سفر يستفيد من السفر، وهناك رفيق لا يستفيد، أنت قد ترافق عالماً من العلماء لكن لا تستفيد منه، وأحياناً ترافق عالماً من العلماء وأنت تستفيد منه.

أبو سعيد الخدري يقول: كان عليّ عليه السلام رفيقاً وتلميذاً وأخاً فذاً لرسول الله ﷺ، كيف؟

يقول: كان لعلّي من النبي ﷺ دخلة لم تكن لأحد، وكان للنبي ﷺ من عليّ دخلة ليست لأحد غيره^(٢). لا يفارقه يجلس معه جلسة متعلم.

كثيرون كانوا مع رسول الله ﷺ، لكن من الذي استفاد؟ هو عليّ عليه السلام يقول: «كنت إذا سألت رسول الله ﷺ أنبأني، وإذا سكت ابتدأني»^(٣).

هنا الزيارة تقول: «وَجَعَلَنِي مِمَّنْ يَفْتَصُّ آثَارَكُمْ وَيَسْلُكُ سَبِيلَكُمْ»، يسير بنفس الطريق، ويهتدي بهداكم.

(١) الكهف: ٦٦.

(٢) المصنف للصنعاني ١٠: ١٤٠ / ١٨٦٣٦.

(٣) وسائل الشيعة ١: ٦١؛ سنن الترمذي ٥: ٣٨٠٦ / ٣٠١.

سادساً: «وَيُخْشَرُ فِي زُمْرَتِكُمْ»، نحن ماذا نرجو من الله تبارك وتعالى؟ نحن نرجو أن نُحْشَرَ يوم القيامة في مجموعة أهل البيت عليهم السلام، طبعاً وهذه بشارة لنا.

الرواية عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة أخذ رسول ﷺ بحجزة ربه، وأخذ علي عليه السلام بحجزة رسول الله ﷺ، وأخذنا بحجزة علي عليه السلام، وأخذ شيعتنا بحجزتنا، فأين ترون يوردنا رسول الله ﷺ؟»، قلت: إلى الجنة^(١).

سابعاً: «وَيَكْرُ فِي رَجَعَتِكُمْ».

ثامناً: «وَيَمْلِكُ فِي دَوْلَتِكُمْ».

تاسعاً: «وَيُشْرَفُ فِي عَاقِبَتِكُمْ».

بحث حول الدولة:

«وَيَمْلِكُ فِي دَوْلَتِكُمْ».

هناك دولة دينية، وهناك دولة لادينية، وهناك دولة تحترم الدين، هذه ثلاثة أنواع. الإسلام بماذا يدعو؟

الإسلام يدعو إلى دولة قائمة على أساس الدين، وهذه تُسمى الدولة الدينية، وهي الدولة التي يكون الدين هو الحاكم فيها، في وزاراتها، في دستورها، في مؤسساتها، هذه هي الدولة الدينية.

هناك نموذج آخر، هي: الدولة اللادينية، التي لا تؤمن ولا تلتزم بقيم الدين، وتُسمى الدولة العلمانية، التي ترفض حاكمية الدين، تقول: إن الدولة شيء والدين شيء آخر، لا علاقة بينهما، والدين أحوال

شخصية، من أراد أن يكون متديناً له ذلك، ومن أراد أن لا يكون متديناً له ذلك. هذه نسميها دولة علمانية بالاصطلاح.

هناك دولة من النوع الثالث، مثلما هو واقعنا اليوم في العراق، هل نحن دولة دينية؟ بمعنى أن وضع الدولة قائم على أساس الدين في كل مفاصلها؟ لا.

هل نحن دولة لادينية ترفض الدين؟ لا.

وإنما نحن حسب الظروف التي تحيط بنا، دولة تقوم على أساس احترام الدين، تقوم على أساس احترام الثقافة الإسلامية والهوية الدينية، وهذه حالة وسطى، لا هي دولة دينية كدولة رسول الله ﷺ، ولا هي دولة لادينية مثل الدول العلمانية الأوروبية التي لا تعترف لا بالله ولا بالدين أصلاً، دولتنا وحسب الدستور العراقي، هي دولة صديقة للدين تحترم الدين، ولهذا جاء في الدستور العراقي أن العراق دولة تقوم على أساس احترام الهوية الدينية والثقافة الإسلامية للشعب العراقي.

إشكالات الدولة الدينية:

اليوم يوجد حديث إعلامي يقول: إن الدولة الدينية هي مشروع فاشل، الدولة الدينية فيها مشاكل، الدولة الدينية فاشلة، يجب أن لا تفكروا بقيام دولة دينية، هناك أربعة إشكالات توجّه على الدولة الدينية، ما هي؟

الإشكال الأول: أن الدين غير قادر على إدارة البلاد، الدين عبارة عن أخلاق، وعبارة عن رحمة، وعبارة عن رفق، وعبارة عن صدق. أما الدولة فتحتاج إلى عزم وحزم وشدة، وأخذ بالظنة والتهمة، وجاسوسية،

وما شاكل ذلك. والدين غير قادر على إدارة البلاد؛ لأنه يعتمد الأخلاق. هذا هو الإشكال الأول.

الإشكال الثاني: أن الدين يصادر الحريات، الحريات السياسية، والحريات الفكرية، والحريات الشخصية، والناس يريدون الحريات، والدولة الدينية لا تؤمن بالحريات، فنحن إذن لا نريد إقامة دولة دينية؛ لأنها تصادر الحريات.

الإشكال الثالث: أن الدولة الدينية تؤدي إلى ابتعاد الناس عن الدين؛ لأنهم سوف يحملون الدين جميع المشاكل والظروف الصعبة ويقولون هذا هو الدين، لا خدمات، لا أمن، لا حرية، لا ثروة، لا رفاه، ربما بعض الأصدقاء هكذا يفكر، يقولون: نحن لا نريد دولة دينية؛ لأن الدولة الدينية نتيجتها ابتعاد الناس عن الدين.

الإشكال الرابع: أن الدولة الدينية تؤدي إلى فقد قدسية علماء الدين، فإن العالم الديني قبل أن يكون حاكماً وقاضياً ووزيراً فالناس يحترمونه، لكن حينما يكون العالم الديني حاكماً وقاضياً ووزيراً فإن الناس سوف يسيئون الظن به، وسوف تسقط قدسية العالم الدينية، والأفضل أن يبقى العالم الديني على المسجد وعلى الأمور الخيرية وعلى الصلاة وعلى الفقه، حتى تبقى قدسيته محفوظة لدى الناس.

هذه أربعة إشكالات على الدولة الدينية، وبالتالي يقال: الأفضل أن نبتعد عن تأسيس الدولة الدينية.

ما هو الجواب على هذه الإشكالات الأربعة؟

لكل واحد من هذه الإشكالات جواب خاص به:

جواب الإشكال الأول:

هذا الإشكال ليس له دليل ولا برهان، وإنما هو مجرد ادعاء، فمن قال بأن الدين غير قادر على إدارة البلاد؟ صحيح أن الدين فيه رحمة. وفيه رفق، وفيه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(١)، وفيه أخلاق، لكن في نفس الوقت، فيه إدارة، وفيه قضاء، وفيه ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وفيه ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، والدين فيه حزم، وفيه شدة حينما تكون القضية قضية سياسية وإدارية، وليس فيه دائماً رفق، بل فيه ﴿فَاقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ﴾^(٢)، الدين فيه شدة أيضاً عندما يتعلق بوضع إداري.

أنا أذكر لكم قصة هي في الحقيقة إشارة قرآنية رائعة، قصة سليمان والهدهد، القرآن يذكر هذه القصة، إن سليمان أرسل الهدهد في مأمورية خاصة، ولكنه تأخر قليلاً من الوقت، كان تأخيره عبارة عن عدة ساعات، لاحظوا الحزم الإداري، سليمان كان رئيس دولة، ورئيس

الدولة يجب أن يكون له حزم، سليمان ماذا قال؟

قال: ﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَائِزِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾^(٣)، لقد وضع له عقوبة شديدة؛ لأنه تأخر عن الواجب الإداري عدة ساعات.

في الحقيقة إن سليمان لم يكن قاسي القلب مع الهدهد، بل هذه القصة رمزية، تريد أن تقول أيها الناس، الأنبياء بمقدار الرحمة التي عندهم، كذلك لديهم القدرة والكفاءة الإدارية العالية بحيث لا يقبل تأخر أحد موظفيه.

(١) الأنعام: ١٦٤.

(٢) المائدة: ٣٨.

(٣) النمل: ٢٠ و ٢١.

ولدينا على أرض الواقع تجربة رسول الله ﷺ، الذي أسَّس دولة في المدينة المنورة، ونجح في إرساء قواعد دولة بدءاً من الصفر وأسَّس دولة إسلامية. والإمام عليّ عليه السلام قاد أيضاً التجربة الإسلامية، وخاض حروباً واسعة ضد حركة النفاق، لقد نجح الإمام عليّ عليه السلام في إدارة البلاد لمدة خمس سنوات، وكان الأمن مبسوطاً في البلاد، باستثناء الحركة السياسية المعادية، الإمام عليّ عليه السلام أسَّس نظام الشرطة.

اليوم أيضاً لدينا تجربة على أرض الواقع، تجربة تنتسب إلى الدين، وتجربة يقف على رأسها أحد رجال الدين، ومرجع من مراجع الدين، هي تجربة الجمهورية الإسلامية في إيران، هذه دولة يبلغ عمرها ثلاثين سنة، وهي دولة دينية، وإذا لم نضعها في مصاف الدول الأخرى فهي ليست أقل من الدول الأخرى، دولة كبيرة في مواردها وإمكاناتها، ووضعها السياسي، ووضعها العسكري، والآن هي في مصاف الدول الكبرى، وهي دينية، وأنا لا أتحدث عن تقييم تفصيلي لكل الواقع، لكن على كل حال هذه دولة دينية استطاعت أن تثبت حضورها وفعاليتها وإدارتها السياسية وتقف إلى مصاف الدول المتقدمة، إذن الدين لا يمكن أن يُتهم بأنه غير قادر على إدارة البلاد.

جواب الإشكال الثاني:

حول مصادرة الحريات، الدين يؤمن بالحريات الثقافية، ويؤمن بالحريات السياسية، ويؤمن بالحريات الشخصية بشكل واسع، لكن ليس بشكل مطلق لا حدود له، في زمن الإمام عليّ عليه السلام على سبيل المثال كانت الحريات السياسية بمستوى واسع، في الكوفة كانت اتجاهات

سياسية متعددة، والإمام عليّ عليه السلام - وهو الحاكم - كان يعطيهم إجازة ممارسة النشاطات السياسية، طلحة والزبير استأذنا من الإمام عليّ عليه السلام، وهو يعرف أنهم خرجا لمؤامرة، لكن كان مبدأ الحرية السياسية هو سيد الموقف، كان النصراني يعيش في البلاد الإسلامية بتمام الحرية والحياة الطيبة، وكان يُنفق عليه من بيت المال.

من قال إن الدين يصادر الحريات؟!

نعم، الدين يضع حدوداً للحريات، هناك حدٌ للحريات الثقافية والسياسية والشخصية، وهو أن لا تتلوث البيئة الإسلامية، فكل حرية تلوث البيئة الإسلامية فهي غير مسموح بها.

الإسلام يقول هنا خط أحمر للحرية، أنت نصراني نعم، ولكن غير مسموح لك أن تشرب الخمر في الشارع وتفتح محلات (البارات)، أنت في دينك يجوز لك ذلك، لكن الدولة الإسلامية تريد أن تحافظ على البيئة والجو الإسلامي، هناك حدود للحريات، لكن ليس مصادرة للحريات، والحد الكبير للحريات في الإسلام هو المحافظة على البيئة الإسلامية، وكل ما عدا ذلك يجوز، من الخطأ أن يظن أحد أن الدين يصادر الحريات، وإذا حكم الدين إذن لا حريات سياسية ولا أحزاب ولا ثقافات ولا مذاهب ولا أديان، لا ليس كذلك.

جواب الإشكال الثالث:

وهو أن الحاكمية الدينية تسيء إلى الدين، وأن الناس سينفرون من الدين.

وهذا خطأ، بل إن الناس سوف يرحبون برحابة الدين، يرحبون

بأخلاقية الدين، من الخطأ التصور أنه إذا شهدنا حكماً دينياً إسلامياً إذن فأناس سيخسرون ويتضايقون، وسوف نخسر أكثر مما نربح، نعم، قد نخسر بعض الخسارات، لكن سوف نربح أرباحاً كبيرة لصالح الدين، وكل شيء فيه ربح وفيه خسارة، الدين إذا حكم فربما بعض الناس سيتأذون، لكن الكثيرين من الناس سوف يفرحون.

جواب الإشكال الرابع:

وهو أن العالم والعلماء سيفقدون قدسيتهم.

الجواب عليه:

أولاً: العلماء لا يبحثون عن قدسيات وهمية كاذبة، وما قيمة أن الناس يحبّون هذا العالم الديني دون أن يكون له تأثير في المجتمع؟ هذه قدسيات وقداسات نسميها وهمية، قداسات كاذبة، المهم أن ذلك العالم الديني المقدس هو الذي ينزل ويحمل هموم الناس، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدعو إلى الخير، ويحمل رسالات الله، هذا هو المطلوب، القدسية الصادقة القائمة على أساس دور هذا العالم الديني، والتجربة تقول إن ذلك العالم الديني الذي يخدم الناس أحبّ إلى الناس من ذلك العالم الديني المنزوي، التجربة هكذا تقول.

الإمام عليّ عليه السلام لمواقفه وتصديّيه يقول: «أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها»^(١).

الإمام عليّ عليه السلام أراد أن يقول لا تبحثوا عن قداسة وتقييل يد،
ابحثوا عن خدمة الناس، احضروا اجتماعياً وسياسياً، ولا تسكنوا على
ظلم المظلوم.

والخلاصة أنه:

١ _ ليست القداسة هدفاً.

٢ _ إذا نزل علماء الدين إلى أرض الواقع وخدموا العباد وحملوا
هموم الناس، فإن مجبوبيتهم سواء صارت أكثر أو أقل فإن ذلك ليس هو
المقياس؟ المقياس هو ما يؤدّون من واجبه الديني.
المقياس هو ما فرض الله على العلماء: «أن لا يقارّوا على كظّة
ظالم، ولا سَغَب مظلوم».

هذه مجموعة إشكالات في مسألة الدولة الدينية، وقد أجبنا على
هذه الإشكالات بشكل مختصر.

أريد أن أستعرض معكم معالم دولة صاحب الزمان، هناك
مجموعة معالم ومظاهر نستطيع أن نُسجلها لدولة صاحب العصر والزمان:

معالم دولة صاحب العصر والزمان عليه السلام:

المَعْلَم الأول: أنها دولة عالمية:

ليست دولة في الشرق، ولا في قارة آسيا. وإنما تكون دولة
عالمية، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.
هذه الدولة القادمة هي دولة عالمية، وليست دولة جغرافية في
حدود معينة.

أنا أقرا لكم هذه الرواية عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام: «يبعث

الله رجلاً في آخر الزمان وكَلْبٍ - يعني شدة - من الدهر، وجهل من الناس، يؤيده الله بملائكته، ويعصم أنصاره، وينصره بآياته، ويظهره على الأرض حتى يدينوا طوعاً وكرهاً، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً ونوراً وبرهاناً، يدين له عرض البلاد وطولها، لا يبقى كافر إلا آمن، ولا طالح إلا صَالح...^(١)، إذن هي دولة عالمية، ليست دولة إقليمية، ولا قطرية، بل دولة عالمية.

المَعْلَم الثاني: سقوط القوميات:

في هذه الدولة العالمية تسقط القوميات، تسقط الحدود الجغرافية. ماذا يعني تسقط القوميات؟ ليس معناه أن لا يبقى العرب عرباً، ولا العجم عجماً. لا، يبقى العرب عرباً، والعجم عجماً، والهنود هنوداً، والانكليز انكليزاً، لكن الفواصل القومية والنزعات القومية والتفاضل القومي هذا سيسقط، إنما هي دولة لا قومية، فلا هي دولة عربية، ولا هي دولة فارسية، ولا هي دولة هندية، ولا هي دولة انكليزية، هي دولة دين الله، كل أمة يتحدّثون بلغتهم، القوميات تسقط، ويكون الناس كلهم إخوة على دين الله، ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(٢)، عرباً أو عجماً، الناس سواسية كأسنان المشط^(٣).

المَعْلَم الثالث: أنها دولة مستمرة عمراً:

يعني أن دولة صاحب الزمان عليه السلام هي دولة دائمة، وليست دولة

(١) الاحتجاج ٢: ١١.

(٢) التوبة: ٧١.

(٣) قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، يَتَسَاوُونَ فِي الْحَقِّقِ بَيْنَهُمْ...».

مقطعية زمنياً؛ لأن هناك سؤال: دولة الإمام صاحب الزمان كم عمرها؟ (١٠) سنوات، (٢٠) سنة، (١٠٠) سنة؟ هل هي دولة عالمية؟ أنتم تقرأون على مستوى المكان، ولكن على مستوى الزمان هل هي دولة أبدية، أو هي دولة ممكن بعد مدة تحدث انقلابات عسكرية وسياسية وتفشل هذه الدولة ونرجع للوراء مرة أخرى.

الفكر الديني ماذا يقول؟ السؤال طبعاً مهم، وهذا السؤال لا نستطيع أن نحسم الإجابة فيه، لكن الروايات الدينية المنتسبة للفكر الديني تجعلنا نقرب من فكرة أنها دولة مستمرة عمرها أكثر من (١٠) سنوات، أكثر من (١٠٠) سنة. طبعاً لدينا روايات تقول إن عمرها (٧) سنوات أو (٩) سنوات، ^(١) وتقول إن هذه الـ (٧) سنوات مضروبة في (١٠)، يعني (٧٠) سنة ^(٢). وهناك روايات تقول إن عمر هذه الدولة هي بعدد أصحاب الكهف، ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ ^(٣)، وهناك روايات تقول أن عمرها (٤٠) سنة، ولدينا أيضاً روايات تقول بأن هذه الدولة ستستمر ويستمر عمرها مهدياً بعد مهدي، صحيح أن مؤسسها هو الإمام المهدي عليه السلام، لكنه لا يبقى عمر نوح، لكن أيضاً بعده سيأتي مهدي آخر، وهكذا مهدياً بعد مهدي إلى قيام الساعة.

(١) عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال: «تَمْلَأُ الْأَرْضُ ظِلْمًا وَجورًا، فيقوم رجل من عترتي، فيملأها قسطاً وعدلاً، يملك سبعاً أو تسعاً». (كشف الغمة ٣: ٢٦٧؛ عنه: بحار الأنوار ٥١: ٧٨).

(٢) روى عبد الكريم الخنعمي، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كم يملك القائم عليه السلام؟ قال: «سبع سنين، تطول له الأيام والليالي حتى تكون السنة من سنه مقدار عشر سنين من سنينكم، فيكون سنو ملكه سبعين سنة من سنينكم هذه». (الإرشاد ٢: ٣٠١).

(٣) الكهف: ٢٥.

وأنا أقرأ لكم روايات في هذا الشأن، رواية تقول: «وتظهر له الكنوز، يملك ما بين الخافقين أربعين عاماً»^(١).

هذه رواية الأربعين عاماً. لكن هناك روايات أخرى تقول: إن عمرها دائمي^(٢). رواية تقول إن القائم يملك تسعة عشر عاماً، ثم يملك من بعده رجل من أهل البيت ثلاثمائة سنة ويزداد تسعاً، كما لبث أصحاب الكهف في كهفهم^(٣). وفي رواية عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «إن القائم يملك ثلاثمائة وتسع سنين، كما لبث أهل الكهف في كهفهم، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً»^(٤).

لكن أجمل الروايات وأروعها التي تقول إن عمر دولة الإمام المهدي عليه السلام لا ينقضي، يعني العاقبة البشرية المستقبل البشري هو حاكمية دولة الصلاح المطلق بدون انتهاء حتى انقضاء الخلق، وتعني إلى قيام الساعة.

المَعْلَم الرابع: الثراء الاقتصادي الكبير:

هنا لدينا روايات عديدة عن هذا الثراء الواسع تقول:

(١) الاحتجاج ٢: ١١.

(٢) عن أبي حمزة، عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل أنه قال: «يا أبا حمزة، إن منّا بعد القائم أحد عشر مهدياً من ولد الحسين عليه السلام». أنظر: غيبة الطوسي: ٥٠٤ / ٤٧٨.

(٣) عن جابر بن يزيد الجعفي، قال: سمعت أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام يقول: «والله، ليملكن رجل منّا أهل البيت ثلاثمائة سنة وثلاث عشرة سنة ويزداد تسعاً»، قال: فقلت له: ومتى يكون ذلك؟ قال: «بعد موت القائم». قلت له: وكم يقوم القائم عليه السلام في عالمه حتى يموت؟ فقال: «تسع عشرة سنة من يوم قيامه إلى يوم موته». (راجع: غيبة النعماني: ٣٥٤ / باب ٢٦ / ٣، الاختصاص: ٢٥٧).

(٤) غيبة الطوسي: ٤٧٤ / ٩٧.

«وتخرج الأرض نباتها، وتنزل السماء بركتها، وتظهر له الكنوز»^(١)، هذا كله إشارة إلى الثراء الاقتصادي الكبير.

بعض تلك الروايات تقول: «لو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها، وأخرجت الأرض نباتها، وذابت الشحناء من قلوب العباد، واصطلحت السباع والبهائم، حتى تمشي المرأة بين العراق إلى الشام، لا تضع قدميها إلا على نبات»^(٢)، الرواية تريد القول أن الأرض يصبح فيها نماء اقتصادي وزراعي وثروات زراعية وثروات حيوانية ومعدنية لا نهاية لها.

العديد من الروايات تقول: «تخرج الأرض أفلاذ كبدها، ويحشو المال حشواً، ولا يعدّه عدداً، وذلك حتى يضرب الإسلام بجرائه»^(٣)، وهذه استعارة جميلة (حتى يضرب الإسلام بجرائه)؟ هذه الإبل حين يرفعون عنها الأحمال والأنقال وتجلس، فإذا اطمأنت واستراحت تمدّ رقبتها الطويلة على الأرض وتستسلم للراحة المطلقة، فليس هناك قلق ولا استيحاش من شيء، (جرائها) يعني رقبتها الطويلة حين تضعها على الأرض، يعني الإسلام ينام هادئاً مسيطراً ليس هناك أي قلق عليه.

المُعَلِّمُ الخامس: حاكمية الدين:

وحاكمية الأمة الإسلامية، وحاكمية مذهب أهل البيت عليهم السلام.

لدينا روايات كثيرة في هذا المعنى، وأنا أقرأ لكم رواية واحدة يقول رسول الله ﷺ: «إذا قام قائمهم، وعلت كلمتهم، واجتمعت الأمة على محبتهم،

(١) الاحتجاج ٢: ١١.

(٢) تحف العقول: ١١٥.

(٣) إقبال الطوسي: ٥١٢ / ٢٨ / ١١٢١.

وكان الشانئ لهم قليلاً، والكاره لهم ذليلاً^(١)، فهي واضحة في معنى انتصار مذهب التشيع، وانتشار مودة أهل البيت عليه السلام والارتباط بهم، وغلبة الحق على الباطل. وهذا هو المَعْلَم الخامس من معالم دولة صاحب الزمان عليه السلام.

المَعْلَم السادس: الازدهار الثقافي:

فكما يوجد يومئذٍ ازدهار اقتصادي كذلك يوجد ازدهار ثقافي، أقرأ هذه الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام: «وتوتون الحكمة في زمانه، حتى أن المرأة لتقضي في بيتها بكتاب الله تعالى وسنة رسوله الله ﷺ»^(٢)، إشارة إلى النضج الثقافي، بحيث يصبح لدينا فقيهاً من النساء تستنبط الفتوى وهي جالسة في بيتها، وهذا معناه أن الازدهار الثقافي يشمل المرأة التي كانت في مرحلة من المراحل ممنوعة من العلم، لكن في دولة صاحب الزمان عليه السلام تكون المرأة فقيهة ومجتهدة.

المَعْلَم السابع: التقدم التقني الهائل:

والذي قد نشهد اليوم بعض معالمه، تقول بعض الروايات: إن الإمام صاحب العصر والزمان عليه السلام حين يبعث وكيلاً عنه إلى الغرب أو الشرق يقول له: «عهدك في كفك، فإذا ورد عليك أمر لا تفهمه ولا تعرف القضاء فيه فانظر إلى كفك واعمل بما فيها»^(٣). يفتح كفه فيجد جواب المسألة الفقهية، وهذه النبوءة قبل ألف سنة لم تكن مفهومة، لكن اليوم في عصر الانترنت والهاتف النقال، والموسوعات الفقهية المصغولة عبر الأقراص نراها واضحة ومفهومة.

(١) أمالي الطوسي: ٣٥١/٧٢٦/٦٦.

(٢) غيبة النعماني: ٢٤٥/باب ١٣/٣٠.

(٣) غيبة الطوسي: ٣٣٤/باب ٢١/٨.

الترابط مع قضية الحسين عليه السلام:

الشيء العجيب هو الترابط بين دولة الإمام المهدي عليه السلام وقضية الحسين عليه السلام، فإن الذي نجده في تراثنا الفكري أن الإمام صاحب الزمان عليه السلام لو ظهر تكون قضية الحسين عليه السلام بارزة في مسيرته، وفي خطابه الإعلامي والسياسي.

الرواية تقول: «إذا ظهر عليه السلام أسلم ظهره إلى البيت - الكعبة - ونادى في الناس: يا أهل العالم إن جدِّي الحسين قتلوه عطشاناً»^(١)، يبدو أن قضية الإمام الحسين عليه السلام ليست مسألة عاطفية، بل يبدو أن هذه القضية هي الدم الذي يجري في عروق التاريخ، قد غرست هذه القضية الحياة في الضمير الإنساني.

جاء في زيارة الإمام الحسين عليه السلام: «أشهدُ أنَّكَ قُتِلْتَ وَلَمْ تَمُتْ بَلْ بَرَجَاءِ حَيَاتِكَ أَحْيَيْتَ قُلُوبَ شِيعَتِكَ»^(٢).

ذكر الإمام الحسين عليه السلام له موقع خاص في الحركة الإسلامية والحركة الدينية، ولهذا فإن إمامنا صاحب الزمان عليه السلام في ظهوره يُبرز قضية الإمام الحسين عليه السلام ويؤكد عليها في خطابه.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) شجرة طوبى ٢: ٣٩٨.

(٢) بحار الأنوار ٩٨: ٢٥٥.

المحاضرة الرابعة والسبعون:

موقع أهل البيت عليه السلام بين الغلو والنصب

«مَوَالِي لَا أَحْصِي ثَنَاءَكُمْ وَلَا أَبْلُغُ مِنَ الْمَدْحِ كُنْهَكُمْ»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث عن ظاهرتين واجهتهما حركة الأنبياء ﷺ:

١_ ظاهرة الغلو.

٢_ ظاهرة النُصب.

وكلتا هاتين الظاهرتين هما من أنواع التطرف الديني.

حركة الأنبياء ﷺ شهدت أحياناً حركة غلو لدى بعض أتباعها، وهو تطرف بالمجال الإيجابي، وأحياناً شهدت تطرفاً في المجال السلبي؛ وهو النُصب والعداء.

هذا الموضوع عالجته القرآن الكريم ورسول الله ﷺ والأئمة الأطهار ﷺ كقادة رسالين ابتلوا بكلتا الظاهرتين.

وحديثنا اليوم انطلاقاً من مقطع الزيارة: «مَوَالِيٍّ لَا أُخْصِي ثَنَاءَكُمْ وَلَا أَبْلُغُ مِنَ الْمَدْحِ كُنْهَكُمْ وَمِنْ الْوُضْءِ قَدْرَكُمْ»، بمعنى أنني غير قادر على أن أبلغ معرفة حقيقتكم، مهما أردت أن أمدح وأثني، لكن مقامكم فوق المدح والثناء، ومنزلتكم أعلى من وصفنا.

الذي سنتناوله في البحث هو (موقع أهل البيت ﷺ بين الغلو والنُصب)، وهو حالة الاعتدال، نحن لسنا مع الغلو، ولسنا مع النُصب، وهناك في التاريخ الإسلامي شهد أهل البيت ﷺ غلوّاً، كما شهدوا نُصباً وعداءً مريراً.

المعنى اللغوي للغلو هو: التطرف في المدح.

والنَّصَب هو: المعادة. ولهذا فإن كلمة ناصبي معناها: المعادي لأهل البيت عليه السلام، فحينما يقال: هذا ناصبي يعني هذا مُعادي، وحينما يُقال: هذا مغالي يعني لديه غلو في أهل البيت عليه السلام.

القرآن يدعو للاعتدال:

القرآن الكريم _ كما ذكرت _ ناقش كلا التطرفين، واعتبرهما من الانحراف، ودعا إلى حالة الاعتدال، مثلاً القرآن الكريم حينما يحدثنا عن الغلو الذي ابتليت به الأديان السابقة والأنبياء السابقون، يقول: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾^(١)، يعني أن اليهود غالوا في عُزَيْر، والنصارى غالوا في عيسى، كما فعل عبّاد الأوثان من قبل حينما عبدوا الأصنام، عُزَيْر هو نبي من الأنبياء اسمه العبري (عَزْرَا) فَتَقَرَّبَ إِلَى عُزَيْرٍ، عيسى أصله بالعبري (اليسوع)، لكن بالعربي قُلِّبَتْ فصارت عيسى، كما أن (يوحنا) عُزْرَب وصار يحيى، وعلى كل حال فإن القرآن الكريم يتحدث عن عُزَيْر في القصة المعروفة: ﴿أَوَكَلَّيْ مِرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾^(٢)، اليهود أعجبوا بهذه الظاهرة، أن إنساناً يموت ثم يعود إلى الحياة، فقالوا: هذا تجسّد فيه الروح الإلهي فصار ابنُ الله.

وقالت النصارى: المسيح ابن الله؛ لأن المسيح ابن بغير أب، إذن

(١) التوبة: ٣٠.

(٢) البقرة: ٢٥٩.

هو ابن الله، وهذا غلو، ﴿وَقَالَتِ الْتَصَارِيُّ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾^(١)، القرآن الكريم يقول كلا هذين الاتجاهين هما من التطرف الديني، وهذا شبيه بفكر الوثنيين، كما يقول القرآن: ﴿يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾^(٢)، ماذا قال الذين كفروا؟ أحضروا أصناماً، والأصنام هي بالأصل عبارة عن رجال كانوا صالحين، بالأصل هذا الصنم هو عبارة عن شخصية محترمة، لكن جعلوه إلهاً، وهذا غلو، ثم يأتي القرآن الكريم ويقول: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾^(٣)، وليس ابن الله، كذلك القرآن دائماً يؤكد أن رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء هو بشر: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾^(٤)، التأكيد على ظاهرة البشرية، كي لا يحدث يوماً ما غلوٌ وادعاء الربوبية.

أهل البيت عليهم السلام ينهاون عن الغلو:

أهل البيت عليهم السلام ابتلوا بظاهرة الغلو، كما ابتلوا بظاهرة النصب والعداء الشديد.

الفقهاء يقولون: إن الغلو والنصب هما بمنزلة الكفر، ولهذا فإن في اعتقادنا الفقهي أن المغالي كافر، والمغالي هو الذي يقول إن علياً هو الله، كذلك النصب والعداء لأهل البيت عليهم السلام هو أيضاً كفر بنص القرآن الصريح: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٥)، ذلك الذي

(١) التوبة: ٣٠.

(٢) الآية السابقة.

(٣) النساء: ١٧١.

(٤) الكهف: ١١٠.

(٥) الشورى: ٢٣.

يؤمن بمعاداة أهل البيت عليهم السلام يُعتبر مكذباً للقرآن، إذا كان يعتقد بذلك ويتخذ ديناً ومبدئاً. فهناك من يعاديهم على أساس مصالح، ولكن ليس كعقيدة، يعاديهم ولكن يبكي عليهم، كما حدث في جيش ابن سعد، هذا غير النُصب، النُصب الذي هو بمنزلة الكفر، هو عبارة عن الاعتقاد بعداوتهم، والتدين ببغضهم.

أقرأ لكم روايات بهذا الشأن.

قال رسول الله ﷺ: «لا ترفعوني فوق حقي، فإن الله تعالى اتخذني عبداً قبل أن يتخذني نبياً»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «يا علي، مثلك في أمتي مثل المسيح عيسى ابن مريم، افترق قومه ثلاث فرق: فرقة مؤمنة به وهم الحواريون، وفرقة عادوه وهم اليهود، وفرقة غلّو فيه فخرجوا عن الإيمان، وإن أمتي ستفترق فيك ثلاث فرق: فرقة شيعتك وهم المؤمنون، وفرقة عدوك وهم الشاكون، وفرقة تغلو فيك وهم الجاحدون»^(٢).

الإمام علي عليه السلام نفسه قال: «يهلك في رجلان: محبٌ مفرط، وباهت مفتر»^(٣).

وفي رواية أخرى قال عليه السلام: «هلك في رجلان: محبٌ غالٍ، ومُبغضٌ قال»^(٤).

وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أتى قوم أمير

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢١٧.

(٢) بحار الأنوار ١٠٨: ٣٥٥.

(٣) نهج البلاغة ٤: ١٠٨ / ٤٦٩.

(٤) نهج البلاغة ٤: ٢٨ / ١١٧.

المؤمنين عليهم السلام، فقالوا: السلام عليك يا ربنا، فاستتابهم، فلم يتوبوا، فحفر لهم حفيرة وأوقد فيها ناراً، وحفر حفيرة أخرى إلى جانبها، وأفضى بينهما، فلما لم يتوبوا ألقاهم في الحفيرة، وأوقد في الحفيرة الأخرى حتَّى ماتوا^(١).

نحن نميل إلى أن هذه رواية غير صحيحة، حيث لا يوجد عليها أي دليل تاريخي، ولا يوجد فقهاً ما يسمح بهذا النوع من العقوبة والمعالجة. وعلى كل حال فنحن ضد الغلو.

أما التَّصَبُّب والعداء لأهل البيت عليهم السلام.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «مدمنُ الخمر كعابد الوثن، والناصب لآل محمد ﷺ شرٌّ منهما».

قلت: جعلت فداك، ومن أشر من عابد الوثن؟

فقال عليه السلام: «إن شارب الخمر تدركه الشفاعة يوم القيامة، وإن الناصب لو شفع فيه أهل السماوات والأرض لم يُشفَّعوا»^(٢).

أسباب الغلو:

السؤال: ما هي أسباب الغلو؟

أسباب الغلو أمران:

الأمر الأول: صدور كرامات وعجائب من الشخص الذي يقدِّسونه.

مثلاً عيسى تكلم وهو في المهد، وولد من دون أب. وعُزير مات

مائة عام، ثم بعثه الله تعالى، بعض الناس لا يستوعبون هذه الحالة، وإذا

(١) الكافي ٧: ٢٥٧/باب حدة المرتد/٨.

(٢) ثواب الأعمال: ٢٠٧.

لم يستوعبها سوف يتطرفون في تفسيرها. وكذلك الإمام عليّ عليه السلام صدرت منه عجائب كثيرة، وله كرامات كثيرة، بحيث لا يمكن أن تصدر من بشر عادي.

الأمر الثاني: قلة الوعي، وسطحية الإيمان، وضعف الثقافة الدينية، فلو كان لديهم ثقافة دينية ووعي جيد لم يكن لديهم غلو.

مثلاً أصحاب موسى عليه السلام لما غاب عنهم موسى عمل لهم السامري عجلاً من ذهب، وله حوار أشبه بالإنسان الآلي المتحرك في زماننا، تصوّروا قبل (٣٠٠٠) سنة يرون عجلاً متحركاً آلياً، فأعجبوا وقالوا: هذا هو الله تعالى ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾^(١)، هذا ناشئ من قلة الوعي والثقافة، لهذا فإن القرآن الكريم حينما يستعرض قصة العجل يقول: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾^(٢)، لو كانوا يملكون وعياً لعرفوا أنّ هذا العجل لا يملك إرادة ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه ولا يدافع عنهم. معنى هذا أن الغلو ناشئ من قلة الوعي، فنحن لو عرفنا أن حقيقة أهل البيت وحقيقة الأنبياء عليهم السلام أنهم عبارة عن عباد صالحين ارتبطوا بالله تبارك وتعالى فأعطاهم من الكرامة والقدرة شيئاً عظيماً. مثل إحياء الموتى بإذن الله، ﴿وَأُخْصِيَ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٣)، بمجرد أن نفهم هذه الحقيقة سوف نتبعد عن الغلو، ونقول هؤلاء عباد الله، ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ

(١) طه: ٣٨.

(٢) طه: ٨٩.

(٣) آل عمران: ٤٩.

(٤) مريم: ٣٠.

أسباب العداء:

أما مناشئ النصب فهي:

١ - الحسد.

٢ - معركة المصالح.

وليس سبب النصب هو عدم المعرفة، فالذين قاتلوا الأنبياء عليهم السلام لم توضع عليهم الحقيقة، والذين قاتلوا الأئمة الأطهار عليهم السلام كانوا يعرفون الحقيقة، لكن الحسد ومعركة المصالح هي السبب في النصب لأهل البيت عليهم السلام، وكانت هذه الظاهرة موجودة على طول تاريخ أهل البيت، وهي موجودة إلى يومنا هذا، ظاهرة التكفير للشيعه، وقتل الشيعة، وهذه الظاهرة هي ترجمة أخرى للنصب والعداء لأهل البيت عليهم السلام.

في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «ليس الناصب من نصب لنا أهل البيت لأنك لا تجد أحداً يقول: أنا أبغض محمداً وآل محمد، ولكن الناصب من نصب لكم وهو يعلم أنكم تتولونا أو أنكم تتبرؤون من أعدائنا»^(١)، الذين ينصبون العداء لشيعه أهل البيت عليهم السلام يعرفون أن لا جرم لشيعه أهل البيت إلا محبة أهل البيت عليهم السلام، فلو سألت أولئك الذين فجّروا مرقد العسكريين عليهم السلام لقالوا: نحن لسنا أعداء الحسن العسكري عليه السلام، ولا علي الهادي عليه السلام، ولكن نحن أعداء الشيعة؛ لأنهم يعبدون القبور!! ظاهرة التكفير حاربها أهل البيت عليهم السلام، كما حاربوا ظاهرة الغلو، واليوم نحن نعاني من هذه الظاهرة في العراق، ظاهرة النصب العجيب المهول الذي لا يكاد يُصدق، فهؤلاء يتقربون إلى الله

تعالى بذبح الشيعة، أول من تعرض لهذا العداء هو عليّ والزهراء عليهما السلام،
لقد دخلوا عليه الدار وقادوه مكتوفاً وطلبوا منه البيعة.

فقال: «فإن لم أفعل».

قالوا: إذن يُضرب عنقك^(١).

الزهراء عليها السلام يعلمون أنها سيدة نساء العالمين، وأنها بضعة من
رسول الله ﷺ، يرضى الله لرضاها، ويغضب لغضبها، لكن المصالح
السياسية، وقلّة الإيمان، أو فقد الإيمان جرّهم إلى أن يدخلوا دار الزهراء
عليها السلام ويحرقوها ناراً، حتّى قيل: إن في الدار فاطمة.

قال: وإن^(٢).

هذا عداء لأهل البيت عليهم السلام من اليوم الأول.

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

(١) راجع: الإمامة والسياسة ١: ٢٠.

(٢) راجع: الإمامة والسياسة ١: ٣٠.

المحاضرة الخامسة والسبعون:

دور أهل البيت عليه السلام في النظام الكوني

«وَيَكُفُّ يَنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَكُفُّ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ
تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ».

بسم الله الرحمن الرحيم

حديثنا اليوم عن موضوع مهم، وقوفاً عند قوله:

«وَبِكُمْ يَنْزِلُ الْغَيْثَ وَبِكُمْ يُنْسِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَبِكُمْ يُنْفَسُ الْأَهِمُّ وَيَكْشِفُ الضُّرُّ وَعِنْدَكُمْ مَا نَزَلَتْ بِهِ رُسُلُهُ وَهَبَطَتْ بِهِ مَلَائِكَتُهُ وَإِلَى جَدِّكُمْ بُعِثَ الرُّوحُ الْأَمِينُ».

«وَبِكُمْ يَنْزِلُ الْغَيْثَ وَبِكُمْ يُنْسِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ»، وذلك إشارة إلى أن استمرار النظام الكوني هو من خلال وجودهم. ولولاهم لكانا نشهد انهيار النظام الكوني. هنا الزيارة تقول إن نزول الغيث بهم، واستقامة النظام الكوني بهم، والفرج بهم. ما هو المقصود بذلك؟ هاهنا ثلاثة تفاسير يُمكن أن تُذكر:

نظرية التفويض المطلق:

نظرية التفويض المطلق لأهل البيت عليه السلام، وهذه نظرية تعني أن الله تعالى كما فوض أمر التشريع (الحلال والحرام)، وكما فوض السياسة (الحكم والأمر والنهي) إلى النبي والأئمة عليهم السلام فجعلهم حُججاً لله على الأرض، فهم أصحاب السلطة التشريعية، الولاية السياسية كذلك، جعل لهم الولاية التكوينية، يعني أن لهم ولاية على كل الكون، لهم ولاية على الشمس، ولهم ولاية على البحار، وعلى كل الوجود، هذه النظرية يُسميها

أهل المعرفة (وساطة الفيض)، فهم وسائط في فيض الوجود على الكائنات. وهذا معنى كبير جداً، يعني لا توجد شمس ولا قمر ولا بحار ولا كائنات إلا بواسطة النبي وأهل بيت النبي ﷺ، فمن خلالهم وُجد هذا الوجود، هذه تسمى نظرية (واسطة الفيض)، يعني أن الله تعالى أفاض الوجود على الخلق من خلال النبي وآله عليهم السلام، وهذه النظرية يقبلها البعض، ويرفضها البعض، وهذه النظرية ترتبط بنظرية فلسفية أخرى هي نظرية العقول العشرة، واسمحوا لي أن أفتح نافذة عليها.

نظرية العقول العشرة:

هناك مصطلح فلسفي هو: (العقول العشرة)، هؤلاء الفلاسفة لديهم نظرية، وهي (أن الواحد لا يصدر منه إلا واحد)، وبالتالي تورطوا بمشكلة فلسفية هي أن الله تعالى واحد، وإذا كان الواحد لا يصدر منه إلا فعل واحد وموجود واحد، فكيف يصدر عنه أشياء كثيرة: شمس، وقمر، ومجرات، وغير ذلك. ولأجل التغلب على هذه المشكلة قال الفلاسفة: إن الله تعالى خلق عقولاً عشرة، أول ما خلقه الله هو العقل الأول، والعقل الأول خلق العقل الثاني، والعقل الثاني خلق العقل الثالث، وهكذا إلى العقل العاشر، والعقل العاشر هو الذي خلق هذه الامتدادات والموجودات؛ لأن هذا العقل العاشر كان متعدد الجوانب، فخلق جميع هذه الموجودات، وهذه النظرية أشبه بالخيالية، وهي كذلك ليست دقيقة، ولا هي مقبولة، أن يكون الله تعالى غير قادر على أن يخلق الكون إلا عبر عقول عشرة.

موقع العقل:

وهذا بحث يمكن مناقشته في مجاله، إلا أن ما هو الثابت عندنا إسلامياً: «إن الله تعالى لما _ وفي رواية: أول ما خلق _ العقل، ثم قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إليّ منك، ولا أكملتك إلا فيما أحب، أما إني إياك آمر، وإياك أنهي، وإياك أعاقب، وإياك أثيب»^(١).

هناك روايات موازية لها، عن رسول الله ﷺ: «أول ما خلق الله تبارك وتعالى نوري»^(٢)، قبل أن يخلق آدم، قبل أن يخلق الشمس، أول مخلوق كان قد ترشح من عند الله تبارك وتعالى هو نور نبينا ﷺ، طبعاً ستقولون: كيف؟ أليس نبينا ﷺ وُلد في عام الفيل؟ نبينا من أم وأب، أمه آمنة بنت وهب، وأبوه عبد الله، وولد في زمن معين، في مقطع تاريخي معين هو القرن السادس بعد الميلاد، فإذا كان مولوداً في هذا الزمان، فكيف تقول الروايات: «إن أول ما خلق الله نوري»؟

طبعاً الرواية لا تقول: إن أول ما خلق الله هو النبي، وإنما هو نور النبي، «أول ما خلق نوري»، وهو غير هذا الكيان البدني، هو حقيقة أخرى يُسميها العرفاء: (الحقيقة المحمدية)، وهي إشارة إلى ذات النبي المقدسة وجوهر حقيقته، قبل أن يخلقه الله في هذه الدنيا. الحقيقة المحمدية تعني جوهر النبي، روح النبي، عمق النبي، هذا هو الذي خلقه الله تعالى قبل آدم. الروايات بالاتفاق تقول: «أول ما خلق الله نوري»، ثم

(١) راجع: الكافي ١: ١٠ / باب العقل والجهل / ١؛ بحار الأنوار ١: ٩٧.

(٢) بحار الأنوار ١: ٩٧.

تقلب ذلك النور بين أصلاب الرجال وأرحام الأمهات، إلى أن وصل إلى عبد الله بن عبد المطلب، فكان منه محمد بن عبد الله ﷺ^(١).

بالتأكيد ليس المقصود بالنور الأمواج الضوئية، بل هو رمز إلى عمق الهوية، هوية النبي، شخصية النبي. هذا يسمونه الحقيقة المحمدية.

التفسير الأول: نظرية وساطة الحقيقة المحمدية:

النظرية الأولى تقول: إن هذا الوجود جاء بواسطة النبي، وبواسطة أهل البيت عليهم السلام. فلولاهم لم يكن هناك وجود، ويؤمن بهذه النظرية بعض العرفاء والفلاسفة، ويستدلون عليها ببعض الأدلة، وبروايات موجودة لدينا^(٢).

في ضوء هذه النظرية، فإن السماء هي من نور النبي، الشمس مخلوقة من نور النبي، والقمر كذلك. هذه النظرية لا نستطيع فعلاً الغوص فيها؛ لأن تفسيرها عميق، وقبولها ليس بالشيء الهين، تعالوا نتقل إلى النظرية الثانية.

(١) في الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «إن الله تبارك وتعالى خلق نور محمد ﷺ قبل أن يخلق السماوات والأرض والعرش والكرسي واللوح والقلم والجنة والنار، وقبل أن يخلق آدم ونوحاً وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وداود وسليمان، ... وقبل أن يخلق الأنبياء كلهم بأربعمائة ألف سنة وأربع وعشرين ألف سنة، ... ثم أظهر اسمه على اللوح فكان على اللوح منوراً أربعة آلاف سنة، ثم أظهره على العرش فكان على ساق العرش مثباً سبعة آلاف سنة إلى أن وضعه الله ﷻ في صلب آدم عليه السلام، ثم نقله من صلب آدم إلى صلب نوح عليه السلام، ثم من صلب إلى صلب، حتى أخرجه الله تعالى من صلب عبد الله بن عبد المطلب...» الحديث، (راجع: معاني الأخبار: ٣٠٦).

(٢) منها ما ورد في الحديث القدسي: «وعزتي وجلالي، لولاك ما خلقت الأفلاك...». (راجع: بحار الأنوار ١٥: ٢٨).

التفسير الثاني: نظرية القدرة المشروطة:

النظرية الثانية هي نظرية (القدرة المشروطة)، بمعنى أن أهل البيت عليهم السلام لديهم قدرة كاملة في التصرف بكل الوجود، لكنها قدرة مشروطة. بمعنى أن الأنبياء والأئمة عليهم السلام لهم منزلة عند الله تبارك وتعالى، بحيث لو سألوا الله لك أن يجعلك غنياً لاستجاب الله لهم، ولو سألوا الله تعالى أن ينزل المطر لاستجاب الله لهم، ولو سألوا الله أن يخسف الأرض لاستجاب لهم، فهذا هو فعل الله تعالى، ولكن ببركة النبي ﷺ وبركة الأئمة الأطهار عليهم السلام فإن الحياة مستمرة بدعائهم.

أذكر لكم قصة معروفة جرت في صلح الحديبية: قيل لجابر بن عبد الله الأنصاري: كم كنتم يوم الشجرة؟ قال: كنّا ألفاً وخمسمائة، وذكر عطشاً أصابهم، قال: فأتني رسول الله ﷺ بماء في تور، فوضع يده فيه، فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنه العيون، قال: فشربنا ووسعنا وكفانا. قال: قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنّا مائة ألف لكفانا، كنّا ألفاً وخمسمائة^(١).

جاء الشاعر ونظم هذه القصة بقوله:

يا من يقوم مقام الحمد منفرداً للواحد الفرد لم يولد ولم يلد
يا من تفجرت الأنهار نابعةً من إصبعيه فروى الجيش بالمدد

إشارة إلى هذه القصة في صلح الحديبية.

الحقيقة أن هذا هو فعل الله، لكن فعل الله ببركة النبي ﷺ، وبسبب النبي، وبدعاء النبي، وهذا لا يعني التفويض المطلق، وأن أمر

الكون كله بيد النبي، بل لهم قوة تأثير، كما نحن نقول: رُدَّت الشمس لسليمان عليه السلام، ورُدَّت لعلي عليه السلام بإجماع الرواة، في زمن النبي ﷺ مرة، وفي معركة النهروان مرة ثانية^(١). بما يعني أن هذا الإنسان لديه قدرة تأثير على الوجود.

وفي الحقيقة فإن كلاً من له قدرة تأثير على الوجود، لكن كل واحد بحجم معين، فإن الله تبارك وتعالى فوض الإنسان قدرة تأثير في الوجود، وهذه قضية طبيعية، لكن هذه القدرة هي قدرة مضاعفة لدى الأنبياء عليهم السلام، قدرة تمتد إلى التصرف بالشمس وإلى القمر والنجم.

(١) فروي عن أسماء بنت عيسى أنها قالت: بينما رسول الله ﷺ نائم ذات يوم ورأسه في حجر علي عليه السلام، ففاتته العصر حتّى غابت الشمس فقال: «اللهم إن علياً كان في طاعتك وطاعة رسولك، فاردد عليه الشمس»، قالت أسماء: فرأيته والله غربت ثم طلعت بعدما غربت، ولم يبقَ جبل ولا أرض إلا طلعت عليه حتّى قام علي عليه السلام فتوضأ وصلى ثم غربت.

وأما بعد وفاة النبي ﷺ فإنه: روي عن جويرية بن مسهر أنه قال: أقبلنا مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من قتال الخوارج، حتّى إذا قطعنا في أرض بابل حضرت صلاة العصر، فنزل أمير المؤمنين عليه السلام ونزل الناس، فقال علي عليه السلام: «أيها الناس إن هذه أرض ملعونة، قد عذبت في الدهر ثلاث مرات - وفي خبر آخر: مرتين - وهي تتوقع الثالثة، وهي إحدى المؤتفكات، وهي أول أرض عبد فيها وثن، وإنه لا يحل لنبي ولا لوصي نبي أن يصلي فيها، فمن أراد منكم أن يصلي فليصل»، فقال الناس عن جنبي الطريق يصلون، وركب هو بغلة رسول الله ﷺ ومضى، قال جويرية فقلت: والله لأتبعن أمير المؤمنين عليه السلام ولأقلدنه صلاتي اليوم، فمضيت خلفه، فوالله ما جزنا جسر سوراء حتّى غابت الشمس فشككت، فالتفت إليّ وقال: «يا جويرية أشككت؟»، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، فنزل عليه السلام ناحية، فتوضأ، ثم قام فنطق بكلام لا أحسنه، إلا كأنه بالعبراني، ثم نادى الصلاة، فنظرت والله إلى الشمس قد خرجت من بين جبلين لها صرير. (راجع: من لا يحضره الفقيه ١: ٢٠٤ / ٦١٠ و ٦١١).

فمعنى: «وَبِكُمْ يُنْصَلُّ السَّمَاءُ»، أن الله أعطاكم قدرة التأثير في الوجود، ولو أردتم أن تخسف الأرض وتقع السماء لفعلتم ذلك.
أذكر لكم رواية كي نفهم النظرية.

وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «لما استخرج أمير المؤمنين عليه السلام من منزله خرجت فاطمة صلوات الله عليها خلفه، فما بقيت امرأة هاشمية إلا خرجت معها حتى انتهت قريباً من القبر، فقالت لهم: خلّوا عن ابن عمّي، فوالذي بعث محمّداً أبي ﷺ بالحق إن لم تخلّوا عنه لأنشرون شعري، ولأضعن قميص رسول الله ﷺ على رأسي، ولأصرخن إلى الله تبارك وتعالى، فما صالح بأكرم على الله من أبي، ولا الناقة بأكرم مني، ولا الفصيل بأكرم على الله من ولدي.

قال سلمان رضي الله عنه: كنت قريباً منها، فرأيت والله أساس حيطان مسجد رسول الله ﷺ تقلّعت من أسفلها، حتى لو أراد رجل أن ينفذ من تحتها لنفذ، فدنوت منها فقلت: يا سيدتي ومولاتي، إن الله تبارك وتعالى بعث أباك رحمة، فلا تكوني نقمة، فرجعت ورجعت الحيطان حتى سطعت الغبرة من أسفلها فدخلت في خياشيمنا»^(١).

هذا يعني أن الزهراء عليها السلام لديها قدرة تأثير على هذا النظام الكوني.
القرآن الكريم يتحدث عن قميص يوسف: «الْقَوُةَ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا»^(٢)، ومن مسافة بعيدة بين مصر وفلسطين. وهو قميص ولا يحوي على نوع من الأدوية، لكن هذه هي قدرة تأثير، وهي بإذن الله تعالى.

(١) الاحتجاج ١: ١١٤.

(٢) يوسف: ٩٣.

الزيارة تقول: «وَبِكُمْ يُمَسِّكُ»، فاعل يُمسك هو الله تعالى، يعني ليس أنتم، وإنما هو الله، وهذا توحيد وليس شركاً، نحن لا نقول إن الإمام هو الذي يُمسك الشمس، الله الذي يُمسك الشمس، لكنه يُمسك الشمس بإرادة وصلاح الأئمة وببركة وجودهم. ولهذا نقول: «بِكُمْ يُنْفَسُ اللَّهُمَّ».

أذكر دعاءً يرويه الشيخ الكفعمي في كتاب (البلد الأمين)، دعاء زمن الغيبة، نقول في هذا الدعاء: «اللَّهُمَّ عَظُمَ الْبَلَاءُ وَتَرَحَّحَ الْخَفَاءُ وَأَنْكَشَفَ الْغُطَاءُ وَضَاقَتِ الْأَرْضُ بِمَا وَسِعَتِ السَّمَاءُ وَإِلَيْكَ يَا رَبَّ الْمُشْتَكَى وَعَلَيْكَ الْمُعَوَّلُ فِي الشَّدْوِ وَالرَّخَاءِ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ الَّذِينَ أَمَرْنَا بِطَاعَتِهِمْ وَعَجَّلِ اللَّهُمَّ فَرَجَهُمْ بِقَائِمِهِمْ وَأُظْهِرْ إِغْرَازَهُ».

ثم يقول بعدئذ:

«يَا مُحَمَّدُ يَا عَلِيُّ يَا عَلِيُّ يَا مُحَمَّدُ اكْفِيَانِي فَإِنَّكُمَا كَافِيَايَ يَا مُحَمَّدُ يَا عَلِيُّ يَا عَلِيُّ يَا مُحَمَّدُ أَنْصُرَانِي فَإِنَّكُمَا نَاصِرَايَ»^(١).

هذا كله بإذن الله. أنظروا تسلسل الدعاء: «وَعَلَيْكَ الْمُعَوَّلُ»، ليس المعوّل على النبي، إنما المعوّل والمشتكى والتوكل على الله تعالى. لكن الله تعالى عبر الوسائط «بِكُمْ يُمَسِّكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ»، ما زال النبي ﷺ له قدرة تأثير، وما يزال الإمام المعصوم له قدرة تأثير، فنحن نتوجه إلى الله بهم حينما تقول: «اكْفِيَانِي»، اكفيايني بالله «اكْفِيَانِي فَإِنَّكُمَا كَافِيَايَ»، «أَنْصُرَانِي فَإِنَّكُمَا نَاصِرَايَ»، هذا في الحقيقة ليس بعيداً عن التوحيد، ليس بعيداً عن إرادة الله تبارك وتعالى، بل هو بفعل إرادة الله تبارك وتعالى.

التفسير الثالث: نظرية الهدف من الخلق هو الإنسان الكامل:

أن الله تبارك وتعالى هو الفاعل الأول والأخير، ولكن الله خلق كل الوجود لأجل هذا الإنسان، الإنسان الذي هو خليفة الله في هذا الوجود، وأفضل بني آدم هو النبي ﷺ وآله الأطهار عليهم السلام، فيكون الله تبارك وتعالى قد خلق هذا الوجود من أجل النبي وآل بيت النبي ﷺ، هذا الوجود خلقه الله تبارك وتعالى من أجل الإنسان ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١)، والإنسان الأول والعابد الأول هو النبي ﷺ وآل بيت النبي عليهم السلام، إذن فمن أجلهم جعل الله تعالى الشمس تجري، ومن أجلهم جعل الفلك يدور، وجعل السماء تمطر، ألسنا نعترف بأن الله أمر ملائكته أن يسجدوا لآدم؟ وهم أشرف الخلق، إذن فالمحور الأول هو الإنسان، وهنا حديث معروف يقول: «ما خلقت سماء مبنية، ولا أرضاً مدحية، ولا فلکاً يدور، ولا شمساً تجري، ولا قمرأ يسري إلا بمحبة هؤلاء الخمسة»^(٢)، ويقول علماؤنا عن هذا الحديث _ وهو حديث الكساء _ بأنه مروي بسند صحيح، وله فضل عظيم، حيث يقول في آخر الحديث: «ما ذكر خبرنا هذا في محفل من محافل أهل الأرض وفيه جمع من شيعتنا ومحبينا، وفيهم مهموم إلا وفرج الله همّه، ولا مغموم إلا وكشف الله غمّه، ولا طالب حاجة إلا وقضى الله حاجته...»^(٣).

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) من حديث الكساء، راجع: شرح إحقاق الحق ٢: ٥٥٦.

(٣) المصدر السابق.

المحاضرة السادسة والسبعون:

علوم أهل البيت عليهم السلام

ونقد التفسير الحديثي للقرآن الكريم

«آتَاكُمْ اللَّهُ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ»

بسم الله الرحمن الرحيم

لدينا بحثان:

البحث الأول عن علوم أهل البيت عليهم السلام، انطلاقاً من قوله: «آتَاكُمْ اللَّهُ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ».

والبحث الثاني: عن الطريق إلى الله، واعتبار أهل البيت عليهم السلام هم السبب إلى رضوان الله، وأن الإنسان يحتاج للوصول إلى رضوان الله إلى طريق، ولا يمكن أن يصل إلى رضوان الله بدون طريق، هذا البحث انطلاقاً من قوله في الزيارة: «بِكُمْ يُسَلِّكُ إِلَى الرِّضْوَانِ وَعَلَى مَنْ جَحَدَ وَلَا يَتَكَبَّرُ غَضَبُ الرَّحْمَنِ».

البحث الأول: علمهم ومنزلتهم عليهم السلام:

تقول الزيارة: «وَعِنْدَكُمْ مَا نَزَّلَتْ بِهِ رُسُلُهُ»، يعني أن الكتب السماوية جميعاً موجودة لديكم، التوراة، والإنجيل، وزبور داود، والقرآن الكريم، كلها عندهم، كل العلوم الإلهية موجودة ومخزونة لدى أهل البيت عليهم السلام، ولهذا فإن الإمام علي عليه السلام يقول: «ما نزلت عليه - على رسول الله ﷺ - آية في ليل، ولا نهار، ولا سماء، ولا أرض، ولا دنيا وآخره، ولا جنة ولا نار، ولا سهل، ولا جبل، ولا ضياء، ولا ظلمة إلا أقرأنها وأملاها عليّ فكتبتها بيدي، وعلمني تأويلها وتفسيرها، وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصها وعامها، وأين نزلت،

وفيم نزلت إلى يوم القيامة»^(١)، فكل ما جاءت به الرسل من عند الله تبارك وتعالى هو موجود عند الأئمة الأطهار عليهم السلام.

بهذا الخصوص أقرأ عليكم روايات، والفكرة واضحة:

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه سُئل عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٢)، ما الزبور؟ وما الذكر؟

قال عليه السلام: «الذكر عند الله، والزبور الذي أنزل على داود، وكل كتاب نزل فهو عند أهل العلم، ونحن هم»^(٣).

وعنه عليه السلام حين سأله الراوي: أتى لكم التوراة والإنجيل وكتب الأنبياء؟

قال عليه السلام: «هي عندنا وراثه من عندهم، نقرؤها كما قرؤوها، ونقولها كما قالوا، إن الله لا يجعل حجة في أرضه فيسأل عن شيء فيقول لا أدري»^(٤).

وهناك روايات كثيرة في هذه الدلالة.

الاجتهاد المعاصر في تفسير القرآن:

اليوم يوجد حديث معاصر حول تفسير القرآن الكريم يقول: كما كان يحق للسابقين الاجتهاد في تفسير القرآن، نحن أيضاً يحق لنا أن

(١) تحف العقول: ١٩٦.

(٢) الأنبياء: ١٠٥.

(٣) الكافي: ١/ ٢٢٥/ باب أن الأئمة عليهم السلام ورثوا علم النبي ﷺ /... ٦.

(٤) الكافي: ١/ ٢٧٧/ باب أن الأئمة عليهم السلام عندهم جميع الكتب التي نزلت من عند الله تعالى /... ١.

نجهت في تفسير القرآن، وأصبحوا يفسّرون القرآن بما شاءوا، وكيف شاءوا. ثمّ تطور الموقف وقالوا: وبالتالي أنه لا يوجد تفسير ثابت للقرآن الكريم يكون حجة علينا.

دعونا نفسر القرآن بما يتناسب مع العصر الحديث، وبالتالي حتى التشريعات الإسلامية يجب أن تتغير؛ لأنها تشريعات كانت تتناسب مع ذلك الزمان، ذلك الزمان كانوا يقطعون يد السارق، فجاء القرآن وأكّد الفكرة مسيطرة للواقع القائم يومئذٍ، وليس على سبيل الدوام والأبدية. قال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١)، ولكننا في هذا الزمان، وحيث تغيّرت الثقافة الاجتماعية وسبيل التأديب والتربية والعقوبة، فلا حاجة لقطع يد السارق، في ذلك الزمان كان يوجد قصاص وثورات وتصفيات جسدية، وجاء القرآن وأكّد الفكرة تناسباً مع الثقافات الفكرية يومئذٍ. أما في زماننا حيث لا يوجد ثقافة للقصاص، وإذا لم توجد فلنرفع اليد عن هذا التشريع ونقول: إن هذه الآية القرآنية جاءت لذلك الزمان وليس لزماننا.

هذا فكر حديث مطروح.

مثلاً أحد الكتاب اسمه محمد شحرور، ولديه كتاب في تفسير القرآن، يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾^(٢)، يقول: الذي يوسوس في صدور الناس يعني الذي يوسوس في عظماء الناس وكبارهم؛ لأن الصدور

(١) المائدة: ٣٨.

(٢) الناس: ١ - ٥.

تعني الشخصيات البارزة، ومنه يقال: صدر المجلس، والصدور مرة تُطلق على القلب، ومرة تطلق على الوجه، فيقال: صدر القوم. حينئذٍ يقول محمد شحرور: إن معنى ﴿يُؤَسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾: يوسوس في الشخصيات البارزة والمراجع الدينية؛ لأن هؤلاء هم صدور الناس، وهكذا يفسر قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾^(١)، بأنه في صدور الشخصيات الكبيرة، على كل حال فإن الكلام ليس عن تفسير هذه الآيات، وإنما نحن بصدد الحديث عن المنهج.

هذا الرجل _ وله شيء من الحق _ يقول: إذا كان أبو هريرة يفسر القرآن برأيه، فلماذا أنا لا أفسر برأبي؟ مثلاً الرواية تقول:

سأل أبو حنيفة أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾^(٢)، فقال له: «ما النعيم عندك يا نعمان؟»، قال: القوت من الطعام، والماء البارد. فقال: «لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه، حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها، وشربة شربتها، ليطولن وقوفك بين يديه!» قال: فما النعيم، جعلت فداك؟ قال: «نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد، وبنا اثتلفوا بعد أن كانوا مختلفين، وبنا أَلَفَ الله بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداءً، وبنا هداهم الله للإسلام، وهي النعمة التي لا تنقطع، والله سائلهم عن حق النعيم الذي أنعم الله به عليهم، وهو النبي ﷺ وعترته»^(٣)، هذا النعيم هو الذي يحاسبكم الله تعالى عليه، فالله تعالى لا يحاسب الإنسان على تمره أكلها أو ماء شربه.

الأستاذ (محمد شحرور) يقول: إذا كان من حق إمام من أئمة

(١) العنكبوت: ٤٩.

(٢) التكاثر: ٨.

(٣) تفسير مجمع البيان ١٠: ٤٣٣.

المذاهب في العصر الماضي أن يفسّر القرآن برأيه واجتهاده، إذن لماذا لا يجوز لنا في هذا الزمان أن نفسّر القرآن كما نشاء؟ هذا كلام صحيح.

لكن الإمام الصادق عليه السلام يقول: إن المشكلة في المنهج، ولا يجوز تفسير القرآن بالرأي، سواء القدماء أو المتأخرين.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من فسّر القرآن برأيه، إن أصاب لم يؤجر، وإن أخطأ خرّ أبعد من السماء»^(١).

التفسير بالرأي:

على عهد الإمام الصادق عليه السلام ظهرت مدرسة اسمها (مدرسة الرأي)، حيث يتم إخضاع القرآن والسنة والفقه الإسلامي للرأي، ولقد وقف الإمام الصادق عليه السلام موقفاً متشدداً جداً من هذه المدرسة، فقال: «إن السنة لا تُقاس، ألا ترى أنّ المرأة تقضي صومها ولا قضى صلاتها، إن السنة إذا قيست محق الدين»^(٢)، إن مدرسة الرأي يومئذ هي السبب في ظهور هذا المنهج، حيث أصبحوا يفسّرون القرآن برأيهم، وجاء في هذا الزمان من يقول: إن لي أن أفسّر برأيي، أما أهل البيت عليهم السلام فقد قالوا إن أصل المنهج خطأ، وإنما يجب أن نرجع في تفسير ما هو الغامض من القرآن إلى أهل البيت عليهم السلام، الذين نزل القرآن فيهم، فإذا فسّروا القرآن فذلك التفسير وحده هو المقبول. لماذا؟

لأننا لدينا نوعان من التفسير:

١ - التفسير بالرأي البشري.

(١) وسائل الشيعة ٢٧: ٢٠٢ / ٣٣٥٩٧ / ٦٦.

(٢) الكافي ١: ٥٧ / باب البدع والرأس والمقائيس / ١٥.

٢ _ التفسير بالعلم الإلهي، والمأخوذ من الوحي الإلهي.

والتفسير الأول لا يجوز، والثاني يجوز، ولكنه يختص بأهل البيت عليه السلام، ومن المهم أن تؤكد أننا حينما نتحدث عن التفسير فإنما نقصد اكتشاف مقاصد الآيات وليس معانيها اللغوية.

نحن لا يجوز لنا أن نفسر كتاب الله إلا من خلال اعتماد مصادر الوحي الإلهي، وهي موجودة فقط لدى أهل بيت النبوة عليه السلام.

التفسير الحداثي للقرآن:

اليوم أصبحت لدينا مشكلة معاصرة، وهي محاولات تفسير القرآن واكتشاف بطونه من خلال اعتماد المذاقات البشرية، وانسجاماً مع الثقافة المعاصرة العلمانية.

أين المشكلة في هذه المحاولات؟ نحن نعتقد أن أولئك القدماء الذين فسروا القرآن بالرأي كانوا على خطأ، واليوم حين يحاول البعض أن يفسر القرآن بالرأي فهو على خطأ أيضاً. نحن نستطيع أن نكتشف المعاني اللغوية للآيات القرآنية، وهنا من حق الجميع أن يجتهد، وأن يفسر حسب الدلالات والقرائن اللغوية. لكننا لا نستطيع أن نتحدث عن أعماق ويطون الآيات القرآنية بعيداً عن أهل بيت الوحي والنبوة عليه السلام، فإنهم وحدهم القادرون على معرفة تلك الأسرار، وهذا هو معنى قوله: «وَعِنْدَكُمْ مَا نَزَّلَتْ بِهِ رَسُولُهُ وَهَبَطَتْ بِهِ مَلَائِكَتُهُ وَإِلَى جَدِّكُمْ بُعِثَ الرُّوحُ الْأَمِينُ»، وهناك رأي معاصر يقول: إننا لا نحتاج إلى ذلك، وإنما نعتمد على رأينا، وبالتالي فإن الآيات القرآنية: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾^(١)، «وَلَكُمْ

فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ^(١)، كلها تختص بذلك الزمان، وفي ذلك الزمان حيث كان الحجاب ضرورة اجتماعية شرعها الإسلام: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾^(٢)، ولكن في هذا الزمان لا يوجد ضرورة للحجاب، فرفع اليد عن الآية السابقة؛ لأنها آية متناسبة مع ذلك الزمان، وهكذا نلغي التشريع الإسلامي في كل موضع لا ينسجم فيه مع العصر الحديث، ونكتفي بروح الإسلام. هذا هو التفسير الحداثي للقرآن الكريم.

«آتَاكُمْ اللَّهُ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ»، لعل هذا النص إشارة إلى علوم أهل البيت عليه السلام. فنحن نعتقد أن رسول الله ﷺ والأئمة الأطهار وسائر الأنبياء عليهم السلام هم أعلم كل البشرية، وأهل البيت عليهم السلام لديهم علم الأنبياء السابقين جميعاً.

ولا تستغربوا من هذا الأمر في قصة سليمان ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٍّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ^(٣)، يعني: آتيك بالملكة وعرشها أسرع من رمشة العين! من أين؟ من اليمن إلى فلسطين في مسافة أكثر من (١٠٠٠) كيلو متراً قبل ارتداد الطرف!! الفكر الديني يحلل هذا الأمر أنه لم يكن من خلال استخدام تقنية حديثة عالية ومتطورة جداً، وإنما كان يعرف حرفاً من اسم الله الأعظم، حيث باعتقادنا في الفكر الديني أن كل هذا الوجود يمشي ويجري باسم الله الذي هو سر هذا الوجود، فإذا ارتبط

(١) البقرة: ١٧٩.

(٢) النور: ٣٠.

(٣) النمل: ٣٨ - ٤٠.

الإنسان بذلك السر فسوف تفتح له الآفاق، كما أن روح الإنسان هي سر من أسرار الله، هذا الكون كله يتحرك باسم الله تبارك وتعالى، ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾^(١).

لقد كان ذلك الجندي _ وهو آصف _ يعرف علماً من الكتاب، ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾، كان يعرف حرفاً من اسم الله الأعظم، واستخدم هذه المعرفة، واستطاع بلحظة واحدة أن يجلب العرش من اليمن إلى فلسطين، حيث حكومة سليمان ﷺ.

أهل البيت ﷺ يعرفون من اسم الله الأعظم اثنين وسبعين حرفاً، والمقصود بالحرف ليس هو حروف اللغة العربية، بل هو شيء آخر يُرمز إليه بالحرف، اسم الله يتألف من ثلاثة وسبعين حرفاً، وأهل البيت ﷺ لديهم اثنين وسبعين من ذلك الاسم الأعظم، وهناك حرف واحد عند الله تعالى محجوب لا يعرفه أحدٌ من الخلق^(٢)، وهذا هو معنى «آتَاكُمْ اللَّهُ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ»، لا إبراهيم ﷺ، ولا نوح ﷺ، ولا موسى ﷺ عندهم مثل هذه العلوم.

عن الإمام الصادق ﷺ قال: «إن عيسى بن مريم ﷺ أعطي حرفين كان يعمل بهما، وأعطي موسى أربعة أحرف، وأعطي إبراهيم

(١) هود: ٤١.

(٢) عن أبي جعفر الباقر ﷺ قال: «إن اسم الله الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً، وإنما كان عند آصف منها حرف واحد فتكلم به فحسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس حتى تناول السرير بيده، ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين، ونحن عندنا من الاسم الأعظم اثنان وسبعون حرفاً، وحرف واحد عند الله تعالى استأثر به في علم الغيب عنده، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». (الكافي ١: ٢٣٠ / باب ما أعطي الأئمة ﷺ من اسم الله الأعظم / ١).

ثمانية أحرف، وأعطى نوح خمسة عشر حرفاً، وأعطى آدم خمسة وعشرين حرفاً، وإن الله تعالى جمع ذلك كله لمحمد ﷺ، وإن اسم الله الأعظم ثلاثة وسبعون حرفاً، أعطى محمداً ﷺ اثنين وسبعين حرفاً، وحجب عنه حرفاً واحداً^(١).

والنتيجة هي: «آتَاكُمْ اللَّهُ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ».

منزلة أهل البيت عليهم السلام:

وربما يمكن تقديم تفسير آخر لهذه العبارة، وهو: آتاكم الله منزلة لم يعطها أحداً من الخلائق، فإن منزلة أهل البيت عليهم السلام لم تُعطَ لأحد من الخلائق.

فاطمة عليها السلام هي (سيدة نساء العالمين)^(٢)، وهذه منزلة لم تعطَ لأحد. علي عليه السلام قال عنه جبرئيل في السماء: «لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتى إلا علي»^(٣)، هذه منزلة عظيمة لم ينلها حتى باقي الأنبياء. إذن هذا هو معنى «آتَاكُمْ اللَّهُ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ». نحن في منزلة أهل البيت عليهم السلام لا نحتاج إلى كثير استدلال، فالمسألة واضحة.

«الحسن والحسين سيदा شباب أهل الجنة»^(٤)، هذه منزلة لا تحتاج إلى إضافة حتى نعرف أن منزلة أهل البيت عليهم السلام هي فوق منازل البشر.

(١) الكافي ١: ٢٣٠ / باب ما أعطى الأئمة عليهم السلام من اسم الله الأعظم / ٢.

(٢) أمالي الصدوق: ٣ / ٤٥ / ٧٨.

(٣) الكافي ٨: ٩٠ / ١١٠؛ تاريخ الطبري ٢: ١٩٧.

(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٣؛ مسند أحمد ٥: ٣٩١.

أساطير كاذبة:

بعض الناس يستأنسون بالأساطير، وكثير منها خرافية غير صحيحة، رغم أن كتب الحديث الموسوعية جمعتها باعتبارها تراثاً يجب أن يُحفظ للنقد والاستفادة. اليوم أيضاً هناك كمبيوتر يجمعون فيه آلاف الكتب للاختصار، وتيسير الاستعمال، وخوفاً على تلك الكتب من الضياع، ويومئذٍ كان علماؤنا يخافون على الكتب أن تضيع، فجمعوا كل الكتب في موسوعة تراثية، وأكّدوا أنها كتب بعضها معتمد، وبعضها غير معتمد، وبعضها صحيحة وبعضها غير صحيحة.

موجود لدينا في الكتب كثير من الأساطير، ولكن ليس معناه أننا نقبلها، بل نحقق بها.

من جملة تلك الأساطير رواية يرويها العلامة المجلسي رحمته الله، لكنه يقول: أنا أنقلها عن كتاب غير معروف ليس له مؤلف معروف، ثمّ يقول بالنهاية أنها غير معتمدة، تقول الأسطورة: بينما عليّ عليه السلام واقف في مسجد الكوفة، وإذا بسحابة أضلّت مسجد الكوفة، فأوماً لها فنزلت، ورفع رجله وركبها، ثمّ قال لعمّار: أعطني يدك وقل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾^(١)، ففعل، فركبوا السحابة، يقول عمّار: ما هي إلا ساعة حتى نزلت السحابة، ونزل عليّ عليه السلام منها، وإذا نحن في أمة يتكلمون بكلام غير عربي، وعليّ عليه السلام أصبح يتكلم معهم، وقضينا ساعة، ثمّ قال لي: يا عمّار أتدري أين نحن؟ قال: قلت: لا.

قال: نحن الآن في الجزيرة السابعة من جزر الصين، وهؤلاء الناس أمرنا الله تبارك وتعالى أن نوصل لهم رسالة الإسلام، فنحن نكون عندهم ونعلمهم بلغتهم.

يقول عمّار: وبعدئذٍ رجعنا إلى الكوفة... وصعد الإمام عليّ على المنبر وخطب خطبة قال فيها: لو شئت أن أمد يدي هذه القصيرة من أرضكم الطويلة وأجذب معاوية لفعلت، ثمّ مدّ يده وسحبها ويده شعرات!! ثمّ قال: هذه الشعرات من شارب معاوية. فتعجب الناس!!

يقول عمّار: وبعد مدّة وصَلنا خبر أن معاوية كان جالساً على سريره في الشام في نفس ذلك اليوم، وإذا به وقع مغشياً عليه، فلما قام وجدوا عدة شعرات من شاربه مفقودة^(١)!!

هذه أساطير مفتعلة، وأهل البيت عليه السلام ليسوا بحاجة إليها. لماذا لا نقبل هذه الروايات؟ هل الإمام عليّ عليه السلام ليس لديه هذه الإمكانية؟

طبعاً ليست القضية هي قضية قدرة الإمام عليّ عليه السلام أو عدم قدرته، وإنما لدينا مقياس آخر لنقد الأخبار، وهو مقياس الحكمة، فما هي الحكمة في هكذا تصرفات؟ فهل كل من لديه قدرة يقوم بذلك العمل، حتّى إذا كان عملاً لا مبرر له؟

وهل العمل يتناسب مع ثقافة الناس ووعيهم وأدوات عملهم وحركتهم؟ وما هي الفائدة؟ هناك قانون اسمه الحكمة في التصرف، يجب أن ندرس جميع الأخبار التراثية في ضوء هذا المقياس.

الإمام عليّ عليه السلام لديه قدرة إعجازية كبيرة، لكن تصرفاته حكيمة لا تخرج عن سياقات الحكمة والبلاغة في التصرف، كما أنها تتناسب مع الجو العام.

البحث الثاني: أهل البيت عليهم السلام هم الطريق إلى الله:

«بِكُمْ يُسَلِّكُ إِلَى الرِّضْوَانِ»، يعني بكم يُسلك إلى رضوان الله تبارك وتعالى في مقابل الغضب.

في نفس الوقت فإن اسم خازن الجنة هو (رضوان)، وهناك تفسير آخر للرضوان، وهو عبارة عن مرتبة عظيمة فوق الجنة، وأعظم من الجنة، كما قد تفيده الآية الكريمة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١)، فالرضوان منزلة أعظم من الجنة.

نحن نعتقد أن الوصول إلى الله تعالى يكون عن طريق العمل والجهد، كيف نصل إلى رضوان الله؟ ما الذي يُرضي الله؟ وما الذي لا يُرضيه؟ الفلاسفة قد يقدمون عشرة أدلة على وجود الله، لكن لا يستطيعون أن يقدموا دليلاً واحداً على متى يرضى الله، ومتى يغضب الله، ولهذا يأتي دور الأنبياء، الأنبياء فقط هم الذين يستطيعون أن يكشفوا لنا عوامل الرضا وعوامل الغضب الإلهي، ولهذا تقول الزيارة: «بِكُمْ يُسَلِّكُ إِلَى الرِّضْوَانِ»، وبدونكم لا نستطيع الوصول إلى الرضوان. فنحن بحاجة إلى طريق لله تبارك وتعالى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢)، والوسيلة هم الأنبياء والأولياء والأئمة الأطهار عليهم السلام.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) التوبة: ٧٢.

(٢) المائدة: ٣٥.

المحاضرة السابعة والسبعون:

نتائج موالاة أهل البيت عليهم السلام

يُمُوْا لَا يَكُنْ عَلَمَنَا اللهُ مَعَالِمَ دِينِنَا،

بسم الله الرحمن الرحيم

حديثنا عن المقطع الذي يقول: «بِمُؤَالَاتِكُمْ عَلَّمَنَا اللَّهُ مَعَالِمَ دِينِنَا وَأَصْلَحَ مَا كَانَ فَسَدَ مِنْ دُنْيَانَا وَبِمُؤَالَاتِكُمْ تَمَّتِ الْكَلِمَةُ وَعَظُمَتِ النِّعْمَةُ وَاتْتَلَفَتِ الْفُرْقَةُ وَبِمُؤَالَاتِكُمْ تُقْبَلُ الطَّاعَةُ الْمُفْتَرَضَةُ».

هذه خمس نتائج لموالات أهل البيت عليه السلام:

الأولى: «عَلَّمَنَا اللَّهُ مَعَالِمَ دِينِنَا»، يعني نحن عرفنا معالم الدين من خلال أهل البيت عليه السلام، ومحبة أهل البيت عليه السلام، ولولا محبة أهل البيت عليه السلام لضاعت علينا حقيقة الدين.

الثانية: «وَأَصْلَحَ مَا كَانَ فَسَدَ مِنْ دُنْيَانَا»، صلاح العالم الإسلامي والأمة الإسلامية ووجودهم ككيان اجتماعي، سياسي، حضاري على الأرض إنما كان ببركة موالات أهل البيت عليه السلام.

الثالثة: «وَبِمُؤَالَاتِكُمْ تَمَّتِ الْكَلِمَةُ»، ما هي الكلمة؟ كيف تمت الكلمة؟ هذا يحتاج إلى أن نقف عنده.

الرابعة: «وَعَظُمَتِ النِّعْمَةُ»، بموالات أهل البيت عليه السلام.

الخامسة: «وَاتْتَلَفَتِ الْفُرْقَةُ»، بمعنى المحافظة على وحدة الأمة من خلال محور أهل البيت عليه السلام.

هذه خمس نتائج على مستوى الدنيا، وهناك نتائج على مستوى عالم الآخرة، وهي النتيجة السادسة: «وَبِمُؤَالَاتِكُمْ تُقْبَلُ الطَّاعَةُ الْمُفْتَرَضَةُ»، قبول أعمالنا هي بموالات أهل البيت عليه السلام.

معالم الدين:

نقف عند النتيجة الأولى، وهي: «يُمَوَّلَاتِكُمْ عَلَّمَنَا اللَّهُ مَعَالِمَ دِينِنَا»، حديثنا عن معالم الدين، أو معالم الفكر الشيعي؛ لأننا نفهم الإسلام من خلال ما قدَّمته لنا مدرسة أهل البيت عليه السلام، إذن الفكر الشيعي هو الإسلام الأصيل.

ما هي معالم الفكر الشيعي؟ ما هي متبنياتك الفكرية؟ طبعاً ستقول: (إمامة أهل البيت عليه السلام)، لكن هل يوجد متبنيات فكرية داخل هذه المدرسة، بحيث تميّزنا عن المدارس الأخرى؟ ما هو امتيازنا عن المدارس الأخرى؟ ليس مجرد أن الإمام علياً عليه السلام هو الإمام بعد رسول الله ﷺ، هل لديك شيء آخر لمعالم مذهبك؟ هنا تقول الزيارة: «يُمَوَّلَاتِكُمْ عَلَّمَنَا اللَّهُ مَعَالِمَ دِينِنَا»، ما هي معالم الدين الإسلامي وفق مدرسة أهل البيت عليه السلام، أو ما هي معالم المذهب الشيعي التي أخذناها من أهل البيت عليه السلام؟ هذا ما سوف نتحدّث عنه إن شاء الله تعالى.

صلاح الأمة:

هذه هي النتيجة الثانية: «وَأَصْلَحَ مَا كَانَ فَسَدَ مِنْ دُنْيَانَا»، يعني أن دنيانا التي كانت فاسدة فأصبحت سالحة، قد تقول: نحن شيعة أهل البيت عليه السلام ذقنا الشدائد على طول التاريخ، من قتل، إلى سبي، إلى سجون، إلى تهجير، فكيف تقول الزيارة: «وَأَصْلَحَ مَا كَانَ فَسَدَ مِنْ دُنْيَانَا»؟ حين كان الشيعة يُدفنون أحياء في العصر العباسي هل هذا هو صلاح دنيانا؟ أو على عهد نظام صدام حيث المقابر الجماعية وتدمير القرى والمدن وملاحقة شيعة أهل البيت عليه السلام، فأين الصلاح الذي تتحدّث عنه الزيارة؟

الجواب: هو أن الأمة الإسلامية لولا أهل البيت عليه السلام لما حُفِظَتْ وتكاملت حتّى وصلت إلى نصف العالم، وانتقلت من الجزيرة العربية، ودخل فيها الفرس والترك والروم، هذه الأمة من الذي جمعها؟

الآن لدينا أمة عظيمة هي الأمة الإسلامية، وهذه الأمة التي أصبح لها كيان حضاري وسياسي وتاريخي، فأضحت ثقلًا على الأرض، واليوم هذا الثقل بدأ يشهد حراكاً جديداً، هذه الأمة كيف تكوّنت من مجموعات متفرقة في الجزيرة العربية، ومجموعات أخرى من أمم وشعوب لا تعرف الإسلام، وبدلاً من أن تكون هناك قوميات متعددة متناحرة، وإذا بكل هذه المجموعات انصهرت في بوتقة واحدة هي بوتقة الإسلام، هذا معناه أن النبوة وأهل بيت النبوة استطاعوا أن يكوّنوا هذه الأمة الإسلامية، وهذه الأمة الإسلامية لم تكن إلا بجهود أهل البيت عليه السلام، وبالتأكيد فإن هناك مشاكل وحروب وقتال ودماء وعذاب، وأهل البيت عليه السلام تحملوا القتل والسجون، وشيعتهم تحملوا ما تحملوا، لكن بالمجمل نجحوا في تكوين هذه الأمة، بين أن تكون عبارة عن قبائل وقوميات لا تنتمي إلى دين واحد، وبين أن تكون قبائل وشعوباً وأممًا كلها تنتمي إلى الإسلام.

الشيء الذي صنعه أهل البيت عليه السلام بصبرهم، وعملهم، ومدرستهم الفكرية والجهادية أنهم صنعوا الأمة الإسلامية.

تصوروا لولا تلك الجهود لما كان حالنا أحسن من حال العبيد السود في أفريقيا يُباعون ويشترّون، لولا جهود نبينا ﷺ وأهل البيت عليه السلام، ولحدّ الآن فإن الشعوب الأفريقية هم رقم واحد في تجارة أعضاء

البدن وبيع البشر، ومئات الآلاف يُخطفون من تلك الشعوب وياعون للدول الكبرى، لولا أهل البيت عليه السلام لما أصبحنا أمة كاملة لنا رأينا في العالم، رغم الضربات التي تحملناها، ورغم الفتن الداخلية، رغم ذلك «وَأَصْلَحَ مَا كَانَ فَسَدَ مِنْ دُنْيَانَا».

تمام الكلمة:

هذه هي النتيجة الثالثة: «وَيُمَوَّلَاتِكُمْ تَمَّتِ الْكَلِمَةُ»، أي كلمة؟ هي كلمة التوحيد، التوحيد لا يكون تاماً إلا بموالاتة أهل البيت عليه السلام، هذا ما قاله الإمام الرضا عليه السلام: «كلمة لا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي»، ثم التفت إلى الناس من حوله وهم اثنا عشر ألف شخصاً كانوا في استقبال الإمام حينما أبعد من المدينة المنورة إلى بلاد فارس، فقد استقبلوه في مدينة (مرو) وقالوا: حدثنا.

فقال: «قال الله تعالى: كلمة لا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي»، ثم التفت إليهم وقال: «بشرطها وشروطها، وأنا من شروطها»^(١)، كلمة التوحيد مشروطة بموالاتهم، وبدون موالاتة أهل البيت فهي ناقصة.

وشبيه ذلك ما جاء عن رسول الله ﷺ: «لا تصلوا عليَّ الصلاة البتراء».

قيل: يا رسول الله، وما الصلاة البتراء؟

قال: «تقولون: اللهم صل على محمد وتسكتون، بل قولوا: اللهم صل على محمد وآل محمد»^(٢)، فالارتباط بالنبي ﷺ بدون آل هو ارتباط أبتري، هكذا الارتباط بالله تعالى بدون أئمة الهدى عليهم السلام.

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٤٥ / باب ٣٧ / ٤.

(٢) الصواعق المحرقة: ١٣١؛ ينابيع المودة: ١: ٣٧.

النعمة العظيمة:

«وَعَظَّمَتِ النَّعْمَةُ»، ربما يكون ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(١)، أي نعمة هذه؟ هي نعمة الإسلام، ونعمة الإسلام تتم بالإيمان، وذلك أن الإسلام هو عبارة عن إطار يدخل فيه مجموعة من الناس، لكن جوهر الإسلام هو الإيمان الصادق والتسليم لحكم الله تعالى ورسوله، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾^(٢)، المؤمن لا يردّ على الله ورسوله إذا قال شيئاً، الإسلام إذا نزل إلى القلب صار إيماناً، وإذا صار إيماناً تحول إلى السلوك والعمل. هذه النعمة الكبيرة «وَعَظَّمَتِ النَّعْمَةُ». وهذه النعمة إنما عظمت بولاية أهل البيت عليهم السلام، فلولاً هذه الولاية لكان الإسلام في معرض الفناء والزوال، ولم يتميز المؤمن الحقيقي من المنافق الذي دخل الإسلام لمصالحه الشخصية، ولذا قال تعالى عندما أمر نبيه بالإبلاغ بولاية علي عليه السلام: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾^(٣).

ائتلاف الفرقة:

«وَاتَّخَذَتِ الْفُرْقَةُ» نعم ائتلفت الفرقة، وجهود أهل البيت عليهم السلام هي التي وحدت العالم الإسلامي إلى اليوم، ولولا تلك الجهود لكان العالم الإسلامي ممزقاً، ولكان العالم الإسلامي يشهد حروباً قومية إلى أعلى المستويات، وحروباً طائفية إلى أعلى المستويات.

(١) المائدة: ٣.

(٢) الأحزاب: ٣٦.

(٣) المائدة: ٣.

قد يقول القائل: إن هناك بيننا خلافات، سُنّة وشيعة، ومذاهب، هذا صحيح، لكن لاحظوا أن هناك اجتماع أعظم من الخلاف الموجود الآن، الأمة الإسلامية الآن مجتمعة بشكل كبير، في ولاءاتها، في انتماءاتها، في كيانها، هذا الاجتماع كان بجهود الأئمة الأطهار عليهم السلام الذين حرصوا على وحدة هذه الأمة ولو بالتنازل عن حقوقهم.

أهل البيت عليهم السلام كانوا وما زالوا هم دعاة الوحدة، وسيبقى أهل البيت عليهم السلام هم دعاة الوحدة الإسلامية على مستوى القوميات وعلى مستوى المذاهب الأخرى، ولهذا فإن شيعة أهل البيت عليهم السلام اليوم يُتهمون بأنهم شعوبيون، لكنها في الحقيقة فضيلة، أن يكون الإنسان كما أرادته الإسلام وكما أرادته الله تعالى ﴿شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لَتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾^(١)، قيل عنا: شعوبيون؛ لأننا لا نقبل أن نكون في دائرة ضيقة، نحن نقول إن نور القرآن والإسلام لكل العالم، وليس فقط للجزيرة العربية، يشترك فيه بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، هذه الرؤية العالمية الإنسانية هي الرؤية الصحيحة.

الموالاتة طريق المعرفة:

قبل الحديث عن معالم الفكر الشيعي لا بدّ من الإجابة على السؤال: كيف تكون موالاتة أهل البيت عليهم السلام هي السبب في معرفتنا لهذه المعالم، كما يقول نص الزيارة: ﴿بِمُؤَالَاتِكُمْ عَلَّمَنَا اللَّهُ مَعَالِمَ دِينِنَا؟﴾ هذه قاعدة عظيمة يريد أنتمنا قولها، وهي أن أهل البيت عليهم السلام كانوا هم السبب في صيانة الدين، ولولا أهل البيت عليهم السلام لم يبق للإسلام

عمود، ولم يخضر له عود، ولكان الإسلام أثراً بعد عين لولا مواقف أهل البيت عليه السلام، وبالتالي فإن كل ما يوجد اليوم من معرفة دينية إنما هي امتداد لدور أهل البيت عليه السلام، وبركة موقع أهل البيت عليه السلام، وموالاة أهل البيت عليه السلام.

الإسلام المنتشر اليوم في بقاع الأرض، كل هذا الامتداد الديني إنما هو ببركة أهل البيت عليه السلام وموقعهم، «بِمُؤَلَاتِكُمْ عَلَّمَنَا اللَّهُ مَعَالِمَ دِينِنَا»، ولولا تلك الموالاة لم نعرف معالم الدين.

أهل البيت عليه السلام كانوا هم السبب في بقاء الإسلام، وهنا أحاول أن أتناول هذا الموضوع بشيء من التوضيح، لاحظوا مصادر الإسلام الكتاب والسنة، الكتاب هو القرآن، والسنة سنة النبي ﷺ والأئمة الأطهار عليهم السلام، تعالوا ننظر ماذا فعل أهل البيت عليه السلام من أجل حفظ الكتاب والسنة، بحيث أنه لولا أهل البيت عليه السلام ومواقفهم لما بقى كتاب ولا سنة؟

جمع القرآن:

أول من جمع القرآن الكريم بعد وفاة نبينا ﷺ هو الإمام علي عليه السلام، يقول عليه السلام: «لما توفي رسول الله ﷺ اشتغلت بدفنه والفراغ من شأنه، ثم آليت يميناً أنني لا أرتدي إلا للصلاة حتى أجمع القرآن، ففعلت، ثم أخذته وجئت به فأعرضته عليهم، قالوا: لا حاجة لنا به»^(١)، كان القرآن عبارة عن أوراق وصحف، والصحف آنذاك عبارة عن جذع نخلة أو جلد غزال.

الإمام عليّ عليه السلام أول من تحمّل مسؤولية جمع القرآن الكريم، فجمعه كما أنزل على نبينا ﷺ، آية بعد آية، وفي كل آية كان يكتب الإمام عليّ عليه السلام هامشاً أين نزلت وفيما نزلت، ثمّ قدّمه للخلافة القائمة يومئذٍ وقال: هذا القرآن جمعته لكم، فرأوا هذا مشروعاً عظيماً، لكن هذا المشروع سوف يكون باسم عليّ بن أبي طالب الذي كان يمثل يومئذٍ المعارضة السياسية، ولا يمكن أن يعطوه هذا الامتياز، فلم يقبلوه، وقاموا بعدئذٍ بمشروع جمع القرآن، وجمعوا القرآن على غير الشكل الذي أنزل من حيث ترتيب السور، إن القرآن الذي نقرؤه الآن هو غير متسلسل بحسب ترتيب آيات النزول، فليست الفاتحة هي أول ما نزل من القرآن، ولا الثانية هي سورة البقرة، القرآن الذي بين أيدينا مرتب على أساس السور الطوال والسور القصار، وليس على أساس التاريخ الذي نزلت فيه الآيات، ومع ذلك فقد أمضى أهل البيت عليه السلام هذا الجمع من أجل أن لا يضع القرآن، ولا تختلف كلمة الأمة الإسلامية، وقد كان هذا الجمع على عهد عثمان بن عفان، ولهذا فإن المصحف الذي نقرؤه الآن هو المعروف بمصحف عثمان، لكن تصوروا لولا عليّ عليه السلام ومبادرته لجمع القرآن وضغطه على الحكم القائم يومئذٍ لما جُمع القرآن.

القرآن هو المقياس:

وفي خطوة مهمّة ثانية أكّد أهل البيت عليه السلام على اعتبار القرآن وحده هو المقياس في صحة رواية السُنّة. «إذا جاءكم عنّا حديثان فاعرضوهما على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالفه

فأطرحوه»^(١)، خطوة مهمّة في تأكيد أصالة القرآن وقداسته وصحته المطلقة. الشيء الذي يختلف عن كتاب الله مرفوض، وأن المصدر الأوّل هو القرآن، وهذا ما فرض نفسه على الواقع الإسلامي، فأصبح القرآن لدى كل المذاهب الإسلامية المصدر الأوّل في المعارف الإسلامية والتشريع. لقد حُفِظ القرآن بجهود أهل البيت، وبمشاريع أهل البيت، وبحركة أهل البيت عليه السلام.

تدوين السُنّة:

وأما السُنّة فقد كان تدوينها ممنوعاً، وكذلك تداولها والحديث بها لمدة قرن كامل، ولغاية سنة مئة للهجرة رُفِعَ المنع عن ذلك من قِبَل الملك عمر بن عبد العزيز. سُنّة رسول الله ﷺ كانت من المحرّمات، والأجهزة الأمنية يومئذٍ كانت تلاحق روايات النبي ﷺ، وقد تستغربون هذا الأمر، لكن الجميع يعرف هذه الحقيقة، إلا أنهم يسكتون عنها. لقد منعوا أن تدوّن السُنّة على عهد الخليفة الأوّل والثاني، وكان من يقول: (قال رسول الله ﷺ) يُجلد بالسياط، وكذلك الحال على عهد الخليفة الثالث، ولغاية خلافة وحكومة عمر بن عبد العزيز. هذا الأمر ثابت بإجماع المؤرخين، الخليفة الأوّل حرّم رواية النبي ﷺ، والثاني، والثالث، وجاء الإمام عليّ عليه السلام وفتح الباب في فترة قصيرة مليئة بالحروب، والأئمّة عليهم السلام عملوا خط معارضة في تدوين سُنّة النبي ﷺ، وبعد مئة سنة فُتِحَ الحصار الإعلامي والأمني الذي كان مفروضاً على سُنّة النبي ﷺ، ولولا عليّ عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام الذين أصرّوا دائماً

على أن يتقفوا الأمة على أهميّة السُنّة ونشر الحديث، وأوّل من بدأ بتدوين السُنّة هم شيعة أهل البيت عليهم السلام، حين كان ذلك ممنوعاً بقرار السلطة.

أقرأ لكم بعض الروايات بهذا الشأن من طبقات ابن سعد، وهو من أهم الكتب التاريخية وهو ليس مؤرخاً شيعياً يقول:

إن الأحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطاب، فأنشد الناس أن يأتوه بها - يعني جمعوا له أحاديث النبي ﷺ - فلما أتوه بها أمر بتحريقها^(١). وهكذا أحرقت سُنّة النبي ﷺ، يقول ابن سعد: إلى أن جاء عمر بن عبد العزيز بعد مئة سنة، فقال: أنظروا ما كان من حديث رسول الله، أو سنة ماضية، فاكتبوه، فإني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله^(٢).

وأما الذهبي - وهو من كبار رجال أهل السُنّة - يقول: إن أبا بكر جمع الناس بعد وفاة نبيهم فقال: إنكم تحدّثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشدّ اختلافاً، فلا تحدّثوا عن رسول الله شيئاً، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلوا حلاله، وحرّموا حرامه^(٣).

لقد كانت سُنّة النبي ﷺ في قائمة الممنوعات.

واسمعوا ما يرويه (قرضة بن كعب) قال: لما سيرنا عُمر إلى العراق مشى معنا عمر، قال: أتدرون لم شيعتكم؟ قالوا: نعم، تكرمة لنا.

قال: ومع ذلك أنكم تأتون أهل قرية لهم دوي في القرآن كدوي النحل، فلا تصدّوهم بالأحاديث فتشغلوهم...!!

(١) الطبقات الكبرى ٥: ١٨٨.

(٢) الطبقات الكبرى ٢: ٣٨٧.

(٣) تذكرة الحفاظ ١: ٢.

فلما قدم قرصة قالوا: حدثنا، فقال: نهانا عمر^(١).

عبد الرحمن بن عوف يقول: ما مات عمر بن الخطاب حتى بعث إلى أصحاب رسول الله ﷺ فجمعهم من الآفاق، فيهم عبد الله بن حذيفة، وأبو الدرداء، وأبو ذر، وعقبة بن عامر.

فقال: ما هذه الأحاديث التي أفشيتم عن رسول الله في الآفاق؟

قالوا: تنهانا؟

قال: لا، لكن أقيموا عندي، لا والله لا تفارقوني ما عشت، فنحن أعلم، نأخذ منكم، ونردّ عليكم، فما فارقه حتى مات^(٢).
كان ذلك أول منع من السفر على الصحابة؛ حتى لا ينقلوا سنة النبي ﷺ.

يروى الذهبي يقول: إن عُمرًا حبس ثلاثة: ابن مسعود، وأبا الدرداء، وأبا مسعود الأنصاري، وقال: أكثرتم الحديث عن رسول الله^(٣).
أما عثمان بن عفان فقد أقرّ نفس هذه السنة، حين صعد على المنبر وقال: لا يحل لأحد يروي حديثاً لم يُسمع به في عهد أبي بكر ولا عهد عمر^(٤).

إذن هذه أيضاً استمرارية في المنع، حتى جاء الإمام عليّ عليه السلام بعد خمس وعشرين سنة من المنع لتناقل سنة النبي ﷺ.

خمس وعشرون سنة لم يسمع الناس حديثاً عن رسول الله ﷺ،

(١) تذكرة الحفاظ ١: ٧.

(٢) كنز العمال ١٠: ٢٩٢ / ٢٩٤٧٩.

(٣) تذكرة الحفاظ ١: ٧.

(٤) الطبقات الكبرى ٢: ٣٣٦.

ويومئذ كانت الأحاديث محفوظة في الصدور، وحيث لا كتاب، ولا استنساخ، الإمام عليّ عليه السلام كانت حكومته حكومة حروب، وإلى أن سيطر معاوية على الأمر واستمر في المنع، إلى أن تطور الموقف من منع الرواية، إلى تحريف الرواية، إلى مشروع الكذب إلى مشروع وضع الروايات وجعلها، يعني أن إعلام الحق ممنوع، وإعلام الكذب مسموح، على عهد معاوية تطور الموقف، معاوية أصبح يدعم مشروع وضع الرواية على رسول الله ﷺ، ومنع الروايات الصحيحة، ووضع الروايات الكاذبة.

اسمعوا ماذا كتب، كتب معاوية نسخة واحدة _ وهذا ما رواه ابن أبي الحديد المعتزلي _ إلى عمّاله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممّن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته.

وكتب إلى عمّاله يقول: أنظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته الذي يروون فضائله ومناقبه، أدنوا مجالسهم، وقربوهم، وأكرمواهم واكتبوا إليّ بكل ما يروي رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته، ففعلوا ذلك حتّى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه.

وأصبح معاوية يبعث إليهم الهدايا حتّى كثرت الروايات في فضل عثمان، فكتب معاوية إلى عمّاله: إن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلّا وأتوني مناقضاً له في الصحابة، فإن هذا أحب إليّ وأقرب، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشد عليهم

من مناقب عثمان وفضله... فقرأت كتبه على الناس، فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة^(١).
هذا هو مشروع الإجهاز على حديث الرسول ﷺ، المؤلف من عدة خطوات:

١ _ منع الحديث بالرواية الصحيحة.

٢ _ نشر الأحاديث الكاذبة.

٣ _ دعوة اليهود والنصارى لوضع الروايات الإسرائيلية الكاذبة في مسجد النبي ﷺ، حتى أن عمر بن الخطاب أعطى ساعة واحدة قبل صلاة الجمعة لكي يتحدث أحد علماء النصارى بالمسلمين، وجاء عثمان فجعلها ساعتين، في الوقت الذي يمنع فيه الصحابة من أن يقولوا: (قال رسول الله ﷺ)، لكن يأتي كعب الأبحار اليهودي فيعطى ساعتين في المسجد ليتحدث عن الإسرائيليات!! يا للعجب، سنة النبي ممنوعة، الصحابة ممنوعون، عدا عالم النصارى وعالم اليهود، أقرأ لكم قصة تميم الداري، وهو الراهب النصراني، وكعب أبحار اليهود، وهذا كبير علماء اليهود، هؤلاء دخلوا في الإسلام نفاقاً ووجلاً، وليس قربة إلى الله، إثر حوادث سرقة وما شاكل، وحتى يأمنوا دخلوا الإسلام في قصة طويلة.

كعب الأبحار وهو يهودي أصبح يعظ المسلمين في المسجد، وعندما يأتي شخص إلى الخليفة يسأله مسألة، فإن الخليفة يتجه إلى كعب الأبحار يقول له: ماذا تقول يا كعب؟ وهو بدوره يعطي الفتاوى الشرعية!!، وكان الخلفاء عمر وعثمان

(١) للتفصيل راجع: شرح نهج البلاغة ١١: ٤٤.

ومعاوية يسألونه عن مبدأ الخلق وقضايا المعاد وتفسير القرآن إلى غير ذلك^(١).

لقد كان الموقف الرسمي هو منع السُّنة النبوية، ثم تحريف السُّنة النبوية، ثم اعتماد مصادر نصرانية ويهودية يعلمون المسلمين بها في المسجد النبوي.

أما موقف أئمتنا عليه السلام فحينما استلم الإمام علي عليه السلام الحكم، فتح الباب لرواية السُّنة النبوية، وبقيت السُّنة النبوية يتحدث بها الخط الشيعي، حتى وصلنا لعهد الإمام الصادق عليه السلام، فروى عنه أربعة آلاف رجل عن رسول الله ﷺ، ثم بعد ذلك ظهرت مدرسة أهل السُّنة، وبدأت بتدوين الحديث على عهد عمر بن عبد العزيز في رأس السنة المائة للهجرة، أما قبل ذلك فقد كان الأمر ممنوعاً، نستطيع أن نعرف أن سُنَّة النبي الموجودة اليوم في الكتب لدى السُّنة والشيعية قد حفظها أهل البيت عليهم السلام، ولولا أهل البيت عليهم السلام لما بقيت سُنَّة رسول الله ﷺ.

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) للتفصيل يراجع كتاب (أضواء على السُّنة المحمدية) للكاتب المصري محمود أبو رية.

المحاضرة الثامنة والسبعون:

معالم الفكر الشيعي

﴿يُمَوَّلَاتِكُمْ عَلَّمَنَا اللَّهُ مَعَالِمَ دِينِنَا﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

أذكر لكم اثني عشر معلماً من فكر المذهب الشيعي، تمثل
الخطوط الرئيسية لفكر التشيع:

المعلم الأول: الكمال الإلهي المطلق:

نحن نعتقد بأن الله تبارك وتعالى يمثل الكمال المطلق، حيث لا
نقص، ولا جهل، ولا ظلم، ولا غفلة، ولا نسيان، وأي نقص يُنسب إلى
الله تبارك وتعالى فهو مرفوض عندنا، نحن شيعة أهل البيت عليهم السلام وفق
مدرسة الأئمة الأطهار التي هي ترجمة حقيقية للقرآن الكريم نعتقد
بالكمال الإلهي المطلق، والتي تعني أن الله عادل، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ
أَحَدًا﴾^(١)، و﴿لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾^(٢)، و﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾^(٣)، و﴿لَا يَخْفَى
عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾^(٤).

بعض الروايات التي نقرأها في مصادر العامة تقول: إن الله تبارك وتعالى
ينزل في كل ليلة جمعة إلى الأرض راكباً على حمار، وغيرها من الروايات^(٥).

(١) الكهف: ٤٩.

(٢) البقرة: ٢٥٥.

(٣) الأنعام: ١٠٣.

(٤) آل عمران: ٥.

(٥) راجع ما حكاه ابن أبي الحديد المعتزلي في كتابه (شرح نهج البلاغة ٣: ٢٢٤) قال: وحكي عن
مقاتل بن سليمان، وداود الجواربي، ونعيم بن حماد المصري، أنه في صورة الإنسان، وأنه لحم
ودم، وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان ورأس وعينين، وهو مع ذلك لا يشبه غيره، ولا
يشبهه غيره، وافقهم على ذلك جماعة من العامة ومن لا نظر له.

⇒ وحكى عن داود الجواربي أنه قال: اعفوني من الفرج واللحية وسلوني عما وراء ذلك.

وحكى عنه أنه قال: هو أجوف من فيه إلى صدره، وما سوى ذلك مصمت.

وحكى أبو عيسى الوراق أن هشام بن سالم الجواليقي كان يقول: إن له وفرة سوداء.

وذهب جماعة من هؤلاء إلى القول بالموانسة والخلوة والمجالسة والمحاذنة.

وسئل بعضهم عن معنى قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾؟، فقال: يقعد معه على سريره ويغلفه بيده.

وقال بعضهم: سألت معاذ العنبري، فقلت: أله وجه؟ فقال: نعم، حتى عددت جميع الأعضاء من أنف وفم وصدر وبطن، واستحييت أن أذكر الفرج، فأومأت بيدي إلى فرجي، فقال: نعم، فقلت أذكر أم أنثى؟ فقال: ذكر.

ويقال: إن ابن خزيمة أشكل عليه القول في أنه: أذكر أم أنثى، فقال له بعض أصحابه: إن هذا مذكور في القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَيْسَ الذَّكَرَ كَالْأُنْثَى﴾، فقال: أفدت وأجدت، وأودعه كتابه.

ودخل إنسان على معاذ بن معاذ يوم عيد، وبين يديه لحم في طبخ سكباج، فسأله عن البارئ تعالى في جملة ما سأله، فقال: هو والله مثل هذا الذي بين يدي، لحم دم.

وشهد بعض المعتزلة عند معاذ بن معاذ، فقال له: لقد هممت أن أسقطك، لولا أني سمعتك تلعن حماد بن سلمة، فقال: أما حماد فلم ألعنه، ولكني ألعن من يقول: إنه سبحانه ينزل ليلة عرفة من السماء إلى الأرض على جمل أحمر في هودج من ذهب، فإن كان حماد يروى هذا أو يقوله فعليه لعنة الله. فقال: أخرجه، فأخرج.

وقال بعضهم: خرجنا يوم عيد إلى المصلى، فإذا جماعة بين يدي أمير، والطبول تضرب والأعلام تخفق، فقال واحد من خلفنا: اللهم لا طبل إلا طبلك! فقال له: لا تقل هكذا، فليس لله تعالى طبل، فبكى، وقال: رأيتم هو يجيء وحده ولا يضرب بين يديه طبل، ولا ينصب على رأسه علم، فإذا هو دون الأمير!

وروى قوم منهم أنه نظر في المرأة فرأى صورة نفسه، فخلق آدم عليها.

وروا أنه يضحك حتى تبدو نواجذه.

وروا أنه أمرد جعد قطط، في رجليه نعلان من ذهب، وأنه في روضة خضراء على كرسي تحمله الملائكة.

⇒ ورووا أنه يضع رجلاً على رجل، ويستلقي فإنها جلسة الرب...

هذه المفاهيم هي في مدرسة أهل البيت عليه السلام مفاهيم مرفوضة؛ لأنها لا تتناسب مع القدسية الإلهية ومع الكمال الإلهي المطلق، نحن نعتقد وفقاً للقرآن الكريم حسب قراءة أهل البيت عليه السلام بالكمال الإلهي المطلق، عندما تقرأ أدب أهل البيت عليه السلام تجد شيئاً عجيباً في وصف الله تبارك وتعالى وتنزيهه عن أي نقاط نقص.

الإمام علي عليه السلام في دعاء الصباح يقول: «يَا مَنْ ذَلَّ عَلَى ذَاتِهِ بِذَاتِهِ وَتَنَزَّ عَنْ مُجَانَسَةِ مَخْلُوقَاتِهِ وَجَلَّ عَنْ مُلَاءَمَةِ كَيْفِيَّاتِهِ يَا مَنْ قُرْبَ مِنْ خَطَرَاتِ الظُّنُونِ وَبَعْدَ عَنْ لَحْظَاتِ الْعُيُونِ وَعَلِمَ بِمَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ يَا مَنْ أَرْقَدْتَنِي فِي مَهَادٍ أَمْنِهِ وَأَمَانِهِ وَأَيْقَظَنِي إِلَى مَا مَنَحَنِي بِهِ مِنْ مَنِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَكَفَّ أَكْفَ السُّوءِ عَنِّي يَدِيهِ وَسُلْطَانِهِ»^(١)، هذا عرض جميل للكمال الإلهي المطلق.

المعلم الثاني: إرادة الإنسان وحرية اختياره:

وهنا يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين»^(٢)، الإنسان ليس مكرهاً على أعماله، ولا هو مطلق الاختيار بعيداً عن القدر الإلهي، هذه هي رؤية أهل البيت عليه السلام في أعقد مسألة فلسفية، وهي إرادة الإنسان، هل أن هذا الإنسان يخضع لحتمية تاريخية، أو حتمية وراثية، أو اقتصادية، أو بيئية؟ أم هو يتمتع بإرادة حرة رغم كل تلك العوامل المؤثرة

→ وقال بعضهم: إنه ينزل على حمار في صورة غلام أمرد، في رجليه نعلان من ذهب، وعلى وجهه فراش من ذهب يتطاير.

وقال بعضهم: إنه في صورة غلام أمرد صبيح الوجه، عليه كساء أسود، ملتحف به.

(١) بحار الأنوار ٩١: ٢٤٣.

(٢) الكافي ١: ١٦٠/ باب الاستطاعة/ ١٣.

والضاغطة؟ إذا قلت: إنه يخضع للحتميات الواحدة أو المتعددة، إذن لماذا خلق الله الجنة والنار؟ وإذا قلت: إنه يملك إرادة مطلقة، إذن فذاك نفي لتأثير البيئة والاقتصاد والتأريخ والوراثة!!، نحن في مدرسة أهل البيت عليه السلام نعتقد بإرادة الإنسان، وأن الإنسان هو الذي يصنع قراره ويصنع مصيره، ولهذا فإن الله تبارك وتعالى يشبه ويعاقبه، وأن العوامل المؤثرة الأخرى هي عوامل ضاغطة وليست حتمية. مدرسة أهل البيت عليه السلام آمنت بهذه النظرية، وهي الإرادة النسبية، وليست الإرادة المطلقة.

المعلم الثالث: عصمة الأنبياء والأئمة الأطهار عليهم السلام:

شيعا أهل البيت عليهم السلام تعتقد بأن نبينا ﷺ والأنبياء كلهم والأئمة كذلك معصومون عن الذنب وعن الخطأ، وعلى الأقل في الدائرة الضيقة وهي:

١ - معصومون عن الذنب.

٢ - ومعصومون عن الخطأ في مجال إيصال الرسالة.

وفي ضوء ذلك نحن نرفض أن يقال لرسول الله ﷺ: (إن النبي ليهجر)^(١)، فمدرسة أهل البيت عليهم السلام تقول بعصمة النبي ﷺ وكل

(١) قالها عمر، وكان رسول الله ﷺ أفاق في مرض وفاته وقال: «انتوني بدواة وكتف أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً»، ثم أغمي عليه. فقام بعض من حضر من أصحابه يلتمس دواة وكتفاً، فقال له عمر: ارجع فإنه يهجر!! فرجع. فلما أفاق ﷺ قال بعضهم: ألا نأتيك يا رسول الله بكتف ودواة؟ فقال: «أبعد الذي قلتهم!! لا، ولكن احفظوني في أهل بيتي...» فلم يزل يردد ذلك حتى أعرض بوجهه عن القوم، فنهضوا. وبقي عنده العباس والفضل وعلي عليه السلام وأهل بيته خاصة، فقال له العباس: يا رسول الله، إن يكن هذا الأمر فينا مستقراً من بعدك فبشرنا، وإن كنت تعلم أنا نغلب عليه فأوص بنا، فقال: «أنتم المستضعفون من بعدي» واصمت، ونهض القوم وهم يكونون. راجع: (إعلام الوری ١: ٢٦٦).

الأنبياء ﷺ من الذنوب ومن الخطأ في تبليغ الرسالة، كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾^(١)، يعني لو أن هذا النبي أراد أن يتكلم غير ما أوحينا إليه ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾^(٢).

المَعْلَمُ الرابع: إمامة أهل البيت ﷺ:

والإمامة بالمصطلح المعاصر تعني القيادة، نحن نعتقد أن أهم معالم الفكر الشيعي هو امتداد الإمامة بعد رسول الله ﷺ في أهل بيته ﷺ.

من هو مصدر التشريع الفكري والسياسي؟

شيعة أهل البيت يعتقدون أن الإمامة الفكرية والسياسية بعد رسول الله ﷺ هي لأهل البيت ﷺ، كما قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»^(٣).

المَعْلَمُ الخامس: الأئمة ﷺ اثنا عشر:

لا خمسة ولا سبعة، نؤمن بآخريهم كما نؤمن بأولهم، «مُؤْمِنٌ بِسِرِّكُمْ وَعَلَانِيَتِكُمْ وَشَاهِدِكُمْ وَغَائِبِكُمْ وَأَوَّلِكُمْ وَآخِرِكُمْ وَمَقْوَضٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَيْكُمْ»، وقد قال رسول الله ﷺ: «يا جماع كتب الحديث لدى

(١) الحاقة: ٤٤ و٤٥.

(٢) الحاقة: ٤٥ و٤٦.

(٣) الإرشاد ١: ٢٣٣؛ ونحوه في: مسند أحمد ٣: ٥٩؛ سنن الترمذي ٥: ٣٢٩.

الشيعة، كما في صحاح أهل السُّنة، كما في صحيح البخاري: «الخلفاء من بعدي اثنا عشر كلهم من قريش»^(١).

نحن نعتقد أن الأئمة اثنا عشر، هؤلاء الذين نزل النص فيهم، ولهذا يُطلق علينا الإمامية الاثنا عشرية، وهناك شيعة يوالون أهل البيت عليه السلام، ويعتقدون بإمامتهم، لكن لا يعتقدون بالأئمة الاثني عشر، مثل الإسماعيلية الذين يعتقدون بالإمام عليّ والحسن والحسين وزين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق عليه السلام، ثم إسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق ويقفون عنده. وطائفة أخرى هي الواقفة أو الواقفية، هؤلاء يقفون عند الإمام موسى بن جعفر وتنتهي الإمامة، أما نحن الإمامية الاثنا عشرية فنعتقد بامتداد الإمامة المنصوصة إلى اثني عشر إماماً، آخرهم المهدي المنتظر الموعود عليه السلام.

المَعْلَم السادس: غيبة الإمام الثاني عشر:

حيث نعتقد أن الإمام الثاني عشر الذي هو حجة الله على الخلائق جميعاً هو مولود وموجود، وهو الإمام الحجة بن الحسن العسكري عليه السلام، وقد ثبت في الصحيح من الروايات قوله ﷺ: «للم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج رجل من ولدي – أو من أهل بيتي – يواطئ اسمه اسمي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً»^(٢)، نحن الآن في مرحلة الغيبة، وبعدها لدينا مرحلة الظهور، وذلك عند ظهور الإمام الثاني عشر عليه السلام بعد غيبة طويلة.

(١) رواه جمهور المسلمين بألفاظ متفاوتة والمعنى واحد، راجع: أمالي الصدوق: ٣٨٧

٤٩٩ / ٤٨ دلائل الإمامة: ١٩؛ مسند أحمد: ٥: ٨٧؛ صحيح البخاري ٨: ١٢٧؛ صحيح

مسلم ٦: ٣، سنن الترمذي ٣: ٣٤؛ مستدرک الحاكم ٣: ٦١٧؛ ... وغيرهم.

(٢) روضة الواعظين: ٢٦١؛ الإرشاد ٢: ٢٤٠؛ سنن الترمذي ٣: ٣٤٣.

المَعْلَم السابع: الرؤية الواقعية للتأريخ:

وهذه قضية نسجلها في معالم الفكر الشيعي.

كيف نقرأ تاريخ الأمة الإسلامية؟ هل هو تاريخ مثالي، تأريخ أبيض ساطع، أم هو تاريخ فيه الخطأ وفيه الصواب، وفيه العدالة وفيه الظلم، وفيه الجريمة، وفيه كل شيء؟

أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم يتميزون بالرؤية الواقعية لقراءة التاريخ كما هو ثابت في الحديث عن رسول الله ﷺ، وكما تحدّث به القرآن الكريم. القرآن الكريم ما هي رؤيته لبني إسرائيل؟ وهم جماعة يعقوب وأولاده، وإسرائيل هو اسم يعقوب، القرآن الكريم يتحدّث عنهم على أنهم أمة سيئة، ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(١)، القرآن يعطي نظرة واقعية، أنهم انحرفوا حين أصبحوا أمة كبيرة متشعبة.

عجباً أمة النبي ﷺ، هل هي أمة مقدسة بالمطلق بلا خطأ ولا معصية وكلهم ناس من أهل الجنة؟! هذه نظرة مثالية وليست واقعية، ماذا كان القرآن يتحدّث عن هذه الأمة في زمن النبي ﷺ؟ كان هناك نفاق، وإيذاء لرسول الله، ﴿لِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٢).

﴿لِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً﴾^(٣).

﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾^(٤).

(١) المائدة: ٧٨.

(٢) الحجرات: ٤.

(٣) الأحزاب: ٥٧.

(٤) الأنفال: ٤٩.

وكان القرآن الكريم يتحدث عن السفهاء ويقول: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾^(١)، في زمن النبي ﷺ كان هناك أشكال من الناس، كان هناك من دخل الإسلام انتهازياً، أو تجربة، أو صادقاً، في القرآن الكريم سورة كاملة تتحدث عن المنافقين. إذن بعد النبي ﷺ هل تغير التأريخ مئة بالمئة؟ وبمجرد أن مات النبي أصبحت الأمة نقية (١٠٠٪)؟ هذه نظرة كاذبة غير واقعية، النظرة الواقعية التي يرسمها أهل البيت عليه السلام وشيعتهم للتأريخ بعد رسول الله ﷺ هو ما كان يقوله رسول الله ﷺ بإجماع المؤرخين: «لتركين سنن من كان قبلكم حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»^(٢)، أنتم ستصبحون كالأمم السابقة، ومثل أمة بني إسرائيل.

هذه أحاديث ثابتة عن رسول الله ﷺ، إذن رؤيتنا لتأريخ الأمة بعد رسول الله ﷺ هي رؤية واقعية تحدث عنها القرآن، وتحدث عنها الرسول ﷺ. يعني أننا لا نمنح هذه الأمة صفة القداسة المطلقة، ولا نمنحها صفة الجريمة المطلقة، نحن نقول هناك صالحون، وهناك غير صالحين، ونعتقد أن هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ شهدت انحرافات عديدة، وشهدت نقاط قوة عديدة.

هذه الأمة شهدت اتجاهات سياسية واتجاهات دينية مختلفة، فهل نستطيع أن نقول: إن هذه الأمة مقدسة (١٠٠٪)؟ لا، ولهذا نحن ننظر إلى التاريخ ليس كما ينظر إليه أتباع المذاهب الأخرى، فالتاريخ ليس تاريخاً

(١) النساء: ١٤٢.

(٢) بحار الأنوار ٥١: ١٢٨؛ سنن الترمذي ٣: ٣٢١ باب لتركبن سنن من قبلكم؛ مستدرک

أبيض، بل كان فيه الكثير من النقاط السوداء، التاريخ الذي يَقْتُل آل رسول الله ﷺ، ويحمل رؤوسهم على الرماح ويطاف بهم في البلدان هذا تاريخ أسود ولا يمكن تقديسه.

المَعْلَم الثامن: الموقف من الحاكم الجائر:

مدرسة أهل البيت ﷺ لا تقبل الحاكم الجائر، ولا تقبل له بيعة، ولو ببيع الحاكم الجائر ألف بيعة فهي باطلة.

الإمام الحسين في بداية ثورته قال ﷺ: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، ثم لم يغير بقول ولا فعل، كان حقيقاً على الله أن يدخله مدخله»^(١).

الحاكم الجائر ليس له شرعية، هذه مدرسة، والمدرسة الأخرى هي مدرسة أهل السنة التي تعتقد بوجوب السمع والطاعة: «اسمع وأطع ولو لعبد مجدع الأطراف»^(٢)، صدام، أو يزيد، أو الحجاج، أما مدرسة أهل البيت ﷺ فهي ترفض الحاكم الجائر.

المَعْلَم التاسع: موقع الأمة:

فهل الأمة لها صلاحيات مطلقة كما تقول الديمقراطية أن مصدر كل السلطات هي الأمة، أم أنها تبعية مطلقة: «اسمع وأطع ولو لعبد حبشي»^(٣)، كما تقول المدرسة الأشعرية، أم للشيعية رأي آخر؟

(١) بحار الأنوار ٤٤: ٣٨٢.

(٢) مسند أحمد ٥: ١٦١.

(٣) صحيح البخاري ١: ١٧١.

شيعة أهل البيت عليهم السلام لهم رأي آخر تُسميه المشاركة بين الإمام والأئمة، الأئمة لها صلاحيات، لكن المرشد لها والشاهد عليها هو الإمام، كما قال القرآن الكريم: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾^(١)، هذا الموقع هو الذي كتب به أستاذنا الشهيد السيد محمد باقر الصدر رحمته الله كتاباً اسمه (خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء)، نحن لا نعتقد بأن الأئمة لها صلاحيات مطلقة، بل نعتقد أن الأئمة لها صلاحيات نسبية توزع بينها وبين الإمام، نسميها نظرية المشاركة بين الأئمة وبين الإمام^(٢).

المعلم العاشر: إشراف الفقهاء:

بعد النبي والأئمة عليهم السلام وفي زمن الغيبة، وحيث أن الأئمة ليست هي مصدر السلطات بشكل مطلق، وإنما هي مصدر نسبي كما شرحنا، والحاكم الجائر ليس له بيعة في رقاب الناس، إذن من هو الحجة على الناس؟

مدرسة أهل البيت عليهم السلام تقول: في زمن الغيبة إن الإمام المعصوم الغائب له نواب يتمتعون بموقع الولاية والإشراف على حركة الأئمة. هذه نيابة الفقهاء الذين يمثلون الإمام المعصوم، يقول الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «أنظروا إلى من كان منكم قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فارضوا به حكماً، فإنني قد جعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه، فإنما يحكم الله قد استخف، وعلينا رد، والراد علينا الراد على الله، وهو على حدّ الشرك

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) راجع للتوسع كتابنا (المذهب السياسي في الإسلام).

بالله^(١)، هذه النظرية في الفقه الشيعي هي مغلّم واضح من معالم مدرسة أهل البيت عليه السلام، وهي نقطة القوة الكبيرة في حركتهم السياسية. المرجعية الدينية هي أعظم نقطة قوة عند شيعة أهل البيت عليه السلام، ولو لم تكن لديهم مرجعية لم يستطيعوا أن يحققوا دولة إسلامية في إيران، ولا هذا التحول الكبير في العراق، ولا استطاعوا أن يكونوا دائماً في مواقع دفاعية كبيرة أمام الهجمات الفكرية والسياسية.

الإمام الحسن العسكري عليه السلام يقول: «من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه»^(٢).

المعلّم الحادي عشر: مصادر التشريع عبارة عن الكتاب والسنة:

ولا يجوز اعتماد مصدر آخر، يعني أن النبايع الصحيحة للمعرفة الإسلامية فقط هي القرآن والسنة النبوية كما شرحها أهل البيت عليه السلام، أما المذاهب الأخرى فإن مصادرهم الفقهية هي الكتاب وسنة النبي صلى الله عليه وآله ورأي الصحابة، ثم اعتمدوا دليلاً آخر هو القياسات الذوقية، أن هذا يشبه هذا، إذن حكمه نفس الحكم، وهكذا اعتمدوا المصدر الخامس وهو الاستحسان، لكن أهل البيت عليه السلام أكدوا أن المصدر فقط هو الكتاب والسنة النبوية.

أقرأ لكم نصاً يقول: أئمة المذاهب الثلاثة: الأخاف، والمالكية والحنابلة، هؤلاء كانوا يعتمدون رأي الصحابة، وكان أبو حنيفة يقدم

(١) الكافي ٧: ٤١٢/ باب كراهية الارتفاع إلى قضاة الجور/ ٥.

(٢) الاحتجاج ٢: ٢٦٣.

رأي الصحابي إذا تعارض في مورد من الموارد، وقال: إذا لم أجد في كتاب الله ولا في سُنَّة رسول الله ﷺ أخذت بقول من شئت من أصحابه وأدع من شئت منهم^(١).

أهل البيت عليه السلام رفضوا هذا الأمر وقالوا: إن الصحابة ليسوا مصدراً تشريعياً. الصحابة هم مجرد رواة، إذا رووا عن رسول الله ﷺ نقبل رأيهم، أما إذا أعطى الصحابي اجتهاده، فرأي الصحابي ليس بحجة. ويعتقد الشيعة أن السُنَّة هي سُنَّة النبي ﷺ، وما يرويه الأئمة المعصومون عليه السلام فهم امتداد لسُنَّة النبي ﷺ؛ لأن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدِّي...» إلى أن يقول: «وحديث أمير المؤمنين عليه السلام حديث جدِّي رسول الله ﷺ»، وحديث رسول الله ﷺ قول الله ﷻ^(٢).

ولهذا نحن نقول: إن السُنَّة التي هي مصدر تشريع هي سُنَّة المعصوم النبي ﷺ والأئمة عليه السلام، هذا هو موقف شيعة أهل البيت عليه السلام تجاه السُنَّة النبوية.

المَعْلَم الثاني عشر: العلاقة الحيَّة مع أهل البيت عليه السلام:
حينما يقول القرآن: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٣).

وحينما يقول رسول الله ﷺ: «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه،

(١) تاريخ بغداد ١٣: ٣٦٥.

(٢) الكافي ١: ٥٣/باب رواية الكتب والحديث / ١٤.

(٣) الشورى: ٢٣.

اللهم والٍ من والاه، وعاد من عاداه»^(١)، فإن المودة والولاية ليست مجرد محبة، وإلا فإن المحبة موجودة لدى كل المسلمين، لكن ما هي قيمة المحبة إذا لم يترتب عليها أثر عملي؟ الولاية هي موقف عملي، ولهذا جاء في حديث أهل البيت عليهم السلام: «بُني الإسلام على خمس: الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والولاية، ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية، فأخذ الناس بأربع وتركوا هذه - يعني الولاية -»^(٢)، الولاية الحقيقية هي من أهم معالم الفكر الشيعي، ونحن نقصد بالولاية عدة أمور:

١ - هي الاتباع العملي فيما أمروا به ونهوا عنه.

٢ - العلاقة الحية والساخنة مع أهل البيت عليهم السلام، وليس مجرد ولاية شكلية، بل يجب أن يكون هناك تفاعل حقيقي معهم في حياتهم وفي ممانهم، لاحظوا ذلك فيما نقرأ في الزيارة الجامعة: «ذَكَرَكُمْ فِي الدَّائِرِينَ وَأَسْمَاؤَكُمْ فِي الْأَسْمَاءِ وَأَجْسَادَكُمْ فِي الْأَجْسَادِ وَأَرْوَاحَكُمْ فِي الْأَرْوَاحِ وَأَنْفُسَكُمْ فِي النُّفُوسِ وَأَثَارَكُمْ فِي الْآثَارِ وَقُبُورَكُمْ فِي الْقُبُورِ»، فنحن نقول لهم: يا أئمتنا أنتم معنا في جلوسنا وقيامنا وأكلنا وشرابنا في بيوتنا وأسمائنا ومجالسنا، فلا نجلس ولا نتحدث إلا وأنتم معنا، حتى قبورنا مع قبوركم، إن أحد مكونات الشخصية الشيعية أنه يبحث عن أهل البيت عليهم السلام، أين مراقدهم؟ هذه هي صورة عن العلاقة الحية.

الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام تقول: «إن الله تبارك وتعالى أطلع إلى الأرض فاختارنا، واختار لنا شيعة، ينصروننا، ويفرحون لفرحنا، ويحزنون لحزننا،

(١) كمال الدين: ٢٧٦؛ مستدرک الحاكم ٣: ١٠٩.

(٢) الكافي ٢: ١٨/باب دعائم الإسلام/٣.

ويبدلون أموالهم وأنفسهم فينا، أولئك منا وإلينا»^(١)، العلاقة الحيّة أكثر مما تتعامل مع أهلك وأهلك ومع أهل بيتك، تتعامل مع أهل البيت ﷺ في فرحهم وأحزانهم. هذه العلاقة الحيّة لها ثلاثة مقومات:

١ _ الاعتقاد بحياتهم بالفعل، يعني أنت عندما تزور أمير المؤمنين ﷺ فأنت لا تزور جسداً ميتاً، إنما تزور إماماً حياً، وحينما تقول: «السَّلامُ عَلَيْكَ يَا أَمِينَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَحُجَّتَهُ عَلَى عِبَادِهِ السَّلامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَشْهَدُ أَنَّكَ جَاهَدْتَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ»، كأنك تخاطبه مخاطبة الحيّ للحيّ وليس للميت، بعض الناس يقول: إن النبي ﷺ ميت والأئمة ﷺ موتى، وقد نذهب ونقرأ لهم سورة الفاتحة لا أكثر. ولكن نحن عندما نزور النبي ﷺ والأئمة ﷺ لا نقرأ لهم سورة الفاتحة، بل نحن نزور نبياً حياً، ونتكلم معه، وهو يسمع كلامنا، هذا هو أحد الأركان لعلاقتنا الساخنة الحيّة.

٢ _ الاعتقاد باطلاعهم على موقفنا «أشْهَدُ أَنَّكَ تَسْمَعُ الْكَلَامَ وَتَرُدُّ الْجَوَابَ»، «أشْهَدُ أَنَّكَ تَرَى مَقَامِي وَتَسْمَعُ كَلَامِي وَتَرُدُّ سَلَامِي»، فهو مطلع على هذا الزائر، ولا توجد حُجُبَ بينه وبيننا.

٣ _ أنهم يشفعون لنا في قضاء حوائجنا في الدنيا قبل الآخرة، حينما نزور النبي والإمام نكون معتقدين بأنه حيّ، ومطلع على موقعنا، وهو شفيع لنا، هذا هو المقوم الثالث في العلاقة الساخنة بيننا وبين أهل البيت ﷺ، فهم ليسوا مجرد تاريخ قد انتهى، وإنما يمثلون الماضي والحاضر والمستقبل.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة التاسعة والسبعون:

المقام المحمود

«وَلَكُمْ الْمَوْدَةُ الْوَاجِبَةُ، وَالدَّرَجَاتُ الرَّفِيعَةُ، وَالْمَقَامُ
الْمَحْمُودُ، وَالْمَكَانُ الْمَعْلُومُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث عن مقطع الزيارة: «وَلَكُمْ الْمَوَدَّةُ الْوَاجِبَةُ، وَالذَّرَجَاتُ الرَّفِيعَةُ، وَالْمَقَامُ الْمَحْمُودُ، وَالْمَكَانُ الْمَعْلُومُ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ»، حديثنا عن المقام المحمود.

ما هو هذا المقام يوم القيامة؟

وهل هو مختص بالنبي ﷺ، كما القرآن الكريم يخاطب النبي ﷺ: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَهَجَذَ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً»^(١)؛ لأن المقام المحمود منتزع من هذه الآية، والمفسرون يقفون عند المقام المحمود، ويقولون: هو مقام الشفاعة، ورسول الله ﷺ يوم القيامة له منزلة خاصة، ودرجة خاصة اسمها (الوسيلة).

في حديث شريف: عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ لِي فَسَلُوهُ الْوَسِيلَةَ». فسألنا النبي ﷺ عن الوسيلة. فقال: «هي درجتي في الجنة»^(٢).

ولهذا نحن في الأدعية اليومية في الصباح والمساء نقرأ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ فِي الْأَوَّلِينَ وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ فِي الْآخِرِينَ وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ فِي

(١) الإسراء: ٧٩.

(٢) معاني الأخبار: ١١٦/١ باب معنى الوسيلة / ١.

الْمُرْسَلِينَ»، ثُمَّ نَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَغْطِرْ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالشَّرَفَ وَالْفَضِيلَةَ
وَالدَّرَجَةَ الْكَبِيرَةَ»^(١)، وهذا من الأدعية الصباحية، ويستحب للإنسان في
كل صباح أن يقرأ هذه الصلوات ثلاث مرات، وهكذا في كل مساء،
ومن جملة ما نقوله في هذه الصلوات: «اللَّهُمَّ أَغْطِرْ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ»،
يقول الرسول ﷺ: «هي درجتي في الجنة»، وعند المفسرين هي مقام
الشفاعة^(٢)، ذلك المقام العظيم، الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام تقول:
«ما من أحد من الأولين والآخرين إلا وهو يحتاج إلى شفاعة محمد
ﷺ يوم القيامة»^(٣)، يعني لا إنسان عادي، ولا نبي من الأنبياء عليه السلام ولا
ملك من الملائكة إلا وهو محتاج إلى شفاعة نبينا ﷺ.

تفسير: «طَاطَا كُلُّ شَرِيفٍ لِشَرَفِكُمْ»:

وقبل الدخول في البحث يجب أن نشرح عبارات الزيارة التي تقول:
«طَاطَا كُلُّ شَرِيفٍ لِشَرَفِكُمْ وَبَخَعَ كُلُّ مُتَكَبِّرٍ لِبَطَاعَتِكُمْ»، هل أن كل الناس
يخضعون لأهل البيت عليه السلام، رغم أن هناك من قاتل أهل البيت عليه السلام؟ إذن ما
معنى: «طَاطَا كُلُّ شَرِيفٍ لِشَرَفِكُمْ وَبَخَعَ كُلُّ مُتَكَبِّرٍ لِبَطَاعَتِكُمْ».

يمكن أن نفسّر ذلك بالشأنية، بمعنى أن شأنهم لو اطلع عليه كل
إنسان حتّى الجبابرة والفراعنة لخضعوا لهم، هذا هو ما نعبر عنه بالشأنية،
والفكرة هكذا: أنه لو اطلع الجبابرة على شأنهم عند الله تبارك وتعالى
لخضعوا لهم. هذا معنى «طَاطَا كُلُّ شَرِيفٍ لِشَرَفِكُمْ».

(١) إقبال الأعمال ٢: ١٨٧.

(٢) راجع: تفسير مجمع البيان ٦: ٢٨٤.

(٣) المحاسن ١: ١٨٤/١٨٦.

إن أطفئ الطغاة لو عرف منزلة أهل البيت عليه السلام وانكشفت له منزلتهم عند الله تبارك وتعالى لخضع وذلل لهم، لكن لأن الناس أعداء ما جهلوا، إذن هم لا يخضعون لهم.

ثم تقول الزيارة: «يَا بِي أَنْتُمْ وَأُمِّي وَنَفْسِي وَأَهْلِي وَمَالِي ذَكْرُكُمْ فِي الذَّاكِرِينَ وَأَسْمَاؤُكُمْ فِي الْأَسْمَاءِ وَأَجْسَادُكُمْ فِي الْأَجْسَادِ وَأَرْوَاحُكُمْ فِي الْأَرْوَاحِ وَأَنْفُسُكُمْ فِي النَّفُوسِ وَأَنَارُكُمْ فِي الْأَنَارِ وَقُبُورُكُمْ فِي الْقُبُورِ»، المعنى الذي نستطيع أن نفسر به هذا النص هو أنكم يا آل رسول الله صلى الله عليه وآله معنا دائماً وفي كل حال، إذا ذكرنا أحداً جاء ذكركم، وإذا ذكرت البطولات ذكرنا بطولتكم، وإذا ذكرت التقوى ذكرنا تقواكم، وإذا ذكر الكرم يأتي ذكر كرمكم، وإذا ذكر الفضل والفضائل أتى ذكر فضائلكم. «وَأَسْمَاؤُكُمْ فِي الْأَسْمَاءِ»، حينما تذكر في التاريخ الأسماء اللامعة تذكر أسماءكم، «وَأَجْسَادُكُمْ فِي الْأَجْسَادِ»، نحن حتى لو ابتعدنا عنكم، لكن في الحقيقة نحن نتعيش معكم، حتى كأنكم معنا في منازلنا، في محلاتنا، وأسواقنا، ومدارسنا، هذا النص إشارة إلى التعايش الدائم، كما تقول لشخص تحبه وتعشقه: أنت معي تقوم وتقع، نحن هكذا في علاقتنا مع أهل البيت عليه السلام. معكم بمستوى أن «ذِكْرُكُمْ فِي الذَّاكِرِينَ وَأَسْمَاؤُكُمْ فِي الْأَسْمَاءِ وَأَجْسَادُكُمْ فِي الْأَجْسَادِ وَأَرْوَاحُكُمْ فِي الْأَرْوَاحِ وَأَنْفُسُكُمْ فِي النَّفُوسِ»، أنتم في محافل زواجنا، ومآتمنا، وسفرنا، وحضرنا، وأيضاً «قُبُورُكُمْ فِي الْقُبُورِ»، يعني إن اعتزازنا بقبوركم أكثر من اعتزازنا بقبور آبائنا وأجدادنا، إذا كنا نبحت عن قبور، فنحن نبحت عن قبوركم، «أَرْوَاحُكُمْ فِي الْأَرْوَاحِ وَأَنْفُسُكُمْ فِي النَّفُوسِ وَأَنَارُكُمْ فِي الْأَنَارِ وَقُبُورُكُمْ فِي الْقُبُورِ».

هذا هو التفسير الأول.

التفسير الثاني: وهناك مجموعة تفاسير أخرى، منها: أن «ذُكِرْكُمْ فِي الذَّاكِرِينَ» مبتدأ خبره محذوف، فيكون الجملة هكذا: (ذكركم في الذاكرين أحلى الذكر)، (وأجسامكم في الأجسام أحلى الأجسام)، والدليل على هذا التفسير هو أنه بعد ذلك يقول: «فَمَا أَخْلَى أَسْمَاءَكُمْ وَأَكْرَمَ أَنْفُسَكُمْ وَأَعْظَمَ شَانَكُمْ وَأَجَلَّ خَطَرَكُمْ».

نحن نميل إلى التفسير الأول، والإنسان الذي يقرأ هذه الزيارة يُسرع إلى ذهنه في فهم عباراتها أنه نحن نتعاش معكم في الليل والنهار، ونحن علاقتنا علاقة وطيدة لا تنفك أبداً في الأجسام والأرواح والأنفس، حتّى نصل إلى القبور، الآن الشيعة أين يدفنون موتاهم؟ قرب إمام أو ابن إمام، حتّى السكن أين يوجد؟ هم يسكنون قرب ضريحه، ويلتفون حوله، هذا إشارة إلى حقيقة الترابط الوثيق، والذي نقرؤه تاريخياً في مسيرة شيعة أهل البيت عليه السلام أنه حيث ما كان هناك قبر إمام معصوم أو شهيد مقتول تجدون تلك المنطقة قد عُمّرت بالسكنى وصارت مدينة، الشيعة يبحثون عن مزارات أهل بيت النبوة عليه السلام أينما كانوا، وهذه حقيقة تاريخية.

تفسير: «وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِكُمْ»:

هذه الجملة لها عدّة تفاسير:

التفسير الأول: أشرق الأرض بنور هداكم، والنور المقصود هنا ليس النور المادي، إنما نور الهدى (النور المعنوي).

التفسير الثاني: أشرق الأرض بنور وجودكم، (النور التكويني)، إن أهل البيت عليه السلام هم الوسيلة في وجود كل الكائنات.

تذكر قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١)، فالنور إشارة إلى الوجود، إن وجود الأشياء كلها بالله تبارك وتعالى، وهو سر وجودها، حيثل هذا التفسير يقول: إن كل الوجود هو امتداد لنور أهل البيت عليهم السلام؛ لأنهم وجه الله، وسر الله، ولولا النبي ﷺ وهو الإنسان الكامل لما خلق الله أرضاً مدحية، ولا سماءً مبنية، ولا فلکاً يدور، ولا شمساً تجري، ولا قمرأ يسري^(٢).

الفكرة أن كل هذا الوجود هو امتداد تكويني لشعاع وجودهم، وهذا معنى عميق، وهي نظرية معرفية فلسفية أن هذا الوجود بما فيه الشمس والقمر والأرض إنما هو امتداد لنورهم عليهم السلام؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «أول ما خلق الله تبارك وتعالى نوري»^(٣)، قبل أن يخلق السماوات والأرض، ثم من ذلك النور جاءت الامتدادات الوجودية، هذا النور انعكس فكان هذا الوجود.

التفسير الثالث: «وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِكُمْ»، إشارة إلى أرض يوم القيامة، وليس أرض الدنيا، القرآن الكريم يقول: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾^(٤)، يوم القيامة لا تشرق القيامة بالشمس، لأن في القيامة لا شمس ولا قمر ولا نجوم ولا ليل ولا نهار يتعاقبان، وإنما أشرقت أرض القيامة بنور

(١) النور: ٣٥.

(٢) في الحديث المعروف بـ (حديث الكساء): «ما خلقت سماءً مبنية، ولا أرضاً مدحية، ولا فلکاً يدور، ولا شمساً تجري، ولا قمرأ يسري إلا بمحبة هؤلاء الخمسة». راجع: شرح

إحقاق الحق ٢: ٥٥٦.

(٣) بحار الأنوار ١: ٩٧.

(٤) الزمر: ٦٩.

رَبِّهَا، وهنا تأتي بعض الروايات فتقول: «أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا»، يعني بنور الإمام، وبنور الإنسان الكامل، وعرصات يوم القيامة تشرق بنور النبي ﷺ، فهذا التفسير يقول: إن ربَّ الأرض هو إمام الأرض، كما تقول: (ربَّ الأسرة) وتقصد به إمام الأسرة وكبير الأسرة، ولهذا حينما يقول القرآن الكريم: «وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا»، فإن المقصود بنور إمامها، وإمام الأرض في القيامة هو رسول الله ﷺ الذي تشرق بنوره عرصات يوم القيامة^(١).

المقام المحمود:

نعود إلى قوله: «وَلَكُمْ الْمَوْدَّةُ الْوَاجِبَةُ وَالذَّرَجَاتُ الرَّفِيعَةُ وَالْمَقَامُ الْمَحْمُودُ»، انطلاقاً من قوله تعالى: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً»^(٢)، وهذه الآيات تشير إلى الصلوات اليومية الخمس: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ»، بمعنى زوال الشمس، والزوال هو ساعة الذروة لحرارة الشمس وأشعتها، حيث تكون الشمس فيه شبه عمودية، والإنسان لو نظر إلى الشمس بعينه فإنه يقوم بذلك عينه، من هنا جاءت العبارة: «لِذُلُوكِ الشَّمْسِ»، فأصبح كناية عن الزوال، «إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ»، وغسق الليل استحكام الظلام، وليس بداية الغروب، وإنما إلى أن يستحكم السواد، والغسق هو استحكام السواد، وهو عبارة عن وقت صلاة العشاء، القرآن يقول: أقم الصلاة بدءاً من الظهر، واستمراراً للعصر، وحتى غَسَقِ اللَّيْلِ، فهذه خمس صلوات، الظهر عند دُلُوكِ الشَّمْسِ، ومروراً بالعصر، ثم المغرب عند بداية الليل، والعشاء عند غسق الليل، ثم صلاة

(١) راجع: تفسير القمي ٢: ٢٥٣.

(٢) الإسراء ٧٨ و٧٩.

الفجر الذي عبّر عنها ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، وقرآن الفجر يعني صلاة الصبح^(١). هنا عبّر عن الصلاة بالقرآن؛ لأن الصلاة هي قراءة قرآن أيضاً، ثم ينتقل من الصلاة اليومية إلى الصلوات المستحبة، فيقول: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾، يراد بالتهجد اليقظة والتعبّد في الليل، وقد استعملت الكلمة في عكس معناها الأصلي، واللغة العربية فيها غرائب جميلة، فإن معنى التهجد هو النوم، والهجد يعني النوم، لكنه أريد من التهجد هنا ترك النوم والابتعاد عنه، كمن ينام ويصحو ولا يستقر إلى فراشه ونومه، ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾.

هل يعني المقام المحمود مجرد وصف للمقام، دون أن تكون هناك منزلة معينة أو هو إشارة إلى منزلة معينة؟ القرآن الكريم أحياناً يذكر أوصافاً، ولكنها لا تعني وجودات خارجية متميزة، مثلاً يصف الجنة بأنها دار السلام ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾^(٢)، سوف تسألني: هل دار السلام هي غير الجنة؟ لا، هي نفس الجنة، ووصف الجنة هو دار الأمان ودار السلام ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، هذا وصف لا يعبر عن وجود خارجي غير الموصوف، القرآن أحياناً يقول: جنات الخلد، ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾^(٣)، والمقصود بجنة الخلد ليس هو غير هذه الجنة التي وُعد بها المؤمنون، بل هي نفسها، والخلد هو وصفها. هذا تعدد أسماء والمسمى واحد.

السؤال: حينما يقول: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾^(٤)، هل

(١) راجع: تفسير مجمع البيان ٦: ١٩.

(٢) الأنعام: ١٢٧.

(٣) الفرقان: ١٥.

(٤) الإسراء: ٧٩.

هو مقام مستقل لرسول الله ﷺ، أم هو وصف لمقامات الآخرة، فهي مقامات محمودة؟ هل هو وصف عام أم وصف خاص؟

الجواب: نفهم من الآية الكريمة أنها تشير إلى منزلة خاصة لرسول الله ﷺ، وليس وصفاً عاماً لكل الجنة، طبعاً الجنة هي مقام محمود، ولكن هنا منزلة خاصة لرسول الله ﷺ.

تفسير درجة الوسيلة:

أنا بهذا الخصوص أقرأ لكم رواية جميلة وطويلة يرويها الشيخ الصدوق عن رسول الله ﷺ في تفسير درجة الوسيلة التي قال رسول الله ﷺ: «إذا سألت الله ﷻ فاسأله لي الوسيلة»، فسأله عن الوسيلة؟ فقال: «هي درجتي في الجنة، وهي ألف مرقاة...»، إلى أن يقول: «فيؤتى بها يوم القيامة حتى تُنصب مع درجة النبيين كالقمر بين الكواكب، فلا يبقى يومئذ نبي ولا صديق ولا شهيد إلا وقال: طوبى لمن كانت هذه الدرجة درجته، وهذه المنزلة منزلته، فيأتي النداء من عند الله تعالى يسمعه النبيون وكل الخلق: هذه درجة محمد ﷺ، فأقبل أنا يومئذ منتزراً بريطة من نور عليّ تاج الملك، وأكليل الكرامة، وعليّ بن أبي طالب أمامي وبيده لوائي، وهو لواء الحمد، مكتوب عليه: لا إله إلا الله، المفلحون هم الفائزون بالله، فإذا مررنا بالنبيين قالوا: هذان ملكان مقربان لم نعرفهما، فإذا مررنا بالملائكة قالوا: نبیین مرسلین، حتى أعلو الدرجة وعليّ يتبعني، حتى إذا صرتُ بأعلى درجة منها وعليّ أسفل مني بدرجة لا يبقى يومئذ نبي ولا صديق ولا شهيد إلا قال: طوبى لهذين العبدین ما أكرمهما على الله تعالى. فيأتي النداء من قبل الله تعالى: هذا حبيبي محمد، وهذا حبيبي عليّ، طوبى لمن أحبه، وويل لمن أبغضه، فلا يبقى يومئذ أحدٌ أحبك يا عليّ إلا استراح لهذا الكلام وابيض وجهه

وفرح قلبه، ولا يبقى أحدٌ ممن عاداك أو نصب لك حرباً أو جحد لك حقاً إلا اسودَّ وجهه واضطربت قدماه. فينما أنا كذلك فإذا ملكان قد أقبلا إليَّ. أحدهما رضوان خازن الجنة. والآخر مالك خازن النار. فيدنو رضوان فيقول:

السلام عليك يا أحمد، فأقول: السلام عليك أيها الملك، من أنت؟ ما أطيب وجهك وأحسن ريحك.

فيقول: أنا رضوان خازن الجنة، وهذه مفاتيح الجنة بعث إليك بها ربُّ العزة، فخذها إليك يا أحمد.

فأقول: قد قبلت ذلك من ربي، وله الحمد على ما فضلني به، ادفعها إلى أخي عليّ بن أبي طالب، فيدفعها رضوان ويرجع. فيدنو مالك فيقول: السلام عليك يا أحمد.

فأقول: عليك السلام يا أيها الملك، ما أقبح وجهك وأنكر رؤيتك، من أنت؟

فيقول: أنا مالك خازن النار، وهذه مقاليد النار بعث بها إليك ربُّ العزة، فخذها يا أحمد.

فأقول: قد قبلت ذلك من ربي، فله الحمد على ما فضلني، ادفعها إلى أخي عليّ بن أبي طالب.

ثم يرجع مالك، فيقبل عليّ ومعه مفاتيح الجنة ومقاليد النار، حتى يقف على عجزة جهنم وقد تطاير شررها وعلا زفيرها واشتد حرّها، وعليّ أخذ بزمامها.

فتقول له جهنم: جُزني يا عليّ، فقد أطفأ نورك لهبي.

فيقول لها عليّ: قرّبي يا جهنم، خُذي هذا عدوّي، واطركي هذا وليي.

ثم قال رسول الله ﷺ: «فَلْجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ أَشَدُّ مَطَاوَعَةً لِّعَلِيِّ مِنْ

غلام أحدكم لصاحبه، فإن شاء يذهب بها يمنية، وإن شاء يذهب بها يسرة، ولجهنم أشد مطاوعةً لعليّ فيما يأمرها به من جميع الخلائق»^(١).

هذه هي درجة الوسيلة، ولا تقولوا: هذا كلام غريب، وربما فيه غلو في منزلة الإمام عليّ عليه السلام، كلا، ليس كثيراً على عليّ عليه السلام أن تكون جهنم مطيعة بين يديه عليه السلام، وقد ثبت حتى في أهم مصادر العامة أن الإمام علياً عليه السلام هو قسيم الجنة والنار^(٢).

هذه درجة الوسيلة ومقام الشفاعة لرسول الله ﷺ.

هل يمكن بلوغ المقام المحمود؟

السؤال: هل يمكن بلوغ المقام المحمود؟ أم هو خاص برسول الله ﷺ؟
الرواية عن بريد بن معاوية قال: كنت عند أبي جعفر الباقر عليه السلام في فسطاط له بمنى، فنظر إلى زياد الأسود متقلع الرجل، فرثا له، فقال له: «ما لرجليك هكذا؟» قال: جئت على بكر لي نضو فكنت أمشي عنه عامة الطريق، فرثا له. وقال له عند ذلك زياد: إني ألم بالذنوب حتى إذا ظننت أنني قد هلكت ذكرت حبكم فرجوت النجاة، وتجلي عني، فقال أبو جعفر عليه السلام: «وهل الدين إلا الحب؟ قال الله تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾»^(٣)، وقال: ﴿لَنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(٤)،

(١) أمالي الصدوق: ١٧٨ / ١٨٠ / ٤.

(٢) راجع: مناقب آل أبي طالب ٢: ٩٩؛ شرح نهج البلاغة ٢: ٢٦٠؛ كنز العمال ١٣: ١٥٢ /

٣٦٤٧٥؛ تاريخ دمشق ٤٢: ٢٩٨؛ البداية والنهاية ٧: ٣٩٢.

(٣) الحجرات: ٧.

(٤) آل عمران: ٣١.

وقال: ﴿يَجِبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾^(١)، إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أحب المصلين ولا أصلي، وأحب الصوامين ولا أصوم؟ فقال له رسول الله ﷺ: أنت مع من أحببت، ولك ما اكتسبت، وقال: «ما تبغون؟ وما تريدون؟ أما إنها لو كان فزعة من السماء، فزرع كل قوم إلى مأمئهم، وفزعنا إلى نبينا، وفزعتم إلينا»^(٢).

ولهذا نحن نقرأ في زيارة الإمام الحسين عليه السلام في زيارة عاشوراء: «فَأَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي أَكْرَمَنِي بِمَعْرِفَتِكُمْ وَمَعْرِفَةِ أَوْلِيَائِكُمْ وَرَزَقَنِي الْبَرَاءَةَ مِنْ أَعْدَائِكُمْ أَنْ يَجْعَلَنِي مَعَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَنْ يُثَبِّتَ لِي عِنْدَكُمْ قَدَمَ صِدْقٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُبَلِّغَنِي الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ»^(٣)، يعني نحن نرجو أن نصل إلى المقام المحمود الذي كتبه الله تبارك وتعالى.

المقام المحمود لرسول الله ﷺ وعلي وآل البيت عليهم السلام، هذا مقام يرجوه كل شيعتهم.

الطريق لبلوغ مقامات الآخرة:

سؤال: ما هو الطريق لبلوغ هذه المقامات؟

هناك أربعة طرق لا بدَّ من سلوكها لبلوغ تلك المقامات:

١ _ الإيمان.

٢ _ العمل الصالح.

٣ _ الدعاء.

٤ _ الشفاعة.

(١) الحشر: ٩.

(٢) الكافي ٨: ٣٥ / ٨٠.

(٣) كامل الزيارات: ٣٣٠.

ولا يمكن إهمال واحدة من هذه الطرق.
 أما الإيمان، فقد قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).
 وأما العمل الصالح، فقد قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(٢).
 وأما الدعاء، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبُودُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾^(٣).
 وأما الشفاعة، فإنه لا يمكن لأحد بدون شفاعته رسول الله ﷺ
 يوم القيامة أن يفوز بالمقامات العليا.
 يقول رسول الله ﷺ: «إذا قمت المقام المحمود، تشفعتُ في أصحاب الكبائر من أمتي، فيشفعني الله فيهم»^(٤).
 ولهذا نقرأ في هذه الزيارة الجامعة: «اللَّهُمَّ إِنِّي لَوْ وَجَدْتُ شَفْعَاءَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الْأَخْيَارِ الْأَيْمَةِ الْأَبْرَارِ لَجَعَلْتَهُمْ شَفْعَائِي».
 الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «ما من أحد من الأولين والآخرين إلا وهو يحتاج إلى شفاعته محمد ﷺ يوم القيامة»^(٥).
 والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) المؤمنون: ١.

(٢) العصر: ١ - ٣.

(٣) الفرقان: ٧٧.

(٤) أمالي الصدوق: ٣٧٠ / ٤٦٢ / ٣.

(٥) المحاسن ١: ١٨٤ / ١٨٦.

المحاضرة الثمانون:

الدعاء في ختام الزيارة (*)

يَا وَلِيَّ اللَّهِ إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ذُنُوبًا لَا
يَأْتِي عَلَيْهَا إِلَّا رِضَاكُمْ.

(*) وهذا هو الفصل الخامس من فصول الزيارة كما أشرنا إليه في

مقدمة الكتاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلنا إلى ختام الزيارة الجامعة الكبيرة وختامها عبارة عن دعاء، كما هو في غيرها من الزيارات التي تنتهي بالدعاء.

لدينا ثلاثة مفاهيم نريد أن نقف عندها، حيث يقول: «فَبِحَقِّهِمُ الَّذِي أَوْجَبْتَ لَهُمْ عَلَيْكَ أَسْأَلُكَ أَنْ تُدْخِلَنِي فِي جُمْلَةِ الْعَارِفِينَ بِهِمْ وَبِحَقِّهِمْ، وَفِي زُمْرَةِ الْمَرْحُومِينَ بِشَفَاعَتِهِمْ، إِنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ».

المفهوم الأول: ما هو الهدف من الزيارة؟

هناك هدفان حينما نزور النبي ﷺ والأئمة الأطهار ﷺ:

الهدف الأول: هو التعظيم والتكريم لهذا الإمام.

الهدف الثاني: هو التقرب والتهجد والدعاء والتوسل إلى الله تبارك وتعالى، إن الهدف الأساس هو التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، والهدف الآخر هو التعظيم لأهل البيت ﷺ، ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾^(١)، فالذي يزور الكعبة لديه هدفان: الأول: تعظيم الكعبة، والثاني: الارتباط بصاحب الكعبة.

كذلك نحن عندما نزور النبي ﷺ والأئمة الأطهار ﷺ لدينا هدفان كما ذكرنا، وهذه الزيارات هي حديث لقاء وحديث تضرع إلى الله تبارك وتعالى.

ولهذا تجدون في جميع هذه الزيارات، بعدما ينتهي الزائر من السلام والتحية، ينتقل إلى ما هو أهم، وهو الدعاء: «اللَّهُمَّ إِنْ كَأَنْتَ دُتُّوبِي فَقَدْ أَخْلَقْتَ وَجْهِي عِنْدَكَ»^(١).

زيارة أهل البيت عليه السلام هي فرصة ارتباط بالله تعالى. لاحظوا مثلاً في الزيارة الجامعة الكبيرة هناك فصلٌ كاملٌ للدعاء، وحينما نزور الإمام الحسين عليه السلام هناك دعاء خاص بعد زيارته عليه السلام، وهكذا زيارة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فهناك دعاء خاص، وكذلك بعد زيارة الإمام الرضا عليه السلام؛ لأن هدف الزيارة هو الاقتراب من الله تبارك وتعالى، ودور الإمام هو الوسيط.

المفهوم الثاني: دور الإمام:

هذا هو المفهوم الثاني الذي نريد أن نسجّله، إذا كان الهدف من الزيارة هو الارتباط بالله تعالى فإن دور الإمام هو الوسيط بين الزائر وبين الله تعالى، ولهذا نقرأ في الزيارة الجامعة: «اللَّهُمَّ إِنِّي كُوِّجِدْتُ شَفَعَاءَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الْأَخْيَارِ الْأُئِمَّةِ الْأَبْرَارِ كَجَعَلْتُهُمْ شُفَعَائِي»؛ لأن ما يهتَمُّنا هو الوصول إلى الله تبارك وتعالى، إذن دور الإمام المعصوم هو دور الوسيط فيما بيننا وبين الله تبارك وتعالى.

المفهوم الثالث: أهمية الدعاء:

القرآن الكريم يؤكد أنه بدون دعاء لا يمكن أن تصلوا إلى نتيجة. القرآن الكريم يقول: «قُلْ مَا يَعْزُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ»^(٢)، لهذا

(١) إقبال الأعمال ١: ٢٢١.

(٢) الفرقان: ٧٧.

أيها الإخوة والأخوات يجب أن نتعلم هذه الحقيقة، حينما نزور، بعدها يجب أن ندعو، أما أن نزور بلا دعاء فهذا خطأ.

هناك حديث قدسي يقول: «من أحدث ولم يتوضأ فقد جفاني، ومن توضأ ولم يصل فقد جفاني، ومن صلى ولم يدعني فقد جفاني، ومن دعاني فلم أجبه فقد جفوته، ولست برب جاف»^(١)، الفكرة هي أنك أيها العبد تطرق الأبواب كي أفتحها لك، فإذا فتحت لك الباب فادخل، أما أن تطرق الباب ثم تفتح لك ولا تدخل ولا تطلب شيئاً، إذن فهذا جفاء، ولهذا يُستحب للإنسان بعد الصلاة أن يذهب للسجود، لأن الباب قد فتحت للإجابة.

فالإنسان حينما يزور ويصلي ركعتين قد جعل الإمام واسطة بينه وبين الله لُتفتح له باب الإجابة، فقد فُتحت أبواب الإجابة بعد الزيارة، فيجب أن نُقِيل على الدعاء، ونطلب حاجتنا من عند الله تبارك وتعالى.

المطالب المهمة الثلاثة:

الزيارة الجامعة فيها ثلاثة مطالب مهمة نسألها من الله تعالى، كما يعلمنا الإمام الهادي عليه السلام في هذه الزيارة:

المطلب الأول: موقع الشهادة:

لاحظوا ماذا يقول الدعاء: «رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ»، وهذا أول دعاء ومطلب في الزيارة الجامعة.

يأتي السؤال: ما موقع الشهادة؟

التفسير الأول: هو الإسلام. يعني اكتبنا مع الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، مع المسلمين الذين يشهدون الشهادتين.

التفسير الثاني: هو موقع الإشراف والشهادة. وهو أسمى مرتبة،

فعندنا ثلاث مراتب:

١ _ الإسلام.

٢ _ الإيمان.

٣ _ الشهادة.

لاحظوا القرآن الكريم ماذا يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١)، أنت أيها النبي موقعك أكبر من أن تكون مجرد مسلم، أو مؤمن، بل لك موقع أعظم، وهو موقع الشاهد على الناس، ويوم القيامة حينما يسأل الله تعالى عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٢)، عيسى يجيب فيقول: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾^(٣)، يا إلهي ما دمت فيهم كنت شهيداً عليهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾^(٤)، ومحل الشاهد هنا: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾، يعني موقع النبي هو موقع الشهادة على أمته، هذا الموقع القرآن الكريم يطلبه للمسلمين، حيث يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^(٥)، وهذا موقع عظيم، وهو موقع الإشراف على المسيرة البشرية، ولهذا حينما نقرأ في الدعاء: «رَبَّنَا

(١) الأحزاب: ٤٥.

(٢) المائدة: ١١٦.

(٣) المائدة: ١١٧.

(٤) الآية السابقة.

(٥) البقرة: ١٤٣.

آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ» يعني: اكتبنا مع أولئك الذين بلغوا مستوى الإشراف على أمتهم وقومهم، قد تقول: كيف أكون مشرفاً على الناس؟

الإسلام يريد منا أن يكون كل واحد منا قدوة للآخر، يقول الدعاء القرآني: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾^(١)، هذا ما تقوله أنت عندما تقرأ القرآن الكريم، رغم أنك لست عالماً دينياً، كل واحد منا يجب أن يكون قدوة في صفه، وشركته، ودائرته.

الشاهد يعني القدوة، الآية القرآنية تنسب هذا الوصف للإمام أمير المؤمنين عليه السلام حين يقول تعالى: ﴿قُلْ كُلُّي بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^(٢)، والذي عنده علم الكتاب هو الإمام علي عليه السلام، يقول النبي ﷺ: «الله شهيد على حقانية موقفي، وعلي عليه السلام أيضاً يعرف حقانية موقفي، وهو الذي عنده علم الكتاب، وليس أنتم»^(٣)، إذن معنى شاهد يعني مشرف.

الدعاء يقول: «فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ»، يعني نقول: إلهنا، نحن نريد يوم القيامة مقاماً عالياً جداً مع مقام الأنبياء، مع النبيين والشهداء والصالحين.

(١) الفرقان: ٧٤.

(٢) الرعد: ٤٣.

(٣) عن أبي سعيد الخدري، قال: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله جل ثناؤه: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ؟﴾ قال: «ذاك وصي أخي سليمان بن داود. فقلت له: يا رسول الله، فقول الله ﷻ: ﴿قُلْ كُلُّي بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، قال: «ذاك أخي علي بن أبي طالب». (أما لي الصدوق: ٦٥٩ / ٨٩٣ / ٣).

المطلب الثاني: هو الثبات:

«رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا»؛ لأن هناك خطراً هو خطر الانحراف، وكل إنسان يتعرض لهذا الخطر.

أيها الإخوة، أيتها الأخوات، نحن في الدنيا نمشي على مخاطر، فالدنيا ليست دار أمان. المخاطر تحوط بنا، ولا ندري متى تقع، مثلما هناك مرض الأبدان هناك مرض القلوب، كثير من الناس كانوا صالحين لكن انقلبوا طالحين، ومن أهل الهدى صاروا من أهل الضلال، هذا الخطر موجود، ولهذا فإن الدعاء يقول: «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا»، وهذا الدعاء نجده في مختلف الأدعية بعد الزيارات.

مثلاً نقرؤه بعد دعاء زيارة أمير المؤمنين: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَثْرَةِ اللِّسَانِ وَسُوءِ الْمَقَامِ وَخَفَةِ الْمِيزَانِ»^(١)، جميعنا نواجه خطر الانحراف، انحراف القلوب.

زيغ القلوب:

زيغ القلوب هل هو فعل الله، أم فعل الشيطان؟

الجواب: الشيطان يحرف الناس، لكن الله تعالى هو وراء كل عمل، فالسبب المباشر هو الشيطان، «اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ»^(٢)، لكن السبب لكل هذا الوجود هو الله تبارك وتعالى.

مثلاً الإنسان حينما يتوفى بحادث، تقول: ذلك السبب هو الذي أدى إلى موته، لكن الله هو الذي يتوفى الأنفس، فهو المميت والمحيي، كذلك الله تعالى

(١) إقبال الأعمال ١: ٣٣٢.

(٢) آل عمران: ١٥٥.

هو الهادي، وهو المضلّ، ولهذا يقول القرآن: ﴿فُضِّلَ اللَّهُ مِنْ شَاءٍ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣)، إذن العامل المباشر للضلال هو الشيطان، هو أنت وهواك، ولهذا القرآن يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾^(٤)، يعني هم أول من باشر بالضلال، بعدئذٍ أضلهم الله، إذن حاشا لله أن يضلّ عبده إذا لم يختار العبد طريق الضلال.

المطلب الثالث: هو الغفران:

«اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ ذُنُوبِي قَدْ أَخْلَقَتْ وَجْهِي عِنْدَكَ وَخَالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَغَيَّرَتْ حَالِي عِنْدَكَ فَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي لَا يُطْفَأُ وَبُورْجِهِ مُحَمَّدٍ حَبِيبِكَ الْمُصْطَفَى وَبُورْجِهِ وَلِيِّكَ عَلِيِّ الْمُرْتَضَى وَبِحَقِّ أَوْلِيَاكَ الَّذِينَ اتَّجَبْتَهُمْ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَأَنْ تَغْفِرَ لِي مَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِي وَأَنْ تَغْفِرَ لِي مَا بَقِيَ مِنْ عُمْرِي وَأَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ أَنْ أَعُودَ فِي شَيْءٍ مِنْ مَعَاصِيكَ أَبَدًا مَا أَبْقَيْتَنِي حَتَّى تَتَوَقَّأَنِي وَأَنَا لَكَ مُطِيعٌ وَأَنْتَ عَنِّي رَاضٍ وَأَنْ تَخْتِمَ لِي عَمَلِي بِأَحْسَنِهِ وَتَجْعَلَ لِي ثَوَابَهُ الْجَنَّةَ وَأَنْ تَفْعَلَ بِي مَا أَنْتَ أَهْلُهُ يَا أَهْلَ التَّقْوَى وَيَا أَهْلَ الْمَغْفِرَةِ صَلِّ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَارْحَمْنِي بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ»^(٥)، الغفران هو المطلب المهم بعد كل الزيارات.

ولهذا نقول: «يَا وَلِيَّ اللَّهِ إِنْ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ذُنُوبٌ لَا يَأْتِي عَلَيْهَا إِلَّا رِضَاكُمْ فَبِحَقِّ مَنْ ائْتَمَنَكُمْ عَلَى سِرِّهِ وَاسْتَرْعَاكُمْ أَمَرَ خَلْقِهِ وَقَرَنَ طَاعَتَكُمْ بِطَاعَتِهِ لَمَّا اسْتَوْهَبْتُمْ ذُنُوبِي»^(٦).

(٣) إبراهيم: ٤.

(٤) الصف: ٥.

(٥) مصباح المتعبد: ٧٦٣.

(٦) من زيارة أمير المؤمنين عليه السلام، (بحار الأنوار ٩٧ / ٣٧٦).

في الدعاء بعد زيارة الإمام الرضا عليه السلام: «سَيِّدِي لَوْ عَلِمْتَ الْأَرْضُ
بِذُنُوبِي لَسَاخَتْ بِي أَوْ الْجِبَالُ لَهْدَّتْنِي أَوْ السَّمَاوَاتُ لاختَطَفْتَنِي أَوْ الْبَحَارُ
لَأَغْرَقْتَنِي»^(١)، الغفران هو أعظم مطالبنا بعد زيارتهم عليهم السلام.

ونقرأ أخيراً: «اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا مَشْهَدٌ لَا يَرْجُو مَنْ فَاتَتْهُ فِيهِ رَحْمَتُكَ أَنْ يَنَالَهَا
فِي غَيْرِهِ، وَلَا أَحَدٌ أَشَقَى مِنْ أَمْرِي قَصْدَهُ مُؤَمَّلًا فَآبَ عَنْهُ خَائِبًا»^(٢)، فإذا كانت
الرحمة لا تشملك وأنت متوسل بالإمام الحسين عليه السلام - مثلاً - إذن أين تشملك
الرحمة؟! ولا يوجد أشقى من إنسان يذهب إلى أبواب الله المفتوحة فيرجع
خائباً، دليلنا على ذلك أن هذه المشاهد هي بيوت الله تعالى، كما قال: ﴿فِي بُيُوتٍ
أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾^(٣).
والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) بحار الأنوار ٩٩: ٥٦.

(٢) بحار الأنوار ٩٩: ١٧٢.

(٣) النور: ٣٦.

مصادر التحقيق

القرآن الكريم.

نهج البلاغة: خطب وكلمات الإمام عليّ عليه السلام / الشريف الرضي رحمته الله.

الصحيفة السجادية: الإمام زين العابدين عليه السلام / نشر جامعة المدرسين.

الإحتجاج: أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسي / منشورات مطبعة النعمان النجف.

الإختصاص: الشيخ المفيد / جماعة المدرسين قم.

اختيار معرفة الرجال المعروف برجال الكشي: الشيخ الطوسي / ت مهدي الرجائي.

الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد: الشيخ المفيد / مؤسسة آل البيت.

إرشاد القلوب:

الإستبصار في اختلاف من الأخبار: الشيخ الطوسي / ت حسن الخراسان.

الأصول الستة عشر: مجموعة محدثين / دار الشبستري للمطبوعات / ط ٢.

أصول الفقه: محمد رضا المظفر / دفتر تبليغات إسلامي قم / ط ٤.

إقبال الأعمال: عليّ بن طاووس / دفتر تبليغات إسلامي / ت جواد القيومي.

الأم: محمد بن إدريس الشافعي / دار الفكر بيروت / ط ٢.

الأمالي: الشيخ الصدوق / ت قسم الدراسات الإسلامية / مؤسسة البعثة.

الأمالي: الشيخ الطوسي / ت مؤسسة البعثة / ط ١ / الناشر دار الثقافة قم.

الأمالي: الشيخ المفيد / ت عليّ أكبر الغفاري / نشر جماعة المدرسين قم.

الإمامة والسياسة: ابن قتيبة الدينوري / منشورات الشريف الرضي قم / ط ١.

- الأنوار اللامعة في شرح الزيارة الجامعة: السيد عبد الله شبر / ط ١ / مط الوفاء بيروت.
بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي / مط الوفاء / بيروت.
- البداية والنهاية: إسماعيل الدمشقي / ت عليّ شيري / دار إحياء التراث العربي / ط ١.
- بشارة المصطفى ﷺ لشيعته المرتضى عليه السلام: محمد الطبري / ت جواد القيومي / ط ١.
- بصائر الدرجات الكبرى: محمد الصفار / مؤسسة الأعلمي / طهران.
- تاريخ مدينة دمشق: ابن عساكر / ت عليّ شيري / دار الفكر بيروت.
- التيان في تفسير القرآن: الشيخ الطوسي / ت أحمد العاملي / دار إحياء التراث / ط ١.
- تحرير الأحكام: العلامة الحلي / مؤسسة آل البيت للطباعة والنشر.
- تحف العقول عن آل الرسول: الحسن الحراني / ت عليّ أكبر الغفاري / ط ٢.
- تذكرة الفقهاء: العلامة الحلي / منشورات المكتبة الرضوية لإحياء الآثار الجعفرية.
- تصحیح اعتقادات الإمامية: الشيخ المفيد / نشر دار المفيد / ط ٢.
- تفسير العياشي: محمد بن مسعود / ت هاشم المحلاتي / المكتبة العلمية طهران.
- تفسير القمي: عليّ بن إبراهيم القمي / مؤسسة دار الكتاب قم / ط ٣.
- تهذيب الأحكام في شرح المقنعة: الشيخ الطوسي / ت حسن الخراسان.
- ثواب الأعمال: الشيخ الصدوق / منشورات الرضي / ط ٢.
- الجامع الأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي / مؤسسة التاريخ العربي بيروت.
- جامع الأخبار: السبزواري / تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت عليه السلام.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير الطبري / نشر دار الفكر بيروت.
- جامع المقاصد في شرح القواعد: عليّ الكركي / مؤسسة آل البيت / ط ١.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي): عبد الرحمن الثعالبي المالكي / نشر دار إحياء التراث العربي بيروت.

- جواهر المطالب في مناقب الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام: محمد بن أحمد الدمشقي الشافعي / ت محمد باقر المحمودي / نشر مجمع إحياء الثقافة الإسلامية / ط ١.
- الخرائج والجرائح: قطب الدين الراوندي / نشر مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام.
- الخصال: الشيخ الصدوق / ت عليّ أكبر الغفاري / نشر جماعة المدرسين قم.
- الدروس الشرعية في فقه الإمامية: محمد العاملي / ت مؤسسة النشر الإسلامي / ط ١.
- دلائل الإمامة: محمد بن جرير الطبري / ت ونشر مؤسسة البعثة قم / ط ١.
- دلائل النبوة: إسماعيل بن محمد الاصبهاني / ت محمد حداد / دار طيبة الرياض / ط ١.
- الذرية الطاهرة النبوية: محمد بن أحمد الدولابي / ت سعد الحسن / دار السلفية / ط ١.
- الرسالة السعدية: العلامة الحلي / ت عبد الحسين يقال / ط ١ المحققة.
- روضة الواعظين: محمد بن الفتال النيسابوري / منشورات الرضي قم.
- رياض المسائل في بيان الأحكام والدلائل: عليّ الطباطبائي / مؤسسة آل البيت قم.
- زاد المسافر في علم التفسير: عبد الرحمن الجوزي / دار الفكر / ط ١.
- سلوة الحزين المعروف بالدعوات: الراوندي / ت مدرسة الإمام المهدي / ط ١.
- سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي / مؤسسة الرسالة بيروت.
- السيرة النبوية: إسماعيل بن كثير / ت مصطفى عبد الواحد / دار المعرفة بيروت.
- شجرة طوبى: الشيخ محمد مهدي الحائري: مط الحيدرية.
- شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار: القاضي التميمي / ت محمد الجلاي.
- شرح أصول الكافي: محمد صالح المازندراني.
- شرح القصائد الهاشميات للكميّ بن زيد والعلويات لابن أبي الحديد: نشر مؤسسة الأعلمي بيروت.

شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد المعتزلي / ت محمد أبو الفضل / ط ١.

صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري / دار الفكر بيروت.

- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج النيسابوري / نشر دار الفكر بيروت.
- الصراط المستقيم إلى مستحقّي التقديم: عليّ العاملي / ت محمد باقر البهبودي / ط ١.
- صفات الشيعة: الشيخ الصدوق / نشر مطبعة عابدي طهران.
- الصواعق المحرقة: ابن حجر العسقلاني.
- العروة الوثقى: السيد كاظم اليزدي / ط ٢ / مؤسسة الأعلمي بيروت.
- علل الشرائع: الشيخ الصدوق / منشورات المكتبة الحيدرية النجف.
- عوالي اللثالي العزيزية في الأحاديث الدينية: محمد الاحسائي / مجتبي العراقي / ط ١.
- العود القوية لدفع المخاوف اليومية: عليّ بن يوسف الحلبي / ت مهدي الرجائي / ط ١.
- عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير: محمد بن عبد الله بن سيد الناس / نشر مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر بيروت.
- عيون أخبار الرضا: الشيخ الصدوق / ط ١ / مط مؤسسة الأعلمي بيروت.
- غاية المرام وحجة الخصام في تعيين الإمام من طريق الخاص والعام: السيد هاشم البحراني / ت السيد عليّ عاشور.
- غنائم الأيام في مسائل الحلال والحرام: أبو القاسم القمي / ت عباس تبريزيان / ط ١.
- الفصول المهمة: ابن الصباغ المالكي.
- الفضائل: شاذان بن جبرئيل القمي / المطبعة الحيدرية.
- فقه الرضا: عليّ بن بابويه / ت مؤسسة آل البيت / المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام.
- فلاح السائل: رضي الدين عليّ بن طاووس / مط الحيدرية.
- فيض القدير في شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير: محمد عبر الرؤوف المناوي / ت أحمد عبد السلام / نشر دار الكتب العلمية بيروت / ط ١.
- قرب الاستاد: عبد الله بن جعفر الحميري / نشر مؤسسة آل البيت / ط ١.
- قصص الأنبياء: قطب الدين الراوندي / ت غلام رضا عرفانيان / دار الهادي عليه السلام / ط ١.

- الكافي: الكليني / ت علي أكبر غفاري / ط ٣ / مط حيدري / دار الكتب الإسلامية.
- كامل الزيارات: الشيخ جعفر بن محمد قولويه / ت جواد قيومي / مؤسسة نشر الفقاهة.
- كتاب الطهارة: الشيخ الأنصاري / ط ١ / مط مؤسسة الهادي قم.
- كشف الغمة في معرفة الأئمة: علي بن عيسى الاربلي / نشر دار الأضواء بيروت / ط ٢.
- كفاية الأثر النص على الأئمة الاثنى عشر: علي الخزاز / ت عبد اللطيف الخوئي.
- كمال الدين وتمام النعمة: الشيخ الصدوق / ت علي أكبر غفاري.
- الكنى والألقاب: الشيخ عباس القمي / تقديم محمد هادي الأميني.
- كنز العمال: المتقي الهندي / ت بكري حياني / مط الرسالة بيروت.
- اللهوف في قتلى الطفوف: علي بن طاووس / ط ١ / نشر أنوار الهدى.
- مثير الأحزان: ابن نما الحلبي / مط الحيدرية النجف.
- مجمع البيان: الطبرسي / ت لجنة من العلماء / ط ١ / مؤسسة الأعلمي بيروت.
- المزار الكبير: الشيخ المشهدي / ت جواد القيومي / مط مؤسسة النشر الإسلامي.
- مستدرك سفينة البحار: علي النمازي الشاهرودي / ت حسن علي النمازي.
- المستدرك على الصحيحين: الحاكم النيسابوري / دار المعرفة بيروت.
- مستدرك الوسائل ومستتبط المسائل: ميرزا حسين الثوري / مؤسسة آل البيت قم.
- مسند أحمد: أحمد بن حنبل / نشر دار صادر بيروت.
- مشكاة الأنوار في غرر الأخبار: أبي الفضل علي الطبرسي / ت مهدي هوشمند / ط ١.
- المصباح: الشيخ إبراهيم الكفعمي.
- مصباح المتعبد: الشيخ الطوسي / ط ١ / مؤسسة فقه الشيعة بيروت.
- معاني الأخبار: الشيخ الصدوق / نشر إشارات إسلامي.
- مغني المحتاج إلى معرفة معاني المنهاج: محمد الشرييني / دار إحياء التراث العربي.
- مفاتيح الجنان: الشيخ عباس القمي.

مفاهيم القرآن: جعفر السبحاني.

مقاتل الطالبين: أبو الفرج الاصفهاني / مؤسسة دار الكتاب قم.

مقتل الحسين عليه السلام: لوط الأزدي الكوفي / نشر مكتبة السيد المرعشي قم.

مكيال المكارم في فضائل الدعاء للقائم عليه السلام: ميرزا محمد تقي الاصفهاني / ت عليّ

عاشور / نشر مؤسسة الأعلمي بيروت ط ١.

منازل الآخرة: الشيخ عباس القمي.

المناقب: أحمد بن محمد المكي الخوارزمي / ت فاضل المحمودي / ط ٢.

مناقب آل أبي طالب: محمد بن عليّ بن شهر آشوب / نشر المطبعة الحيدرية.

منتخب الأنوار المضيئة: السيد عليّ النيلي / نشر مؤسسة الإمام المهدي / ط ١.

منهاج الكرامة في معرفة الإمامة: العلامة الحلي / ت عبد الرحيم مبارك.

موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: اعداد معهد تحقيقات باقر العلوم عليه السلام / نشر دار

المعروف قم / ط ٣.

ميزان الحكمة: محمد المحمدي الريشهري / نشر دار الحديث قم.

الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطباطبائي / مؤسسة النشر الإسلامي.

نتائج الأفكار في نجاسة الكفار: السيد محمد رضا الكلبيكاني / دار القرآن / ط ١.

نفس الرحمان في فضائل سيدنا سلمان: الميرزا حسين النوري / ت جواد القيومي / ط

١ / مؤسسة الآفاق.

وسائل الشيعة: الحر العاملي / ت ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام.

ينابيع المودة لدوي القريب: سليمان القندوزي الحنفي / دار الأسوة / ط ١.

فهرست الموضوعات

إيضاح: فصول الزيارة الجامعة:.....	٣
الفصل الرابع من الزيارة: علاقة المؤمن بأهل البيت عليه السلام	٥
الفصل الخامس من الزيارة: الدعاء.....	٦
المحاضرة الحادية والستون: علاقة الفداء لأهل البيت عليه السلام	٩
البحث الأول: مسألة التضحية والفداء.....	١٦
١ _ الولاء التجاري.....	١٦
٢ _ الولاء المزدوج.....	١٧
٣ _ الولاء الخالص.....	١٨
اختبار إبليس.....	١٩
اختبار الأنصار.....	٢٠
اختبار طالوت.....	٢٣
البحث الثاني: التضاد بين الحق والباطل.....	٢٤
مدرسة الصحابة ومدرسة أهل البيت عليه السلام	٢٤
المحاضرة الثانية والستون: الإيمان حقيقته واستحقاقاته.....	٣١
الإيمان حقيقته واستحقاقاته.....	٣٤
مشكلة يوسف عليه السلام	٣٦
الإيمان والكفر تلازم وتضاد.....	٣٧

أوثق عرى الإيمان.....	٣٨
دور الإيمان في الشخصية.....	٣٩
الإيمان والعمل.....	٤١
المحاضرة الثالثة والستون: زيارة قبور الأولياء واللجوء إليهم.....	٤٣
البحث الأول: زيارة القبور والأموات.....	٤٦
البحث الثاني: ما معنى الاستعاذة واللجوء إلى قبور الأنبياء والأئمة عليهم السلام ؟.....	٥٣
المحاضرة الرابعة والستون: أدوات القرب من الله تعالى.....	٥٩
وجوب النظر والمعرفة.....	٦١
مسألة القرب من الله.....	٦٤
المحاضرة الخامسة والستون: أسس العلاقات الاجتماعية في الإسلام.....	٧٣
الولاء للمؤمنين.....	٧٥
البحث الأول: مجالات الحكم الشرعي.....	٧٦
البحث الثاني: فلسفة الحكم الشرعي.....	٧٨
البحث الثالث: ما هو الواجب في العلاقات الاجتماعية؟.....	٨١
النظرية الجاهلية.....	٨١
النظرية الحدائثية.....	٨١
النظرية الإسلامية.....	٨٢
قصة دعبل الخزاعي.....	٨٢
زيارة الإمام الرضا عليه السلام	٨٣
البحث الرابع: استحقاقات الأخوة الإيمانية.....	٨٤
المحاضرة السادسة والستون: الإيمان بين التجسيد والتجريد.....	٨٧
البحث اللغوي.....	٨٩

٩٠	البحث الأول: قراءة الدين
٩٤	البحث الثاني: الأشخاص أم المبادئ؟
١٠٠	البحث الثالث: الانقسامات المذهبية
١٠١	إمامة الإثني عشر
١٠٣	موقع أهل البيت عليهم السلام
١٠٩	ثلاث ظواهر في حياة الأئمة
١١١	المحاضرة السابعة والستون: التفويض إلى الله والنصرة لدين الله
١١٣	المحور الأول: التفويض
١١٣	مراحل الارتباط بالله
١١٥	فتنة ابن الزبير
١١٦	لمحة عن شخصية الزبير
١١٨	عبد الله بن الزبير
١٢٢	البحث الثاني: النصرة لدين الله وأوليائه
١٢٢	أهمية النصرة في الإسلام
١٢٥	عصر الظهور
١٢٩	المحاضرة الثامنة والستون: الاستقلال أو التبعية الفكرية
١٣١	الاستقلال الفكري
١٣٢	ماذا تقول الليبرالية؟
١٣٣	أصالة العقل
١٣٧	الفرق بين الإسلام والليبرالية
١٣٨	الدائرة الأولى
١٣٩	الدائرة الثانية

- ١٤٢..... ما هو الوحي؟
- ١٤٣..... قُدسية النص الشرعي
- ١٤٥..... تقدّم الغرب
- ١٤٦..... لمحة عن الفيروس
- ١٤٨..... شهادة الإمام الصادق عليه السلام
- ١٥١..... المحاضرة التاسعة والستون: الدين العالمي هل هو الإسلام أم دين جديد؟...
- ١٥٣..... البحث الأول: حياة الدين الإسلامي
- ١٥٧..... البحث الثاني: عقيدتنا في النبوءات القرآنية
- ١٥٩..... البحث الثالث: الدين العالمي ما هو؟
- ١٦١..... المحاضرة السبعون: ما هو الهدف الأسمى للنظام السياسي؟
- ١٦٣..... «وَيُظْهِرُكُمْ لِعَدْلِهِ»
- ١٦٤..... العدالة هي الهدف الأسمى
- ١٦٦..... قصة سمرة بن جندب
- ١٧١..... المحاضرة الحادية والسبعون: نظرية الرجعة ومستقبل الجنس البشري
- ١٧٤..... نصوص حول الرجعة
- ١٧٥..... آيات قرآنية حول الرجعة
- ١٧٧..... ما هو مستقبل البشرية في النظرية الدينية؟
- ١٧٧..... تشكيل حكومة الإسلام العالمية
- ١٧٨..... تحولات في عالم الطبيعة
- ١٨٠..... رجوع الصالحين
- ١٨١..... البحث الأول: الإمكان العقلي للرجعة
- ١٨٤..... البحث الثاني: فلسفة الرجعة

البحث الثالث: الدليل على الرجعة	١٨٥
المحاضرة الثانية والسبعون: مظاهر العالم قبل دولة المهدي عليه السلام	١٨٧
البحث الأول: الرؤية الإسلامية لظاهرة الدولة	١٨٩
أسطورة بساط الريح	١٩٢
أسطورة خاتم سليمان عليه السلام	١٩٣
البحث الثاني: ما هو الموقف المطلوب تجاه دولة أهل البيت عليهم السلام ؟	١٩٥
البحث الثالث: ما هو حال العالم قبل المهدي عليه السلام ؟	١٩٧
المحاضرة الثالثة والسبعون: إشكالات على الدولة الدينية	٢٠٣
أهدافنا ومقاصدنا	٢٠٥
بحث حول الدولة	٢٠٧
إشكالات الدولة الدينية	٢٠٨
جواب الإشكال الأول	٢١٠
جواب الإشكال الثاني	٢١١
جواب الإشكال الثالث	٢١٢
جواب الإشكال الرابع	٢١٣
معالم دولة صاحب العصر والزمان عليه السلام	٢١٤
الترايط مع قضية الحسين عليه السلام	٢٢٠
المحاضرة الرابعة والسبعون: موقع أهل البيت عليهم السلام بين الغلو والنصب	٢٢١
القرآن يدعو للاعتدال	٢٢٤
أهل البيت عليهم السلام ينهون عن الغلو	٢٢٥
أسباب الغلو	٢٢٧
أسباب العداء	٢٢٩

المحاضرة الخامسة والسبعون: دور أهل البيت عليه السلام في النظام الكوني	٢٣١
نظرية التفويض المطلق	٢٣٣
نظرية العقول العشرة	٢٣٤
موقع العقل	٢٣٥
التفسير الأول: نظرية وساطة الحقيقة المحمدية	٢٣٦
التفسير الثاني: نظرية القدرة المشروطة	٢٣٧
التفسير الثالث: نظرية الهدف من الخلق هو الإنسان الكامل	٢٤١
المحاضرة السادسة والسبعون: علوم أهل البيت عليه السلام ونقد التفسير الحدائي	
للقرآن الكريم	٢٤٣
البحث الأول: علمهم ومنزلتهم عليه السلام	٢٤٥
الاجتهاد المعاصر في تفسير القرآن	٢٤٦
التفسير بالرأي	٢٤٩
التفسير الحدائي للقرآن	٢٥٠
منزلة أهل البيت عليه السلام	٢٥٣
أساطير كاذبة	٢٥٤
البحث الثاني: أهل البيت عليه السلام هم الطريق إلى الله	٢٥٦
المحاضرة السابعة والسبعون: نتائج موالاة أهل البيت عليه السلام	٢٥٧
معالم الدين	٢٦٠
صلاح الأمة	٢٦٠
تمام الكلمة	٢٦٢
النعمة العظيمة	٢٦٣
اثتلاف الفرقة	٢٦٣

الموالة طريق المعرفة.....	٢٦٤
جمع القرآن.....	٢٦٥
القرآن هو المقياس.....	٢٦٦
تدوين السُنَّة.....	٢٦٧
المحاضرة الثامنة والسبعون: معالم الفكر الشيعي.....	٢٧٣
المَعْلَم الأول: الكمال الإلهي المطلق.....	٢٧٥
المَعْلَم الثاني: إرادة الإنسان وحرية اختياره.....	٢٧٧
المَعْلَم الثالث: عصمة الأنبياء والأئمة الأطهار عليهم السلام	٢٧٨
المَعْلَم الرابع: إمامة أهل البيت عليهم السلام	٢٧٩
المَعْلَم الخامس: الأئمة عليهم السلام اثنا عشر.....	٢٧٩
المَعْلَم السادس: غيبة الإمام الثاني عشر.....	٢٨٠
المَعْلَم السابع: الرؤية الواقعية للتاريخ.....	٢٨١
المَعْلَم الثامن: الموقف من الحاكم الجائر.....	٢٨٣
المَعْلَم التاسع: موقع الأمة.....	٢٨٣
المَعْلَم العاشر: إشراف الفقهاء.....	٢٨٤
المَعْلَم الحادي عشر: مصادر التشريع عبارة عن الكتاب والسُنَّة.....	٢٨٥
المَعْلَم الثاني عشر: العلاقة الحية مع أهل البيت عليهم السلام	٢٨٦
المحاضرة التاسعة والسبعون: المقام المحمود.....	٢٨٩
تفسير: «طَاطَا كُلُّ شَرِيفٍ لِّشَرَفِكُمْ».....	٢٩٢
تفسير: «وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِكُمْ».....	٢٩٤
المقام المحمود.....	٢٩٦
تفسير درجة الوسيلة.....	٢٩٨

هل يمكن بلوغ المقام المحمود؟.....	٣٠٠
الطريق لبلوغ مقامات الآخرة.....	٣٠١
المحاضرة الثمانون: الدعاء في ختام الزيارة.....	٣٠٣
المفهوم الأول: ما هو الهدف من الزيارة؟.....	٣٠٥
المفهوم الثاني: دور الإمام.....	٣٠٦
المفهوم الثالث: أهمية الدعاء.....	٣٠٦
المطالب المهمة الثلاثة.....	٣٠٧
المطلب الأول: موقع الشهادة.....	٣٠٧
زيغ القلوب.....	٣١٠
مصادر التحقيق.....	٣١٣
فهرست الموضوعات.....	٣١٩